سيمون الحايك
دكتور في الفلسفة

عبد الرحمن الداخل

(صقر قريش)

قصة وتاريخ

١٩٨٢

العاصفة

صفا الجو لسليمان بعد وفاة أخيه الوليد بن عبد الملك وانصرف الى الشراب، وبينما كان يتلهّى به بحيث انه كان يشرب بالرطل ومعه ندماؤه، فتوسّد وتوسّدوا ايديهم، فانتبه سليمان مذعوراً وهزّ احد ندمائه فقال له: ما شأن الأمير؟

فقال: على رسلك، رأيت وكأني في مسجد دمشق وكأنّ رجلاً في يده خنجر وعليه تاج أرى بصيص ما فيه من جوهر وهو رافع صوته بهذه الأبيات:

«ابني امية قد دنا تشتيتكم   وذهاب ملككم وان لا يرجع
وينال صفوته عدوّ ظالم   للمحسنين اليه ثمّة يفجع
بعد الممات بكل ذكر صالح   يا ويله من قبح ما قد يصنع

وعجب النديم من حفظ سليمان الشعر ولم يكن من اصحاب ذلك. فقال سليمان: «بعيد ما يأتي به الزمان قريب».

ولم يجتمع منذ ذلك الحين على شراب.

وما طال أمره حتى توفي وخلفه عمر بن عبد العزيز ثم يزيد الثاني ثم هشام بن عبد الملك وامتدّ ملكه حوالي عشرين عاماً (٧٢٤ ـ ٧٤٤)، وخشي الغد وما يأتي به فراح يستجلي الغيب فدعا أخاه مسلمة بن عبد الملك ليكشف له الطالع. وغاص مسلمة في التفكير وصاح به هشام: ما بك؟

ـ الغد لا يبعث على التفاؤل، يا أمير المؤمنين.

فارتعش هشام وقال: ماذا ترى؟

ـ لا أرى دولة ثابتة الدعائم، وليست ميمونة الطالع، ولم يبق لنا فيها رجاء يا أخي.

وراع هشام ما يسمع.

فقال مسلمة: خفف عنك، ستظلّ هذه الدولة قائمة بعدك الى حين ثم تنتقل الى بني اعمامنا من آل هاشم وشاء المزيد فقال: ونحن ماذا يحلّ بنا؟

فتردّد مسلمة ثم قال: «أرى بحيرة تضطرب بالدم واني لأبصر بأيد ضارعة وشفاه تطلب النصرة فلا يهفو اليها مغيث وكلما حاول منكوب ان ينجو بنفسه من المستنقع القاني أهوى عليه سيف رهيف وطويل فيفلقه ويدحرجه الى الأعماق، على ان هامة فتية قدّت غشاوة الدم ووثبت الى الضفة الآمنة من البحيرة تجاهد في الخلاص وقبضت يـدها عـلى جذع اسعفها على الدنوّ من اليابسة وانقضّ عليها بالسيف فأخطأها واتسع لها مجال الفرار.

ـ والى اين انتهى الفار يا مسلمة؟

ـ الى المغرب يا أمير المؤمنين، يعيد المجد المفقـود ويؤسّس دولة تعادل بسناها الدولة المشرقية

ـ وطلع الصباح في الحديقة على صبية يلعبون وما أبصروا الخليفة حتى تحلقوا عليه وهم أبناؤه وأحفاده فابتسم لهم ورفع أحدهم اليه وراح يقبله كأنه احبهم الى قلبه فقال مسلمة:

---

(١) ـ ومما يروى عن مسلمة انه قال ذات يوم للشاعر نصيب: «امدحت فلانا؟، يعني واحدا من اهل بيته.
قال له نصيب: قد كان ذلك. قال: او حرمك؟ قال: قد كان ذلك
قال: افلا هجوته؟ قال: لم افعل:
قال: وَلِمَ؟ قال: لاني كنت احق بالهجاء منه اذ وضعت مدحي في مثله.
فاعجب مسلمة قوله فقال له: سلني.
قال: لا افعل. قال مسلمة: وَلِمَ؟ قال: لان يدك بالعطاء اسمح مني بالسؤال فاعطاه الف دينار.

«ابن من هذا يا أمير المؤمنين؟

فقال هشام: هذا عبد الرحمن ابن ولدي معاوية الذي توفي عن ثلاثة اولاد وهذا أدناهم الى عطفي.

فداعب مسلمة الغلام وهمس في اذن هشام:

«هذا هو الهارب من بحيرة الدم الحامل الى المغرب مجد الأمويين هذا صاحب بني امية ووزرهم عند زوال ملكهم فاستوصِ به خيراً.

فصار هشام منذ ذلك اليوم يتعهد الصبي بالصلة في كل شهر دون سائر اخوته.

وكانت كلمات مسلمة دائمة الرنين في اذن الوليد عبد الرحمن لشهرة مسلمة بالتنجيم

وكان هشام احول خشناً يجمع الأموال ويعمّر الأرض ويستجيد الخيل واقام الحلبة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس ولم يعرف ذلك في جاهلية ولا اسلام. واصطنع الرجال وقوى الثغور واتخذ القنى والبرك بطريق مكة. وفي ايامه عمل الخز فسلك الناس مذهبه ومنعوا ما في ايديهم فقلّ الافضال وانقطع الرفد ولم يُرَ زمن اصعب من زمانه.

وفي ايامه استشهد زيد بن علي.

وكان زيد شاور أخاه أبا جعفر فأشار عليه بأن لا يركن الى اهل الكوفة اذ كانوا اهل غدر ومكر، وقال له: «بها قتل جدكِ علي وبها طعن عمك الحسن وبها قتل ابوك الحسين». فأبى الا ما عزم عليه من المطالبة بالحق. فقال له: «اني اخاف عليك يا أخي، ان تكون غداً المصلوب بكناسة الكوفة».

وكان زيد قد دخل على هشام بالرصافة. فلما مثل بين يديه لم ير موضعاً يجلس فيه فجلس حيث انتهى به مجلسه وقال:

«يا أمير المؤمنين، ليس أحد يكبر على تقوى الله ولا يصغر دون تقوى الله».

فقال هشام: «اسكت، لا أم لك، انت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وانت ابن امة.

قال: «يا أمير المؤمنين، ان لك جواباً ان احببت اجبتك به وان احببت امسكت عنه.

فقال: بل أجب.

- ان الأمهات لا يقتعدن بالرجال عن الغايات وقد كانت ام اسماعيل امة لأم اسحق، فلم يمنعه ان يبعثه الله نبياً وجعله للعرب أباً فأخرج من صلبه خير البشر محمد صلعم، فتقول لي هذا وأنا ابن فاطمة وابن علي؟

ومضى الى الكوفة وخرج عنها ومعه القرّاء والأشراف فحاربه يوسف بن عمر الثقفي. فلما قامت الحرب انهزم اصحاب زيد وبقي في جماعة يسيرة فقاتلهم أشدّ قتال وهو يقول متمثلاً:

اذل الحياة وعز الممات   وكلاًّ اراه طعاماً وبيلا
فان كان لا بد من واحد   فسيري الى الموت سيرا جميلا

وحال المساء بين الفريقين فراح زيد مثخناً بالجراح وقد أصابه سهم في جبهته فطلبوا من ينزع النصل فاتي بحجام من بعض القرى فاستكتموه أمره فاستخرج النصل فمات من ساعته. فدفنوه في ساقية ماء وجعلوا على قبره التراب والحشيش واجرى الماء على ذلك. وحضر الحجام مواراته فعرف الموضع، فلما اصبح مضى الى يوسف بن عمر الثقفي ودلّه على موضع قبره فاستخرجه يوسف وبعث برأسه الى هشام فكتب اليه هشام ان اصلبه عرياناً. فصلبه يوسف.

وفي ذلك يقول بعض شعراء بني امية يخاطب آل ابي طالب وشيعتهم:

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة   ولم ار مهديّا على الجذع يصلب.

وبنى تحت خشبته عموداً. ثم كتب هشام الى يوسف باحراقه وذروره في الرياح.

وكان هذا الصنيع بمثابة مسمار آخر يدقّ في نعش الدولة الأموية التي اصبحت مكروهة عند الناس ملعونة مذمومة شديدة الوطأة مستهترة بالمعاصي والقبائح.

وفي عهد هشام وصلت سارة القوطية الى دمشق تتظلم من عمها «ارطباس». وقصتها ترجع الى الفتح العربي:

ولما سار اولاد غيطشة الى طارق بالأمان، وكانوا سبب الفتح قالوا لطارق بن زياد:

«أنت أمير نفسك أم فوقك أمير؟

فقال: «بل على رأسي أمير وفوق ذلك الأمير أمير عظيم.

فاستأذنوه باللحاق بموسى بن نصير بأفريقية ليؤكّدوا سببهم به، وطلبوا من طارق اعطاءهم كتاباً الى موسى بشأنهم معه وما اعطاهم من عهده، ففعل.

وساروا نحو موسى فتلتوه بانحداره الى الأندلس بالقرب من بلاد البربر، وعرّفوه بشأنهم ووقف على ما خاطبه به طارق في ذمتهم وسابقتهم، فانفذهم الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بالشام وكتب اليه بما عرّفه به طارق من جميل أثرهم.

فلما وصلوا الى الوليد أكرمهم وانفذ لهم عهد طارق في ضياعهم وضياع والدهم وعقد لكل واحد منهم سجلاً وجعل لهم ان لا يقوموا الداخل عليهم. فقدموا الأندلس وجازوا الضياع اجمع (ضياع والدهم) واقتسموها على موافقة منهم، فصار منها لكبيرهم «المند» الف ضيعة في غرب الأندلس فسكن لأجلها اشبيلية مقترباً منها.

وصار «لارطباس» الف ضيعة وهو تلوه في السن وضياعه في موسطة الأندلس فسكن من اجلها قرطبة.

وصار لثالثهم «ايلة» الف ضيعة في شرقي الأندلس وجهة الثغر فسكن من اجلها طليطلة.

فكانوا على هذه الحال صدر الدولة العربية الى ان هلك «المنـد» كبيرهم وخلّف ابنته سارة المعروفة القوطية وابنين صغيرين. فبسط ارطباس يده على ضياعهم وضمها الى ضياعه وذلك في خلافة امير المؤمنين هشام بن عبد الملك.

فأنشأت سارة بنت «المند» مركباً باشبيلية حصيناً كامل العدة وركبت فيه مع اخويها الصغيرين تريد الشام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها. ثم قصدت الخليفة هشاماً بداره دمشق فانهت خبرها وشكت ظلامتها من عمها وتعديه عليها واحتجت بالعهد المنعقد لابيها واخوته على الخليفة الوليد بن عبد الملك.

فاوصلها هشام الى نفسه واعجبه حزمها وصورتها. وكتب الى حنظلة بن صفوان عامله بافريقية بانصافها من عمها ارطباش وامضائها واخويها على منة الميراث فيما كان في يد والدها مما قاسم فيه اخوته.

فانفذ الكتاب الى عامله بالأندلس ابي الخطار بن عمه فتمّ لها ما ارادت.

ومكثت في الشام حيناً بناء على رغبة الخليفة هشام الذي انكحها من عيسى بن مزاحم، فابتنى بها بالشام ثم قدم بها الى الأندلس وقام لها في دفاع عمها ارطباش عن ضياعها فنال بها نعمة عظيمة. وولد له منها ولدان هما ابراهيم واسحق فأدركا الشرف المؤثل والرئاسة باشبيلية وشهرا ونسلهما بالنسبة الى امهما سارة القوطية.

وكانت ايام وفادتها على الخليفة هشام رأت عنده حفيده عبد الرحمن بن معاوية فسألها عن احوال الأندلس فوصفتها له وخصب اراضيها وعليل نسيمها وجودة فاكهتها وصفاء سمائها على حد قول الشاعر:

«يا حسن اندلس وما جمعت لنا ... منها من الأوطار والأوطان
تلك الجزيرة لست انسى حسنها ... بتعاقب الأجيال والأزمان
نسج الربيع نباتها من سندس ... موشية ببدائع الألوان
وغدا النسيم بها عليلاً هائماً ... بربوعها وتلاطم البحران
يا حسنها والظلّ ينثر فوقها ... درراً خلال الورد والريحان

وسواعد الأنهار قد مدّت الى ندمائها بشقائق النعمان
وتجاوبت فيها شوادي طيرها والتفّت الأغصان بالأغصان
ما زرتها الا وحياني بها حدق البهار وانمل السوسان
من بعدها ما اعجبتني بلدة مع ما حللت به من البلدان»

فازداد شوق عبد الرحمن الفتى الى معرفة تلك البلاد النائية والحف بالسؤال:

ـ الا تبالغين في الاطراء لانها بلادك؟

فاجابته متمثلة بقول شاعر آخر:

«لله اندلس وما جمعت بها من كل ما ضمت بها الاهواء
فكأنما تلك الديار كواكب وكأنما تلك البقاع سماء
وبكل قطر جدول في جنة ولعت بها الأفياء والأنداء».

فشطح به الخيال بعيداً وتصوّر الأندلس واسترسل في تفكيره ورسخت في ذهنه اوصافها واشتاق للذهاب اليها ولم يكن في ذلك الحين يعلم انه سيصبح سيد تلك البقاع النائية عن وطنه دمشق.

الوليد بن يزيد

وجاء الوليد بن يزيد من فتيان بني امية فانهمك في اللهو والشراب وسماع الغناء وكان هشام بن عبد الملك قد عزم على خلعه لمّا رأى استهتاره بالمعاصي وعكوفه على الملذات وانهاك حرمات الله، فغضب على هشام وأضمر له الحقد ولكنه لم يكن قادراً على الاتيان بشيء في حياة الخليفة. ولكن لما افضت الخلافة اليه لم يزدد الا انهماكاً في الملذات واستهتاراً بالمعاصي واغضاب اكابر اهله والاساءة اليهم، ومن شعره قوله:

«اني سمعت خليلي نحو الرصافة رنّه
اقبلت اسحب ذيلي اقول ما حالهنّه
اذا بنات هشام يندبن والدهنه
يدعون ويلاً وعولاً والويل حلّ بهنه
انا المخنّث حقاً ان لم انيكنهنه

ومما يحكى عنه انه استفتح فالاً في المصحف فخرج: «واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد». فألقاه ورماه بسهم وقال:

«تهـددني بـجبـار عـنيـد نعم انـا ذاك جبـار عنيـد
اذا ما جئت ربك يوم بعث فقل يا رب خرقني الوليـد

وماذا ينتظر من أمير المؤمنين عندما يصدر عنه مثل هذا الكلام سوى القتل؟ فاجتمع عليه اعيان رعيته وهجموا عليه وقتلوه. وكان المتولي لذلك يزيد بن الوليد بن عبد الملك المسمى «الناقص» لانه نقص من اعطيات أهل الحجاز ما كان قد زادهم الوليد بن يزيد. ولكنه ما لبث ان مات وخلفه اخوه ابراهيم.

واضطرب امره فمكث سبعين يوماً. وسار اليه مروان بن محمد بن مروان الجعدي فخلعه وبويع له بالخلافة بعد حروب وفتن ووقائع تشيب منها الأطفال.

واضطرب حبل بني امية والرياح الهوجاء تعصف بها فتهزها هـزاً قوياً، فالضربات تنهال عليهم من كل جانب وكلها قاتلة والخليفة مروان الجعدي يغالب العواصف وتغلبه، فكلما داوى جرحاً سال جرح. نجا من ثورة الحروزي في العراق فهبّت عليه فتنة نعيم بن ثابت الجذامي في الأردن فضرب عنقه فعلت صرخة ابي مسلم الخراساني في خراسان واظهر دعوة بني العباس، واجتمع اليه كل من له في ذلك رأي من اهل خراسان. وجر عسكراً كثيفاً ليقاتل به امير خرسان وهو نصر ابن سيّار. فلما بلغ نصراً حال ابي مسلم وجموعه راعه ذلك فكتب الى مروان الحمار[1]

«ارى بين الرماد وميض نار ويوشك ان يكون لها ضرام
فان النار بـالعودين تـذكى وان الحـرب اولهـا كـلام
فـان لم يطفهـا عقلاء قـوم يكـون وقودهـا جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري ايقـاظ اميـة ام نيـام؟

---

١ ـ سمّي الحمار لصبره وعناده.

فـان كـانـوا لحينهم نيـامـا   فقل قوموا فقد حان القيام
فقرّى عن رحالك ثم قولي   على الاسلام والعرب السلام»

فكتب اليه مروان: «ان الحاضر يرى ما لا يرى الغائب فاحسم انت هذا الداء الذي قد ظهر عندك».

فقال نصر بن سيّار لأصحابه: «اما صاحبكم فقد اعلمكم انه لا نصر عنده».

واقام مروان اكثر ايامه لا يدنو من النساء. وبرزت له جارية من جواريه تجر مطارف الحسن الانور، فانتهرها بزعقة داعرة: اغربي يا ابنة اللخناء، والله لا دنوت منك ولا حللت لك عقدة مئزر وخرسان تضطرم بنصر بن سيار وقد امسك منه ابو مسلم الخراساني بالخناق، فكاد يصرعها. وران عليها الشلل فرسخت في وقفتها لا تندفع في خطوة. واستبطأ مروان انصرافها فنهض اليها متبرماً بها ودفعها بجمع يديه وشفتاه تتدفقان بالقول الحاطم: اتريدينني على المعصية يا قبيحة العرض،؟ وقد نهيت عنها نفسي، والله، ما اشتريت اجمل امرأة بفلس زائف ومملكتي على قضقضة وخاطري في ضنى، انت في نظري دَميمة شائنة مع كل اناقة فيك.

فآنهارت كالصنم فركلها وصاح بحاجبه: ادفع عني مـرأى الخبيثة النتنة، ما انا بحاجة الى الفحش ودولتي مظلمة المحيّا.

وتلظّى فيه السخط فالغد يقلقه. وعاد ينادي خادمه مخاطباً اياه بزئير: لست ابيح لامرأة ان تدوس هذه العتبة. كل معاندة نصيبها الموت وكل شذوذ يكلفك حياتك.

فانحنى الحاجب وتوارى في رفة عين.

وكان مع ما هو فيه يديم قراءة سير الملوك واخبارها في حروبها من الفرس وغيرها من ملوك الأمم، وعذله بعض اوليائه مما كان يأنس اليه في ترك النساء والطيب وغير ذلك من الملذات.

فقال له مروان: يمنعني منهن ما منع أمير المؤمنين عبد الملك. فقال له الرجل:

«وما ذاك يا أمير المؤمنين؟

قال: حمل صاحب افريقية اليه جارية ذات بهاء وكمال تامة المحاسن شهية للمتأمل. فلما وقفت بين يديه تأمل حسنها وبيدها كتاب ورد من الحجاج وهو بدير الجماجم مواقعاً لابن الاشعث، فرمى بالكتاب من يده وقال لها:

«انت والله منية النفس».

فقالت الجارية: ما يمنعك، يا أمير المؤمنين، اذا كنت بهذا الوصف؟

قال: يمنعني والله منك بيت قاله الأخطل:

«قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت باطهار»

فلما قتل ابن الاشعث كانت اول جارية خلا بها.

ولما يئس نصر بن سيار من انجاد مروان كتب الى يزيد بن عمر الفزاري، عامل مروان على العراق يستمده ويسأله النصرة على عدوّه وضمّن كتابه ابياتاً من الشعر:

«ابلغ يزيد وخير القول اصدقه وقد تبينت ان لا خير في الكذب
بان ارض خراسان رايت بها بيضا نوافخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين الا انها كبرت لما يطرن وقد سربلن بالزغب
فان يطرن ولم يحتل لهن بها يلهبن نيران حرب ايما لهب

فلم يجبه يزيد بن عمر عن كتابه وتشاغل بدفع فتن العراق.

وتواترت الأخبار الى مروان بهذا الأمر وأمره في كل يوم يضعف.

ثم بلغه ان الذي تدعو الدعاة اليه هو ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس اخو السفاح والمنصور، فأرسل اليه وقبض عليه وأحضره الى حران فحبسه فيها ثم سمّه في الحبس فمات.

وجرت بين ابي مسلم وبين نصر بن سيار وغيره من أمراء خراسان حروب ووقائع كانت فيها الغلبة للعباسيين «المسودّة» وهم عسكر ابي

مسلم، وانما سمّوا «المسودة» لأن الزي الذي اختاروه لبني العباس هو لون السواد.

لما قدّر الله انتقال الملك الى بني العباس هيأ له جميع الأسباب. فكان ابراهيم الامام بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بالحجاز والشام جالساً على مصلاه مشغولاً بنفسه وعبادته ليس عنده من الدنيا طائل، واهل خراسان يقاتلون عنه ويبذلون نفوسهم واموالهم دونه واكثرهم لا يعرفه. وانظر الى ابراهيم الامام هو بتلك الحالة من الانقطاع بداره واعتزال الدنيا وهو بالحجاز والشام وله مثل هذا العسكر العظيم في خرسان يبذلون نفوسهم دونه لا ينفق عليهم مالاً ولا يعطي احدهم دابة ولا سلاحاً بل هم يجبون له الأموال ويحملون اليه الخراج في كل سنة.

ولما قدّر الله تعالى خذلان مروان وانقراض ملك بني امية كان مروان الحمار خليفة مبايعاً ومعه الجنود والأموال والسلاح والدنيا بأجمعها عنده والناس يتفرقون عنه.

ولما غلب ابو مسلم على خراسان واستولى على كورها وقويت شوكته سار الى العراق بالجنود.

وكان لما قبض مروان على ابراهيم الامام وحبسه بحران كما اشرنا، خاف اخوه السفاح والمنصور وجماعة من اقاربهم، فهربوا وقصدوا الكوفة وكان لهم بها شيعة منهم ابو مسلمة حفص بن سليمان الخلّال وكان من كبار الشيعة بالكوفة وصار بعد ذلك وزيراً للسفاح، ثم قتله السفاح. فأخلى لهم ابو مسلمة الخلّال داراً بالكوفة وأمر لهم بها وتولّى خدمتهم بنفسه وكتم امرهم.

واجتمعت الشيعة اليه وقويت شوكتهم فوصل ابو مسلم بالجنود من خراسان الى الكوفة، فدخل على بني العباس وقال: ايكم ابن الحارثية؟ فقال له ابو جعفر المنصور: هذا، واشار الى العباس وكانت امه حارثية. فسلّم ابو مسلم عليه بالخلافة.

وخرج السفاح ومعه اخوته وعمومته واقاربه واكابر الشيعة وابو مسلم

بين يديه الى الجامع فصلّى وصعد المنبر واظهر الدعوة وخطب الناس وبويع بالخلافة في سنة مائة واثنين وثلاثين.

ثم عسكر السفاح ظاهر الكوفة ووفد عليه الناس من الأمصار يبايعونه. فلما اجتمع عنده الناس وقويت شوكته ندب رجلاً من اقاربه لقتال مروان الحمار، فانتدب لذلك عمه عبد الله بن علي، وكان من رجال بني العباس. فتوجه عبد الله بن علي الى مروان فلقيه بالزاب ومع مروان مائة وعشرون الف مقاتل ولا يكون مع عبد الله بن علي الا اقل من ذلك.

لما التقى علي الزاب مروان الحمار وعبد الله بن علي، قال مروان لبعض اصحابه: «ان غابت الشمس هذا النهار ولم يقاتلوا فالخلافة لنا ونحن نسلّمها في آخر الأزمان الى المسيح عليه السلام». وأمر أصحابه بالكف عن القتال وقصد ان يقضي النهار ولا يقع قتال.

ثم ارسل الى عبد الله بن علي يسأله الموادعة.

فقال عبد الله: «كذب، لا تزول الشمس حتى اوطئه بالخيل ان شاء الله، فكان من الاتفاقات الظريفة ان صهر مروان حمل على قطعة من عسكر عبد الله بن علي فرده مروان وشتمه فلم يقبل، ونشب القتال فأمر عبد الله بن علي أصحابه بالمناجزة فجثوا على الركب واشرعوا الرماح ونادى عبد الله ابن علي: يا رب متى نقتل فيك؟.

ونادى: «يا اهل خراسان، يا لثارات ابراهيم الامام.

واشتدّ القتال، فصار مروان اذا امر طائفة من العسكر بشيء قالوا: قل للطائفة الأخرى، وبلغ من امره انه قال لصاحب شرطته: «انزل الى الارض». فقال: لا، والله لا القي بنفسي في التهلكة.

فقال له مروان: لأفعلن بك، وتهدده.

فقال: وددت انك تقدر على ذلك.

ثم رأى مروان فترة اصحابه ومناجزة اصحاب عبد الله بن علي. فوضع مروان ذهباً كثيراً قدام الناس وقال: «ايها الناس، قاتلوا وهذا المال لكم».

فصار الناس يمدّون ايديهم الى المال ويتناولون منه شيئاً فشيئاً.

فقال بعض الناس لمروان: «ان الناس قد مدّوا ايديهم الى المال ولا نأمن انهم يذهبون به. فأمر مروان ابنه ان يسير في اواخر العسكر فمن وجد معه شيئاً من المال قتله.

فرجع ابنه برايته ليتعهد ما قال، فرأى الناس الراية راجعة فنادوا: الهزيمة، الهزيمة.

فانهزم الناس ومروان ايضاً وعبروا دجلة فكان من غرق اكثر ممن قتل. وتلا عبد الله بن علي: «واذا فرقنا بكم البحر فانجيناكم واغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون».

ثم انتقل الى عسكر مروان وغنم ما فيه واقام به سبعة ايام.

ومضى مروان منهزماً حتى وصل الى الموصل فقطع اهلها الجسر ومنعوه من العبور، فنادى اصحابه: «يا أهل الموصل، هذا أمير المؤمنين يريد العبور. فناداهم اهل الموصل: «كذبتم، امير المؤمنين لا يفرّ.

وسبّه اهل الموصل وقالوا له: «الحمد لله الذي ازال سلطانكم وذهب بدولتكم، الحمد لله الذي اتانا بأهل بيت نبيّنا.

فلما سمع ذلك سار الى بلد آخر وعبر دجلة واتى حرّان.

وذكر اسماعيل بن عبد الله القسري قال:

«دعاني مروان الحمار وقد اوفى على الهزيمة الى حران فقال: يا ابا هاشم، قد ترى ما جاء من الأمر وانت الموثوق به ولا مخبأ بعد بؤس، فما الرأي؟

فقلت: يا امير المؤمنين، علام اجمعت؟ قال: على ان ارتحل بموالي ومن تبعني من الناس حتى اقطع الدرب واميل الى مدينة من مدن الروم فانزلها واكاتب صاحبها واستوثق منه، فقد فعل ذلك جماعة من ملوك الاعاجم، وليس هذا عاراً بالملوك، فلا يزال يأتيني الخائف والهارب والطامع فيكثر من معي ولا ازال على ذلك حتى يكشف الله امري وينصرني على عدوّي.

فلما رأيت ما أجمع عليه وكان الرأي، ورايت ان اثار منه لقومي من قحطان، قلت: اعيذك بالله يا امير المؤمنين من هذا الرأي، تحكّم اهل الشرك في بناتك وحرمك وهم الروم ولا وفاء لهم، ولكن اقطع جنداً صنائع يسيرون معك حتى تأتي مصر فانها اكثر ارض الله مالاً وخيلاً ورجالاً، ثم الشام امامك وافريقية خلفك فان رايت ما تحب انصرفت الى الشام وان كانت الاخرى مضيت الى افريقية.

قال: صدقت.

ولما غدر به النزارية وخذلوه ووثب به اهل حمص ووثب به اهل دمشق ووثب به اهل الاردن وفلسطين علم ان اسماعيل قد غشه في الرأي، والاولى كان نزول بعض حصون الروم ومكاتبة ملكها.

وخرج مروان في اهله وسائر بني امية من حران وعبر الفرات. ونزل عبد الله بن علي على باب حران فهدم قصر مروان الحمار واحتوى على الخزائن والأموال.

وسار مروان فيمن معه من خواصه وعياله حتى انتهى الى نهر ابي فطرس من بلاد فلسطين والاردن فنزل عليه. وسار عبد الله بن علي حتى نزل دمشق وحاصرها وفيها يومئذ الوليد بن معاوية بن عبد الملك في خمسين الف مقاتل فوقعت بينهم العصبية في فضل اليمن على نزار ونزار على اليمن فقتل الوليد بن معاوية.

ورحل صالح بن علي في طلب مروان فلحقه بمصر عامر بن اسماعيل وقد نزل بوصير فبايتوه وهجموا على عسكره وضربوا الطبول وكبّروا ونادوا: يا لثارات ابراهيم. فظنّ من في عسكر مروان ان قد احاط بهم سائر المسودّة.

وقال لجند بني العباس اميرهم: «ان اصبحنا ورأوا قلّتنا اهلكونا ولم ينجُ منا احد فناجزوا القوم.

وكسر جفن سيفه وفعل اصحابه مثله وحملوا عليهم فانهزموا وحمل رجل على مروان فطعنه وهو لا يعرفه فصرعه وصاح صائح: «صرع امير

المؤمنين. فابتدره فسبق اليه رجل من اهل الكوفة فاحتز راسه ثم نفض الرأس وقطع لسانه فأكلته هرة كانت هناك.

ثم حمل الرأس الى السفّاح فوصل اليه وهو بالكوفة. فلما رآه سجد ثم رفع رأسه وقال: الحمد لله الذي اظهرني عليك واظفرني بك، وتمثل:

«لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني

ولما قتل عامر بن اسماعيل مروان واراد الكنيسة التي فيها بنات مروان ونساؤه واذا بخادم لمروان شاهر السيف يحاول الدخول عليهن. فأخذوا الخادم فسئل عن امره فقال: امرني مروان اذا هو قتل ان اضرب رقاب بناته ونسائه.

ثم وجّه عامر بنات مروان وجواريه والأسارى الى صالح بن علي. فلما دخلن عليه تكلمت ابنة مروان الكبرى فقالت «يا عم امير المؤمنين نحن بناتك وبنات اخيك فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جوارنا.

قال: «العفو قد وسعكم، فان احببت زوجتك من الفضل بن صالح ابن علي وزوجت اختك من اخيه عبد الله.

فقالت: «يا عم امير المؤمنين، وأي اوان عرس هذا؟ بل تلحقنا بحرّان.

قال: فاذاً افعل ذلك بكم ان شاء الله.

فالحقهن بحرّان فعلت اصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان فشققن جيوبهن واعولنا بالصياح والنحيب حتى ارتجّ العسكر منهن.

اما ابنا مروان عبد الله وعبيد الله فقد تخلّيا عن والدهما في المعركة الليلية وهاما على وجههما في السحر.

فلما كان الغد لحق الناس بعبد الله وعبيد الله ابني مروان وجعلوا يأتونهما متقطعين العشرة والعشرين واكثر واقل فيقولون: كيف امير المؤمنين؟ فيقول بعضهم تركناه يقاتلهم ويقول البعض انحاز وثاب اليه قوم. ولا ينعونه حتى اتوا الحرون فقال: «كنت معه انا ومولى له فصرع

فجررت برجله فقال: اوجعتني فقاتلت انا ومولاه عنه وعلموا انه مروان فألحّوا عليه فتركته ولحقت بكم.

فبكى عبد الله. فقال له اخوه عبيد الله: «يا ألأم الناس، فررت عنه وتبكي عليه؟»

ومضوا

وكانوا اربعة الآف فأتوا بلاد «النوبة» فأجرى عليهم ملك النوبة ما يصلحهم ومعهم ام خالد بنت يزيد وام الحكم بنت عبيد الله صبية جاء بها رجل من عسكر مروان حين انهزموا فدفعها الى ابيها.

ثم اجمع ابنا مروان على ان يأتيا اليمن وقال: «نأتيها قبل ان يأتيها «المسودّة» فنتحصن في حصونها وندعو الناس.

فقال لهم صاحب النوبة: لا تفعلوا انكم في بلاد السودان وهم في عدد كبير ولا آمن عليكم فأقيموا. «فأبوا. قال: فاكتبوا اليّ كتاباً. فكتبوا له: انّا قدمنا بلادك فأحسنت مثوانا واشرت علينا ان لا نخرج من بلادك فأبينا وخرجنا من عندك وافرين راضين شاكرين لك بطيب انفسنا».

وخرجوا فأخذوا في بلاد العدّو، فكانوا ربما عرضوا لهم ولا يأخذون منهم الا السلاح حتى أتوا بعض بـلادهم فتلقاهم عـظيمهم فاحتبسهم فطلبوا الماء فكان يبيعهم القربة بخمسين درهماً حتى اخذ منهم مالاً عظيماً.

ثم خرجوا فساروا حتى عرض لهم جبل عظيم بين طريقين، فسلك عبد الله احدهما في طائفة وسلك عبيد الله الآخر في طائفة اخرى وظنوا ان للجبل غاية يقطعونها ثم يجتمعون عند آخرها فلم يلتقوا.

وعرض قوم من العدّو لعبيد الله واصحابه فقاتلوهم فقتل عبيد الله واخذت ام الحكم منه وهي صبية، وقتل رجل من اصحابه وكفّوا عن الباقين واخذوا سلاحهم.

وتقطع الجيش فجعلوا يتنكبون العمران فيأتون الماء فيقيمون عليه الأيام فتمضي طائفة وتقيم الأخرى حتى بلغ العطش منهم فكانوا ينحرون الدابة فيقطعون اكراشها فيشربون حتى وصلوا الى البحر بحيال «المندب».

ووافاهم عبد الله وعليه ثوب صوف، فكانوا جميعاً خمسين او اربعين رجلاً ومنهم الحجاج بن قتيبة بن مسلم فعبر التجار السفن فعبروا بهم الى «المندب» واقاموا بها شهراً، فلم تحملهم فخرجوا الى مكة مع الحجاج وعليهم ثياب غلاظ وجباب الأكرياء حتى وافوا جدة وقد تقطعت ارجلهم من المشي. فمرّوا بقوم فرّقوا لهم فحملوهم ثم حجوا وخرجوا من مكة الى تبالة[1]

وكان على عبد الله فص احمر كان قد غيبه حين عبر الى المندب، فلما امن استخرجه وكانت قيمته الف دينار. وكان يقول وهو يمشي: «ليت به دابة».

فقالوا: ما رأينا مثل عبد الله: قاتلوا فكان اشد الناس، ومشوا فكان اقواهم وجاعوا فكان اصبرهم وعروا فكان احسنهم عرياً.

وبعث وهو بالمندب الى الأعداء الذين أخذوا أم الحكم، بنت اخيه عبيد الله ففداها وبقيت معه. ثم اخذ عبد الله فقدم به على المهدي وهو ثالث الخلفاء العباسيين، فجاءت امرأته بنت يزيد بن محمد فكلمت العبّاس بن يعقوب كاتب عيسى بن علي واعطته لؤلؤاً ليكلّم فيه عيسى فكلّمه واعلمه بما اعطته، فحبسه المهدي ولا ندري أأطلق سراحه أم مات في سجنه.

هذه قصة ذلك الجيش الذي بلغ عدده مائة وعشرين الفاً، تبدّد كما تبدّد الريح الغمام ولم ينج منه احد، كما راينا، فمن لم يمت بالسيف مات غرقاً ومن سلم من الغرق لم يسلم من الجوع ومن اللصوص ومن اهوال الأسفار.

اما بنو امية الذين لم يخوضوا حرباً فليس حظهم بأوفر من حظ هؤلاء.

وكان أشدّ الناس نقمة على الأمويين عبد الله بن علي، فلم يكتف بمطاردة الأحياء بل عمد الى نبش قبور الأموات.

---

١ ـ تبالة بلدة مشهورة من ارض تهامة بينها وبين مكة اثنان وخمسون فرسخا.

يروي لنا عمرو بن هاني قائلاً: «خرجت مع عبد الله بن علي لنبش قبور بني امية في ايام ابي العباس السفاح، فانتهينا الى قبر هشام فاستخرجناه صحيحاً ما فقدنا منه الا حثمة[1] انفه، فضربه عبد الله بن علي ثمانين سوطاً ثم احرقه.

واستخرجنا سليمان بن عبد الملك من ارض دابق فلم نجد منه شيئاً الا صلبه واضلاعه ورأسه فأحرقناه، وفعلنا ذلك بغيرهما من بني امية وكانت قبورهم بقنسرين.

ثم انتهينا الى دمشق فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك، فما وجدنا في قبره قليلاً ولا كثيراً، ولا عجب في ذلك فقد كان مضى على وفاته ما يزيد على خمسة وثلاثين عاماً.

واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا الا شؤن رأسه.

ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فما وجدنا فيه الا عظماً واحداً ووجدنا مع لحده خطاً اسود خط بالرماد في الطول في لحده.

ثم اتبعنا قبورهم في جميع البلدان فاحرقنا ما وجدنا فيها منهم.

واستقامت الأحوال لبني العباس، واقبل ابو العباس الى الشام وخطب فيهم فقال:

«الم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً واحلّوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار. نكص بكم يا اهل الشام آل حرب وآل مروان يتسكعون بكم الظلم ويتهورون بكم مداحض الزلق، يطؤون بكم حرم الله وحرم رسوله. ماذا يقول زعماؤكم غداً؟ ويقولون ربنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عقاباً ضعفاً من النار. اذا يقول الله عزّ وجلّ «لكل ضعف ولكن لا تعلمون». اما امير المؤمنين فقد ائتنف بكم التوبة واغتفر لكم الذلة وبسط لكم الاقامة وعاد بفضله على نقصكم وبحلمه على جهلكم فليفرخ روعكم ولتطمئن به داركم ولتعظم مصارع اوائلكم فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا».

---

١ ـ الحثمة بفتح الحاء وسكون الثاء ارنبة الانف.

وحرّك شعراء الشيعة الاسياد الجدد على ابادة الامويين، فهذا سديف ابن ميمون يحرّض أبا العباس السفاح فيقول له:

«قد اتتك الوفود من عبد شمس — مستعدين يوجعون المطيّا
عنوة ايها الخليفة لا عن — طاعة بل تخوفوا المشرفيّا
لا يغرنك ما ترى من رجال — ان تحت الضلوع داء دويّا
فضع السيف وارفع السوط حتى — لا ترى فوق ظهرها امويّا

وليسوا بحاجة الى التحريض ونفوسهم تفور حقداً وضغينة على الامويين فبثوا عليهم العيون والارصاد في جميع انحاء البلاد.

الخلفاء الامويون

معاوية بن ابي سفيان ٦٦١ ـ ٦٨٠ م

يزيد بن معاوية ٦٨٠ ـ ٦٨٣ م
معاوية الثاني ٦٨٣ ـ ٦٨٤

مروان بن الحكم: ٦٨٤ ـ ٦٨٥

عبد الملك بن مروان: ٦٨٥ ـ ٧٠٥

الوليد بن عبد الملك: ٧٠٥ ـ ٧١٥

سليمان اخوه: ٧١٥ ـ ٧١٧

عمر بن عبد العزيز: ٧١٧ ـ ٧٢٠

يزيد الثاني: ٧٢٠ ـ ٧٢٤

هشام بن عبد الملك: ٧٢٤ ـ ٧٤٣ م
الوليد الثاني: ٧٤٣ ـ ٧٤٤

يزيد الثالث (الناقص): ٧٤٤ ـ ٧٤٤
ابراهيم اخوه: ٧٤٤ ـ ٧٤٤

مروان الجعدي (الحمار) ٧٤٤ ـ ٧٥٠ م.

على كف القدر

وأخيراً جئت يا بدر، حسبتك وقعت في أيدي الأعداء، هيّا بنا.

ورفع عبد الرحمن القناع الذي يستر وجهه واطلق لفرسه العنان وبدر بجانبه بعد ان سبر غور الدرب ووجده خالياً من الرقباء والمسافرين.

وسارا طيلة خمس ساعات حتى بلغا قلعة مهجورة وما راعهما الا سماع صوت خفيف كأنه آت من الأعماق يطلب الاستغاثة فأسرعا الى مصدر الصوت ويداهما على قبضة سيفهما.

وتردّد الصوت من جديد واذا هما امام شيخ هرم اصابته جروح ورضوض. فاقترب منه عبد الرحمن فأبصر الدم المتجمد على صدغه وخده فأخذ يد الشيخ الهزيلة وقال له: الله معك، استرح لا تخش شراً.

وقدّم له الماء ليشرب، ثم صبّ قليلاً من الماء في كفه ومسح به صدغه وتبين وجود جرح في الرأس ورضوض في بعض انحاء جسمه. فسأله عبد الرحمن: ماذا دهاك يا عمّاه؟

ـ سطا عليّ اللصوص فسلبوني مالي ومتاعي وناقتي وتركوني كما تراني.

فاه بهذه الكلمات بلهجة اقرب الى الحشرجة منها الى صوت بشري.

ـ استرح يا عمّاه، واستر عريك بهذه العباءة.

ومدّ له عباءته فتناولها الشيخ بيد ترتجف ونظرات امتلأت بعرفان الجميل.

ـ حلّت عليك رحمة الله يا بني، مثلما تهطل الديمة الوطفاء على الأرض العطشى.

وأغمض عينيه مستسلماً الى رقاد هنيء.

وأقبل الصباح وتفقّد عبد الرحمن الشيخ فوجده مستيقظاً وسيماء الاطمئنان بادية في ملامحه ولكن الضعف اخذ منه مأخذه.

فناوله قليلاً من الزاد وتعهّده بعنايته، بينما انصرف بدر الى اطعام الخيل وملء القرب من البئر العميقة في تلك القلعة المهجورة.

وصبّ عبد الرحمن الماء على يده فلحظه العجوز وقال له: لست من ابناء الصحراء لانك تهدر الماء هدراً.

ـ صدقت يا عمّاه في حدسك، ولكن الصحراء تستهويني.

ـ في الصحراء سحر لا يقاوم. غادرتها منذ عشرة اعوام ونيّف في طلب الرزق والمغامرة حتى وصلت الى بلاد الأندلس، اجل الى تلك الأطراف النائية من الأراضي العربية حيث الرخاء والازدهار والحدائق والانهار الزاخرة والأراضي الخصيبة، ومع ذلك لم يفارقني حنيني الى هذه الأصقاع الصحراوية. اسمي سالم بن عمرو، وانت ما اسمك؟

ولم يشأ عبد الرحمن الكشف عن هويته وهوية رفيقه فقال: اسمي «مهاجر» واسم رفيقي «عمران».

ـ بارك الله فيكما وقدّرني على مكافأتكما لحسن صنيعكما معي.

ـ اين ربعك لنحملك اليه؟ لانك وحدك غير قادر على الوصول.

ـ جزاك الله خيراً، قبيلتي في الوادي الواقعة وراء هذا الجبل، نحن منها على مسيرة ثلاثة ايام.

وسار الثلاثة وعبد الرحمن يسند الشيخ على ظهر حصانه لكي لا يقع ويعاونه بدر.

ولما دخلا في اليوم الثالث بانت لهم من بعيد خيام مضروبة في سفح الجبل وسمعوا نباح كلب وابصروا راعياً مع قطيعه واقتربوا منه والكلب يواصل نباحه فأسكته صاحبه ورفع عبد الرحمن يده بالسلام. فسأله الراعي: من انتم؟

ـ نحن غرباء قاصدون قبيلة هـذا الشيخ الـذي لحقه الأذى من اللصوص وهو في حالة عياء شديدة

ودنا منهم الراعي الصغير، وكم كانت دهشة عبد الرحمن كبيرة لما وجد انهم امام راعية سافرة الوجه رشيقة القوام خفيفة النقلة مثل الغزالة.

ـ ربعي قريب ارافقكم.

وارتهم خباءً منصوباً، وتوقّف الكلب عن النباح.

ودخلوا تحت الخباء للاستراحة، وقدّمت لهم الماء الذي توفّر لديها ولم يكن بالغزير فاستمهلتهم قائلة موجّهة كلامها الى عبد الرحمن: انت لم تشرب شيئاً انتظر قليلاً وآتيك باللبن.

وتناولت قصعة وبادرت الى نعجة يتبعها حمل فحلبت منها وعادت تحمـل الحليب الى عبد الـرحمن فشربـه وظلّ بحـاجة الى المـاء، وشعر بالاطمئنان الى جانب هذه الراعية الحسناء..

ـ انتظروا حتى اعلم والدي بقدومكم.

وتوارت عنهم، وشعر عبد الرحمن بحاجة الى الاستراحة فاستسلم الى ثبات عميق.

ولما استيقظ كانت الشمس قد شارفت على المغيب وتذكر حالته وجال انظاره حوله فلم يبصر الا شيخاً جليلاً طويل اللحية ينحني على عصاه ما كاد يبصر عبد الرحمن يفتح عينيه حتى بادره بالسلام وباحناءة من راسه وقال: عفوا على ايقاظك، يجب ان نسوق القطيع الى المنهل ليشرب قبل المغيب.

وفي هذه الاثناء كان بدر منصرفاً الى السهر على الجوادين اللذين استطابا المرعى مما تبقى من العشب الجاف بعد ان مرّت عليه قطعان من الغنم.

وتوجّهوا نحو الربع ولاحت لهم الخيام قرب الواحة واقتربوا منها وحدقت النساء السافرات في الغرباء القادمين ببعض التطفل وهرع الاولاد لمشاهدتهم عن كثب.

وهمس عبد الرحمن في اذن بدر كلمات لم تصل الى آذان الحاضرين، وقضوا ليلة في الرقص والمرح ونهض عبد الرحمن في الصباح على الضجيج المتأتي من ثغاء الحملان وصراخ النساء والاطفال ونباح الكلاب والتفت حوله فلم ير بدرا.

وسأل عن فرسه ودهش لما رآها بأحسن حالاتها وتطلّع حوله فأبصر صبية لا يزيد عمرها على ثمان عشرة سنة ترتدي لباساً يختلف عن لباس نساء البدو، تزنرت بزنار وألقت على كتفيها منديلاً ملوّناً تدلّت اطرافه على ثوبها الأسود، تحمل على كتفها قربة ماء، حادة النظرات في شيء من الوقاحة وحدقت بعبد الرحمن دون ان تخفض انظارها عنه وانحنت لتملأ قربتها من النبع وقد تدلى شعرها الاسود الطويل على ظهرها.

ولما نهضت القت نظرة اخرى فاحصة على عبد الرحمن لا غنج فيها ولا دلال بل تحدّ، انها جميلة وجمالها وحشي، وهي ابنة زعيم القبيلة اسمها «ياسمين» وهي غجرية واخوها رياض وقال هذا الأخير مخاطباً الأمير: نزلت على الرحب والسعة فانت في ربعك وهؤلاء جميعاً هم اهلك واقاربك.

وابتسم عبد الرحمن وجلس على جلد الفهد الذي قدّمه له رياض.

وشاء الأمير الاطلاع على احوال فرسه فشاهدها ترعى، فاقترب منه رياض قائلاً:

«ليست فرسك من الأفراس التي تشترى وتباع في السوق، انها لا تجارى في الجري فنحن الآن في ايام السلم وعن قريب يأتي العيد الكبير ويجري سبق الخيل وستشترك فرسك في السبق وتربح الرهان الغالي فأجاب عبد الرحمن:

«فرسي لا تركض في سبق.

ـ انت حرّ في اتخاذ القرار الذي تشاء.

وهتف زعيم القبيلة: الفرس ستفوز في السبق.

فقال رياض: ولكن «مهاجر» لا يرغب في اشراكها بالمباراة.

والتفت نحو عبد الرحمن قائلاً: سامح عمّي انه في بعض الأحيان يقرأ الغيب فاذا شئت معرفة طالعك فادن منه.

فأحبّ عبد الرحمن الاطلاع على ما يخبىء له الغد فدنا من الشيخ ومدّ يده نحوه فوضع الشيخ يدي عبد الرحمن بين يديه الهزيلتين وحدّق في عينيه:

«ارى طريقاً طويلاً، وعراً، ارى الصباح والمساء والصحراء والفرس البيضاء وارى الماء الكثير وارى ارضاً وراء تلك الماء وارى الاعلام والبنود والبيارق والسيوف الكثيرة تلمع كأنها في ساحة قتال واسمع اصواتاً تهتف لك قائلة: السلام عليك، السلام عليك.

وانتهت الرؤ يا.

وخيّم الصمت وشعر عبد الرحمن بقلبه يخفق بشدة فقد اثرت فيه كلمات شيخ القبيلة.

وراح يمضغ تلك الكلمات وشرد به الخيال حتى قادته رجلاه الى حيث ترعى فرسه البيضاء، واذا بشبح يسري انها الراعية الصغيرة فهنّت اليه وسألها: انت التي اعتنيت هذه العناية الفائقة بفرسي؟ فلم تجبه ولكنها ازدادت اقتراباً.

ـ حتى الآن لا اعرف اسمك.

فاجابت الراعية بحياء: اسماء. ابصرت فرسك ترعى فاقتربت منها وجلست قربها وحادثتها ومسدت شعرها، انها طائعة الى اقصى حدود الطاعة.

فقال عبد الرحمن: ساذكرك في كل مرة اشاهد نبع ماء لانك انت اول من ناولني ماء لأروي عطشي.

فانسلت الصبية اسماء بخفة الغزال وتوارت بين الاشجار وعبد الرحمن خاطب فرسه قائلا: ونحن بحاجة الى الراحة.

وعاد بدر من رحلته.

ـ ما وراءك من الاخبار؟

ـ ليست من النوع الذي ترضى عنه، فالمسوّدة ما زالوا يطاردون الامويين. فهذا عبد الله بن علي قدم الى فلسطين واستقرّ في الرملة على نهر ابي فطرس وسأل عن بقايا الأمويين، فقيل له: انهم ما زالوا كثيري العدد وفي نفسهم حنين الى المسالمة.

فهتف صارخاً: «ليأتوا. من مدّ يداً للاسترحام نعم بالصفح والحلم. من استسلم فهو آمن.

فأقبل ثلاثة وثمانون اموياً، هم بقايا قريش هؤلاء ابناء اعمام عبد الله بن علي الناظر اليهم ببسمة تصارع الريبة وتجاهد في ستر النوايا.

صافحهم واحداً واحداً يبدي لهم سخي المودة ويرحب بكرام الانسباء. واقلقه الا يجدك بينهم. فقال ببشاشة: «مرحباً بأبناء الأعمام. ما كنت اريدها فينا ناراً آكلة الا ان الشهوات دفعت جهالنا، سامحهم الله، الى تحطيم اللحمة بيننا، وانكم لأبرياء من الفعلة وقد لبستم ما خيّط لكم فارتعوا في امني وعفوي. يشهد الله ان مكانكم مني لفي الصميم. ولكنني لا اهتدي فيكم الى عبد الرحمن بن معاوية فأين هو وانا منه بمنزلة الأب الرؤوف؟

فلم يجبه احد بشيء. وتململ. ايظفر بالجميع دونك واياك يريد؟

وسكت على مضض وأمر بأن تنصب الموائد على ضفاف النهر تكريماً للأنسباء المهتدين، فأهلاً ومرحباً بأبناء الأعمام....

ودعاهم الى الطعام في حلقات منظمة، لا عليهم اذا لاذوا بحلمه الواسع. وتصنّع البشر ولاطفهم وسايرهم حتى اطمأنوا وايقنوا ببسمة النعمة بعد كالح الجهمة، فاذا نأى السلطان فلا تطير الأرواح.

واكلوا وهم لا يكادون يصدقون ان في الهاشميين قلباً يخفق حيالهم بخلجة من ندى.

وفيما نفوسهم تخلع عنها القلق وايديهم تغوص على الاطعمة اذا جند عبد الله بن علي يضرب عليهم نطاقاً من الشفار المسنونة، واذا جماعات من

الجند تنقض عليهم مخترطة السيوف فشدهوا وتفتحت افواههم على ارتياع وجمدت ايديهم في الصحاف. الا اين ذمام عبد الله بن علي في ما لوّح به لهم من ميثاق؟ اتكون العهود اخاديع؟ وملك بعضهم القدرة على الصياح: امانك يا عبد الله.

فحزت قهقهته في عظامهم كأنه يريد ان يقتلهم مرتين بشماتته وبحسامه. وافاض بالقول الساخر: وماذا ترتجون يا بني امي ممن طوى السنوات على السنوات يرقب ان يمتعه الله بيوم يبيدكم فيه عن بكرة ابيكم؟ الا ودّعوا دنياكم وتوبوا الى ربكم واذكروا فاجعة كربلاء فينا. فتاكم يزيد بن معاوية بطش منا بالحسين بن علي وبرهطه الأخيار حتى اناف منا على المائة والخمسين. وهذه أخت كربلاء ان كنتم تذكرون، فالهاشميون ذو صبر طويل الأمد يا ابناء اعمامي، الا انهم يتحينون الفرصة للانتقام.

فارتفعت صيحات الذعر وجحظت العيون وارتجفت النفوس والأجساد وتصاعدت الصرخات من الحناجر بالاستجارة: أخدعة يا عبد الله؟ اين برك بيمينك؟

فصاح بجنده مزمجراً: «اقتلوهم اقتلوهم كالنعاج بل كالذئاب، حرام ان نعدل النعاج البريئة بهم وقد عاشوا فينا ذئاباً ناهشة. اقتلوا دون شفقة، لتقر عيني ابن ابي طالب وعيون الحسن والحسين وزيد ويحيى وابراهيم الامام ضحايا العدوان والطغيان الامويين. الانتقام، اقتلوهم لا تبقوا فيهم على رمق. هؤلاء هم أعداء الله.

بيد انه مع رضاه عن الدم المسفوك لم يكن هادىء النفس وعبد الرحمن بن معاوية في نجوة منه. آه لو يدري اين الفتى الأموي؟ وتململ فالأمويون بأجمعهم تساقطوا تحت شفرة السيف الهاشمي الا عبد الرحمن.

واختلطت الاغاثة بالسبة واللعنة: عفوك يا عبد الله، لك الويل، يا من حنث في اليمين ونكث الميثاق لا عرفت ايها الغادر يوم صفاء...

وتقع هذه الصيحات في اذنيه فيطرب ويرعد... اقتلوهم ولتغرق جثثهم في الدم. كان لهم زمان ساؤوا فيه وهذا زماننا.

وظلّ عبد الله في صيحته: اقتلوهم واشفوا منهم حزازات قلبي، منذ الساعة بدأت اعيش. اقتلوهم انا اسعد الناس.

ولما سقط آخر اموي في مستنقع النجيع هتف برجاله: مدّوا لي على هذه الجثث بساطاً اجلس عليه وازدرد طعامي..

ومدّ البساط على الجثث ولم تكن الروح قد طارت عن معظمها، وجيء القائد الهاشمي بالطعام فجلس يلتهم الزاد كأنه طوى ليلة في جوع. ويثب احياناً من مقعده ويرقص على الجوارح المهشمة مثله في عرس وهو يردد ابداً: هذه اخت كربلاء، انتقم الهاشميون.[1]

ولم تكن تعلو الكمدة اساريره الا وهو يذكر عبد الرحمن.

ولما انتهى بدر من كلامه علت موجة من الهلع وجه عبد الرحمن وتمالك روعه وسأل بدرا:

- وكيف وقفت على هذه الأخبار؟

- انها حديث الخاص والعام ويتناقلها الركبان وقد اطلعني عليها احد افراد قافلة قادمة من فلسطين متوجهة الى مصر حيث لاقى حتفه مروان الجعدي.

- لا حول ولا قوة الا بالله، وقانا الله من الاعظم. يقضي علينا

---

١ - ولما قتل عبد الله بن علي بني امية بنهر فطرس بعث الى ابي حاتم فدخل عليه، فاذا قتلى مصروعين. فقال له عبد الله: ما تقول في مخرجنا هذا؟

قلت، (والراوي هو ابو حاتم): «قال رسول الله ﷺ: من كانت هجوته الى الله ورسوله فهجوته الى الله ورسوله، ومن كانت هجوته الى دنيا يصيبها او امرأة يتزوجها فهجوته الى ما هاجوا اليه.

قال: فما تقول في هؤلاء القتلى؟

قلت: ومن هؤلاء؟

قال: بنو امية.

قال: قلت رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث: كفر بعد ايمان، او زنا بعد احصان او قتل نفس بغير نفس.

وتشاغل عني فخرجت وطلبني فحال الله بيني وبينه، انه على كل شيء قدير.

حسن التدبير واصالة الرأي ان نمكث بعض الزمن في هذا الربع حتى تخف وطأة البحث عني، فأنا هنا في مأمن من المسودّة.

وبات عبد الرحمن مضطرب البال فقد هزته هذه الأخبار عن مقتل الأمويين على الشكل المفجع هزّاً قوياً افقدته لذة العيش وصفاء البال. وقرّر البقاء في تلك القبيلة ريثما تَنْجَلي الامور ويخف الطلب على الأمويين او يقضي الله امراً كان مقضياً. وطلب من بدر ان يتنسم له الأخبار.

وأقبل المطر الذي يتشوّق اليه سكان الصحراء، واقترح عبد الرحمن على شيخ القبيلة ان يرعى له النوق، ورفض الشيخ بحجة ان عبد الرحمن ضيف.

واقبلت اسماء في المساء باكية العين، ولما سئلت عما المّ بها اجابت: ان ذئباً افترس خروفاً لها فقرر عبد الرحمن مرافقتها في اليوم التالي.

والأمطار الغزيرة التي انهمرت في الأيام الأخيرة اعطت الصحراء حياة جديدة فاعشوشبت الارض وقنع بها القطيع فلا يحتاج قصد المراعي البعيدة فالعشب متوافر قرب الواحة.

ويستيقظ عبد الرحمن في كل صباح ويساعد اسماء في سوق القطيع الى المنهل ليشرب ثم يقودانه الى المراعي الخصيبة بمساعدة الكلبين، وفي المساء يعودان الى نعومة هواء الواحة وطراوته.

قد يكون في هذا التصرف بعض الغرابة في نظر سكان الحضر ان يتوجه فتى وفتاة لرعاية القطيع وحيدين لا واش ليسمع او يرى. ولكن البدو يتركون الحرية المطلقة لنسائهم وابنة شيخ القبيلة فوق كل ظن.

لا يفارق عبد الرحمن اسماء واسماء لا تفارقه غير انه لحظ عليها بعض التحفظ حياله.

ومرت الايام دون حادث يذكر وادركت الذئاب ان لا سبيل للوصول الى الغنم ما دام راعيها شابا مسلحا.

وفي ذات يوم بينما يتفقد عبد الرحمن القطيع الا ابصر وحشا يندس بخفة بين الصخور وتبعه وحش آخر ووجد انهما فهدان صغيران لا يكبران

الكلب بكثير يراقبان القطيع وقد ابتعدت بعض الغنمات عن رفيقاتها. وبحث عبد الرحمن عن الام ولم يبصرها، مع انها موجودة هناك فلا يعقل ان تترك ولديها الصغيرين لشانهما.

فتنكب عبد الرحمن قوسه تحسبا للطوارىء. وبالفعل فقد همّ الفهد الصغير بالوثوب على نعجة قريبة منه فما كان من عبد الرحمن الا ان صوّب اليه سهما اصابه في خاصرته فصرخ وادار راسه ليسحب السهم فلم يفلح وسقط بين الصخور.

وبدت الام الفهد تزأر واقتربت من ولدها الجريح ودب الرعب في القطيع ففر هاربا وثغاؤه ملأ الوادي فاقبل الكلبان منقضين على الفهود لحماية القطيع غير عابئين بما ينتظرهما من ام ثكلى بولدها.

فهذه عضت ولدها في يافوخه وسارت به الى مكان امين فرماها عبد الرحمن بسهم فاخطأها.

وحاول عبد الرحمن منع الكلبين من الدنو من الفهد الام فما سمعا له. وخافت عليهما اسماء من سطوة الفهدة فلحقت بهما وركض عبد الرحمن بدوره وراء اسماء واطلق سهما نحو الفهدة فاصاب الصخرة على ست انامل من الحيوان وهيأ سهما اخر ورماها به فاصابها هذه المرة في كتفها فزأرت من الالم وانقضت على الكلبين غير عابئة بشيء وغرست مخالبها وانيابها في احدهما واستعدت للوثوب على الآخر لتمزيقه وفي تلك اللحظة ابصرت عبد الرحمن فتركت الكلب ووثبت عليه فالقى القوس جانبا وانتضى الرمح في اقل من لحظة

ولحسن حظ عبد الرحمن صادف النصل الجهة التي انقضت منها الفهد عليه فغرس الرمح امامه ولما وثبت تلقاها النصل وتخبطت وازداد ولوجا فيها فانحرف عبد الرحمن قليلا وانتضى سيفه استعدادا للدفاع عن نفسه اذا لزم الامر ولكن الوحش وقع ميتا.

جمع عبد الرحمن اسلحته ولم يكد يصدق ان الفهد قد لاقت مصرعها..

واقتربت اسماء وجلة صفراء اللون من الرعب الذي ما زال مستحوذا عليها:

ـ هل اصبت بجراح؟ لقد عرضت نفسك للهلاك.

ـ وانت ايضا يا اسماء.

ـ اخطأت. لقد خاطرت بحياتك لاجلي. كان بمقدورك ان ترمي الفهدة بسهم او باكثر من سهم وانت فوق الصخرة بعيدا عن متناولها ولا خطر عليك.

واغرورقت عيناها بالدموع فاخذها بذراعها بحنان وكانت المرة الاولى التي يلمسها فيها وشعر نحوها بعاطفة غريبة.

وفي هذه الاثناء اقبل رياض يرافقه شاب من القبيلة وشاهد الفهدة صريعة فقلبها وقال:

ـ قتلتها على طريقتنا، فلم تطلق عليها الرمح من بعيد.

ـ لم اجد امامي سبيلا للخيار فقد رفعت الرمح لما ابصرتها منقضة علي.

وخاب سعيهم في انقاذ الكلب فقال رياض:

ـ سانقذه من عذابه والآمه عندما تذهبان وساسلخ لك جلد انثى الفهد.

ـ احتفظ به لنفسك.

ـ اسمع صوت الرعد.

ـ المطر

ـ اجل المطر، من الافضل العودة مع القطيع.

واصابهما جهد كبير في جمع الغنم بدون مساعدة الكلبين لأن الكلب الآخر يشكو من رجله ولا يقوى على الركض.

وتوقّف الرعد واول الغيث قطر ثم ينهمر.

اسماء سعيدة:

في هذه المرة انهمر المطر عن صدق.

وعرضت وجهها للغيث المتساقط بغزارة وهي تبتسم، تناست الحزن الذي اصابها من جراء فقد كلبها. تبتسم لعبد الرحمن ووجها يقطر الماء، ما اجملها على تلك الصورة.

وعمّت البهجة القبيلة، الآبار امتلأت، واقبلت اعياد الموسم وفاض السرور وزالت الضغائن من النفوس على الأقل طيلة ايام الأعياد، يلتقي الخصم بخصمه ولا يخالجه فكر في قتله او الانتقام منه بطريقة من الطرق. تلك شريعة الصحراء ومن تخطاها فالموت جزاؤه.

تنتهي الأعياد بسباق الخيل. لم يشأ عبد الرحمن الاشتراك في هذه المباراة واذا صوت الشيخ، شيخ القبيلة يرتفع فجأة لما ابصر اربعة رجال يطأون الربع:

ـ هذا هو اللص الذي سلبني متاعي في القلعة وسلب مني ناقتي ومرافقوه هم ايضاً من اللصوص.

ـ رفقاً، يا ابتاه

وكان الصوت صوت رياض، فقد هم بانتضاء سيفه لينتقم من ذلك اللص ثم ادرك انه في اعياد الموسم ولا مجال لاراقة الدماء..

ثم اقترب من الرجل وخاطبه قائلاً: انا رياض ابن شيخ هذه القبيلة اهلاً وسهلاً بقدومكم.

ـ انا حسن اللص.

والسلب والنهب من خصائص القبائل في الجاهلية والاسلام، والاعتداء على القوافل امر عادي، اما ان يسطو على شيخ فذلك ما لا يقبله العرف ولا الشهامة. انما الايام اعياد والانتقام مزاح.

ـ غداً المباراة وستراهنون بدون شك.

ـ اجل

ـ الى اللقاء غداً ان شاء الله.

وانصرف حسن اللص ورفاقه.

وكان عبد الرحمن في تلك الأثناء ينتقل بأنظاره من حسن اللص الى فرسه ويفحصها فوجد حصان اللص نشيطاً وصاحبه شرساً يهزأ من شقاء الآخرين.

فاجتمع عبد الرحمن برياض وقال له: غيّرت رأيي ساشترك في المباراة.

فكاد رياض يطير سروراً، ودعا افراد القبيلة الى الرهان بكل ما ملكت ايديهم من نضار، فالفائز ستكون فرس «مهاجر».

وتوجّه الناس الى حلبة السبق، فقد رفعت قطع من القماش الملون فوق رماح عالية تشير الى المواضع التي يجب ان يمر بها الفرسان المتبارون، وتبلغ المسافة ثلاثة فراسخ، وهي مسافة طويلة والارض وعرة في اكثرها مزروعة بالعوائق الطبيعية من رمال وحصى.

يشترك في السبق ستة عشر حصاناً تمثل اكثرية القبائل المنتشرة في تلك الانحاء..

يبتدىء السبق عند مطلع الصباح..

وهتف افراد قبيلة رياض: حظاً سعيداً، يا مهاجر وسنقيم حفلة على شرفك في هذا المساء. اخضد شوكة اللص حسن.

وتكفّل عبد الرحمن انه سيذل خصمه ان شاء الله.

وفرس عبد الرحمن في احسن حالاتها، قضت اياماً طويلة في الاستراحة من عناء السفر الطويل، وقد الفت السبق وحالفها النصر في اكثر مباراتها.

ووقف عبد الرحمن عند نقطة الانطلاق متأخراً قليلاً عن الباقين لان في طول المسافة لا يجدي نفعاً الاختلاط مع المتبارين، وحسن اللص اصطف مع المتسابقين.

وألقى عبد الرحمن نظرة حوله فأبصر رياضاً مع رجال القبيلة، وياسمين بينهم تتهلل فرحاً، ولم يلمح اسماء بين الحاضرين.

واستسلم للتصورات والتقديرات، واعطيت الاشارة ببدء السبق.

وأرخى العنان لفرسه فقفزت خمسة عشر قدماً الى الأمام واذا هي في طليعة المتسابقين.

وشرعت الجياد في مطاردتها

وألقى عبد الرحمن نظرة الى الوراء فأبصر حسن اللص يقتفي اثره وقد اوشك ان يلحق به فضحك في سره بينما الصخور والحجارة والاشخاص والاشواك تمرّ امام عينيه بسرعة البرق الخاطف.

ووصلوا الى المناطق الوعرة وخفّف عبد الرحمن من حدة فرسه خشية ان تكبو، وسمع وراءه، وقع حوافر الخيل على الحصباء.

ومرّوا امام العلم الرابع على مسافة فرسخ تقريباً من نقطة انطلاقهم، وأصبحوا يطأون الرمل ازدادت ضجة المتفرجين الممتدين على طول المسافة.

وتضايقت الخيل من الجري على الرمال ومرّت امام العلم الخامس والسادس.

قطعوا نصف المسافة والتفت عبد الرحمن الى الوراء ولم يلحظ سوى ثلاثة جياد تطارده.

وأدركوا النقطة الأكثر صعوبة في المبارة، اصبح عليهم الآن ان ينحدروا، والفطنة ضرورية في مثل هذه الحال والا كبت الفرس ومعاذ الله ان يركبها هذا المركب المشؤوم.

ـ على مهلك، على مهلك، يا مبروكة.

وظن حسن اللص ان الفرصة سنحت له لادراك الفوز لما لحق بفرسٍ عبد الرحمن وتخطاها وكاد حصانه يكبو، وتطلع نحو عبد الرحمن ضاحكاً ساخراً.

وظلّ الأمير الأموي ينادي فرسه: على مهلك يا مبروكة، على مهلك، فالهدف ما زال بعيداً.

التسابق الحقيقي يكون في المرحلة الأخيرة في الأرض السهلة. والخط المستقيم.

وحاول بعض الفرسان تخطي عبد الرحمن فأفلح ثلاثة منهم، غير ان احدهم كبا به الجواد وخرّ صريعاً، وتألم عبد الرحمن لحاله ورثي له ولكن الظروف لا تسمح له بمد يد العون اليه في تلك الدقائق الحرجة لا سيما وقد قطعوا ثلثي المسافة ولم يبق امامهم سوى مسيرة فرسخ واحد وامتدّ السهل.

ـ الآن يا مبروكة الى الأمام جاء دورك.

وأرخى لها العنان، قدامها حصانان يسيران على مسافة خمسين قدماً منها.

وانطلقت الفرس بسرعة البرق فقد صحّ فيها قول الشاعر:

«رجلاه في الركض رجل واليدان يد وفعله ما تريد الكف والقدم.

وتخطت احدهما ولم يبق سوى حصان حسن اللص يسير في الطليعة، وابصرها كالاعصار المنصب عليه فحثّ حصانه بوحشية ولكن عبثاً، من يستطيع ايقاف الشمس؟

وقصرت المسافة بين الفرس والحصان فانهالت على الحصان المسكين لسعات السوط والشتائم ومع ذلك تخطته الفرس وصرخ فيه عبد الرحمن: ايها اللص هذا جزاء من يسطو على شيخ عجوز كليل.

وانطلقت الفرس الى الهدف غير لاوية على شيء، وتعالت الهتافات لعبد الرحمن من قبيلة رياض. وشاهد عبد الرحمن ياسمين بين الجماعة وقد

كشفت ابتسامتها عن اسنانها اللامعة البيضاء واشرق وجهها وتهلل محياها فهي احسن من السماء واطيب من الماء.

ولكن اين اسماء؟ وبحث عنها بين الناس.

واتاح كسب الرهان لقبيلة رياض ان تضاعف ثروتها من الذهب الوهاج والنوق والغنم والخيل. فأعدّوا تلك الليلة وليمة فاخرة ذبحوا فيها عشرين خروفاً وشووها على النار ودعي الجميع للاشتراك في فرحة القبيلة.

وتفرقت الجموع وعادت كل قبيلة الى ربعها. انتهت الأعياد.

واول من غادر المكان حسن اللص، فقد تخلّى اصدقاؤه عنه بعد فشله في السبق، وردت اموال شيخ القبيلة اليه مضاعفة.

وقال عبد الرحمن مخاطباً الشيخ: شاء عدل الله ان تردّ اموالك اليك.

واتخذ عبد الرحمن مجلسه قرب رياض فأكلوا وشربوا وتحدثوا وقال رياض:

ـ صدقت النبؤة وربحت الرهان

ـ اجل اذكر ذلك ولا انساه.

ـ والباقي من النبؤة ارض شاسعة وراء البحار والأصوات التي تهتف لك بالدعاء والتأييد والعز؟

فهزّ عبد الرحمن راسه علامة الاستنكار.

ـ هذا لا افهمه.

ـ لا احد منا يعرف مصيره والنهاية قد تختلف عن البداية.

انتهت الوليمة وجاء دور الرقص والحسناوات في القبيلة كثيرات ولكن ليست واحدة منهن تضاهي جمال ياسمين وحيويتها ونشاطها وخفتها، نعمت عين نظرت اليها وشقي قلب تفجع عليها لما انطلقت الى حلبة الرقص وعقدت يديها فوق راسها افسح لها المجال الراقصات وتركنها وحدها.

ورافقت النظرات حركاتها والتواآتها ووقع الجميع تحت تأثير سحرها، لها جلد من لؤلؤ، رائحة المسك تعبر منه وفي كل عضو منها شمس طالعة ونار كاوية.

وتأمّل عبد الرحمن في جميع تلك الوجوه ولم يبصر الوجه الوحيد الذي يرغب في رؤيته، واخيراً وقعت انظاره على من يجب ان يراها، انها اسماء الراعية الصغيرة منزوية على منأى من الجماعة تتأمل الراقصة مشدوهة مثل بقية الحاضرين غير ان عبد الرحمن لم يلو انظاره عن اسماء فقد لمس فيها ألماً دفيناً لا تريد ان يكشف سريرتها.

وعلت نغمات الموسيقى البدوية وياسمين كأنها شعلة حية تتدحرج ولا تستقر على حال وفجأة ارتمت عند اقدام الظافر عبد الرحمن في عاصفة من التصفيق.

ودنا في هذه الأثناء رياض من عبد الرحمن وبث في اذنيه: شقيقتي بين النساء مثل فرسك بين الخيل.

وشارك عبد الرحمن الحضور في التصفيق للراقصة ثم حوّل وجهه الى مكان اسماء فلم يلمحها فيه لقد توارت في رفة عين فقال رياض: عندما ترقص شقيقتك نخالها من طينة غير طينة البشر.

واستأذن بالانصراف

وصار يبحث عن اسماء على ضوء القمر في الواحة السابحة في الظلام. ولاح له قرب جذع نخلة شبح لم يشك في انها هي فاقترب منها ونادى: اسماء.

فالتفتت دون ان تجيب، فدنا منها فوجدها مسندة رأسها وظهرها الى جذع النخلة فأخذ يدها في العتمة، ووصلت الى آذانها اصوات العيد بعيدة، السكون يخيّم على المكان.

وبادرها بالكلام:

ـ بحثتُ النهار كله عنك، اين كنت؟

فظلّت الراعية صامتة، فأخذ يدها الأخرى وتابع كلامه: لم الحظك الا منذ هنيهة،

فقالت: انها ترقص لأجلك فقط.

ـ لأجلي ولأجل الجميع. انا لم افكر فيها على الاطلاق انت وحدك موضوع افكاري.

ولم تصدقه. ـ لماذا لم تكلمني بمثل هذه اللهجة لما كنا نرعى القطيع وحدنا في الصحراء. كنت احب سماعه منك.

وترقرقت دمعة من عينها على ديباجة خدها فاعشوشب لها قلب عبد الرحمن.

وشعرت بالرجل يشد بها اليه واحست بيديه تلامسانها برخاوة وميوعة ولذة دون توقف وبصرت بشفتيه يتخليان عن شفتيها لتتجولا على انحاء جسمها متوقفتين عند امكنة من جسدها دون اخرى ولسانه ينفث سماً لذيذاً يزيد في رعشاتها. ثم تحوّلت تلك اللذاذات الى لذة واحدة استقطبت المكان الحميم فيها دون سواه. وكان الانفجار وهبت الشعلة وصارت تنطفىء رويداً رويداً وجثمت الاستراحة اللذيذة. . . .

واستفاقا من غفوتها وناداها عبد الرحمن: اسماء، لا يحق لي ان احبك.

والتصقت شفتاهما في قبلة طويلة في ذلك الليل المقمر امام النجوم والقمر الشاهد الوحيد على جوى يضطرم في قلبيهما.

ـ اسماء لا يحق لي ان اقول اني احبك.

ـ انت الوحيد الذي يحقّ له ان يحبني فأنا لم استسلم لأحد سواك، وانت تعلم.

ـ ألا ترين اني اخاطبك بهذا الكلام دون سواك؟

ـ لا يخفي عليّ انك تكتم عنا سراً يا «مهاجر»، لا حاجة لي بمعرفة اسرارك ولا مجال للتراجع بعد الآن عن حبك.

فتأثر «مهاجر» المزعوم وانكمش فؤاده وهتف من اعماق قلبه:

- انا عبد الرحمن بن معاوية آخر امير أموي، انهم يطلبون سفك دمي.

- مولاي، مولاي، لست جديرة بحبك.

وافلتت منه وارتمت على قدميه توسعهما لثماً وتقبيلاً، فرفعها اليه قائلاً:

- لا تفوهي بمثل هذا الكلام، انت جديرة بأن تزيني اجمل القصور.

- لست سوى ابنة الصحراء وسوى راعية

فأخذها عبد الرحمن بين يديه وغمرها بحنانه وعجز لسانه عن النطق بما يجول في ذهنه مع ان الكلمات تتسابق الى شفتيه ولا يدري بأيها يبتدىء فأخلص الى القول:

- اسماء احبك ولا يحق لي ان احبك ولكني احبك.

فابتسمت له وغاب القمر وعمت الظلمة فلم تفرق بين شبحه وشبحها.

وما راعه الا صوت بدر يناديه برعب في هدأة الليل: مولاي انهم على مقربة منا.

- ومن هم؟

- رجال عبد الله بن علي، انظر لقد أوقدوا النار ولا شك انهم قادمون الى القبيلة للبحث عنك. الفرار مولاي، قبل فوات الأوان. الظلام يسترنا.

وتأمل عبد الرحمن اسماء النائمة قربه ولم يشأ ايقاظها وتوارى مع بدر يلفهما الليل.

ولما اصبح الصباح فتحت اسماء عينيها وقد غمرتها غبطة بعيدة القرار والتفتت ولم تشاهد عبد الرحمن قربها وخشيت عليه لما ابصرت بعض

الرجال الاغراب يبحثون بين المضارب عن رجلين تواريا عن الانظار في رفة عين وندبت حظها، لم تنعم بحب عبد الرحمن، فرّقت بينهما يد القدر الغاشم. انها صدمة هدّت حيلها ولكنها توقعتها منذ ان بث عبد الرحمن في اذنيها انه بغية ابي العباس السفاح الخليفة العباسي الاول.

الى مصر

منذ اكثر من خمس ساعات وعبد الرحمن وبدر يسيران جنباً الى جنب صامتين في اكثر الأحيان تهبطهما هابطة وترفعهما رافعة في اماكن مقفرة ووديان جافة. ولاح فجأة لبدر في جوف الوادي قطيع من النوق ترعى.

وتبادلا الرأي، ماذا يصنعان؟ ايقتربان من الراعي ويخاطبانه؟ ام يتجنبانه؟

واستقرّ الرأي على مخاطبته لا سيما وقد ابصرهما ومن السهل عليه ان يكشف امرهما لمطارديهما. وناداه بدر: السلام عليك يا عماه،

ـ وعليكما السلام ورحمة الله وبركاته.

ـ هل لك بما يروي الظماء؟

فحرّك الراعي قربته رأساً على عقب فلم تسقط منها نقطة ماء.

ـ اذا احببتما سقيتكما من حليب النوق.

شكرا لك، لا تجهد نفسك.

ثم اقترب منه بدر ودسّ في يده قطعة من الفضة، فدهش الراعي من تصرف بدر حياله فلماذا يدفع له المال ولم يؤدّ له خدمة يستحق عليها بدلاً.

فقال له بدر: لا نطلب منك شيئاً سوى ان تجمع ما توافر لك من الحطب الاخضر واليابس وتوقد النار، وعندما يقترب منك بعض الفرسان ويسألونك عنا فتقول لهم: اننا سرنا من هذه الناحية، وعندئذ تنال منهم قطعة نقود اخرى.

فدهش الراعي من هذا الكلام الذي لا يفهم منه شيئاً ولكنه وعد بتنفيذ ما امره به بدر.

وودعا الراعي. وما امسيا على بعد نصف ساعة تقريباً من الراعي والقيا نظرة الى الوراء شاهدا عموداً من الدخان متصاعداً، فسرّ بدر، لقد عمل الراعي بوصيته، فلا شك ان هذا الدخان يستلفت انظار جنود عبد الله بن علي يقتربون منه للسؤال عنا، فلا خوف علينا.

وأقبل المساء فنزلا عن ظهور دوابهما للاستراحة، ونام عبد الرحمن نوماً متقطعاً، وفي الصباح واصلا سيرهما.

وابصرا من بعيد فرساناً، لا شك انهم فرسان عبد الله بن علي ولكن لا خوف علينا اذ انهم يجهلون مكاننا، فاذا استرحنا ليلتنا كان الاجدر بنا لان الاسراء قد يجرنا الى مخاطر لا تحمد عقباها.

ليس الوقت وقت جدال، فبدر ادرى بتلك الاماكن من عبد الرحمن، والراحة ضرورية تعيد نشاط الجسد والروح، فاستسلم عبد الرحمن الى ثبات عميق لم تزعجه الاحلام، واصبح الصباح وعبثاً حاول بدر ايقاظ سيده فلم يفلح فاضطرّ الى هزّه هزاً قوياً فاستيقظ والشمس قد علت.

واهتديا الى بئر فتوجها اليها ليملأا قربهما الا سمعا حركة استرعت انتباههما.

انها افعى رقطاء تتقي حر الشمس في ظل مصطبة البئر. ولما انحنى بدر على فم البئر ليشاهد قعرها كانت الافعى على قيد شبر منه، واقشعرّ جسم عبد الرحمن وفتش عن عصا او حجر كبير يسحق به راس الثعبان فلم يعثر على شيء فلجأ الى سيفه فنهاه بدر قائلاً:

ـ سامحه هذه المرة، لا ينوي لنا الاذى.

ورشّ على الثعبان الماء القليل الباقي في القربة فتراجع وتوارى بين الحجارة:

ـ احتفظ بسمك الزعاف لغيرنا، فعن قريب يصل رجال عبد الله بن علي في طلب الماء فاقرهم السلام من قبلنا.

ودهش عبد الرحمن من تصرفات بدر مع الثعبان عدوّ البدو الأكبر.

وواصلا سيرهما قرب الغروب وقاية من الشمس ومن المسودة. وقطعا مسافات طويلة في ظلمة الليل دون ان يضلا، فبدر عارف بمسالك الصحراء ومجاهلها. وطويا نصف الليل واستراحا البقية الباقية منه. وقبل بزوغ الفجر تحركت بهما مطاياهما. ان بدر يأمل في الوصول الى واحة يجدان فيها الراحة والماء النمير والتمر الرطيب وقد يوفقهما الله في اصطياد غزال يرد الماء في ساعات الظهيرة.

وحمي النهار ولم تلح لهم عن قرب او عن بعد الواحة المرجوة، وخشي عبد الرحمن ان يكون بدر ضلّ الطريق. وشعر بالخوف للمرة الاولى في ذلك القفر المترامي الاطراف الكثيف الرمال، والشمس، في كبد السماء لا تسترها صخرة ناتئة ولا غيمة كثيفة ولا تردها نخلة ظليلة. وظل بدر محافظاً على رباطة جأشه متصرفاً تصرف الواثق من نفسه.

وفجأة توقف بدر عند كومة من الحجارة وشعت عيناه ببريق الارتياح، عثر على الضالة المنشودة، لم يهتد الى الواحة ولكنه اهتدى الى بئر ماء. فترجل عن صهوة جواده واقترب من الحجارة وانحى يزيل الرمل عنها بيديه فاصطدمتا بصخرة.

ـ تعال مولاي وساعدني.

وترجل عبد الرحمن بدوره عن صهوة فرسه ودنا من بدر وتعاونا على ازالة الرمل عن الصخرة ورفعاها فاذا هي غطاء بئر، وشاهدا الماء عميقة.

فأخذ بدر دلواً من الجلد وربطه بحبل من الشعر ودلاه في البئر ورفعه مليئاً وناوله لعبد الرحمن فشرب وشرب هو بدوره وسقى فرسيهما وصب الماء على جسميهما فحمحما مبتهجين كأن روحهما ردّت اليهما بعد طول العناء والمقاساة.

واستراحا ليلتهما وفي الصباح سلكا طريق الجنوب لتضليل فرسان عبد الله بن علي، وتجنبا السير في الرمال التي تنم عن آثارهما، ولاحت الجبال لناظريهما سامقة في عظمتها ولكن بدر لا تفوته مكامنها ومنعرجاتها ومضايقها ولا يخشى عليهما من الظماء والماء تنبع في كل مكان.

وابصرا عن بعد رعاة يرعون مواشيهم فتجنباهم وتوغلا في الجبال بحيث انهما فقدا كل اتصال بمطارديهما واستمرا على حالتهما هذه طيلة اسبوع في التلال والوهاد دون ان يبصرا مخلوقاً ودون ان يعلما الموضع الموجودان فيه وجل ما يعلمان انهما قاصدان مصر وقد قطعا صحراء التيه والجبال التي امامه وها هما على مقربة من خليج السويس.

وتنفسا الصعداء اصبحا بنجوة من مطاردة المسودة، فمصر بعيدة ويحكمها عبد الرحمن الفهري، الهارب من الاندلس وسيجدان في كنفه الموئل الامين. وللمرة الاولى يشق الاطمئنان طريقاً الى نفس عبد الرحمن، غير ان بدراً لا يشاركه اطمئنانه. فأخرج من جرابه حقاً من الحنة وشرع يصبغ فرس الأمير، مغالاة في الحيطة، حتى اذا ما وصف احد السعاة الفرس التي يركبها عبد الرحمن اثر مغادرته فلسطين لا يتفق الوصف.

وهبطا نحو الشط وارتعش قلب عبد الرحمن لرؤية الماء وقد اعتادها في نهر الفرات ولم يكن شاهد خليج السويس ولا البحر الاحمر. وكاد يتناسى احزانه وهمومه.

وابصر الحمالين ينقلون الاكياس الى المراكب، واقترب من احدها. وسأل بدر الملاحين:

ـ من هو ربان هذا المركب؟

ودلوهما على رجل نصف عار فاقتربا منه وسألهما عن حاجتهما.

ـ نريد العبور نحن وخيلنا.

ـ لا بأس نفسح مجالاً للخيل على ظهر المركب.

ـ متى نعبر الخليج؟

ـ عندما يقترب المد.

ـ وحتى ذلك الحين نستحم في المياه الصافية الزرقاء.

وابتعدا عن الحمالين والقيا بأنفسهما في الماء.

وسمعا من بعيد ربان المركب يناديهما معلناً اقتراب الرحيل.

فركبوا جميعاً السفينة واستسلم عبد الرحمن الى التأملات الكئيبة ترك وراءه الشام وصار يتطلع الى مصر الى هدفه الحالي، دون ان يدري ما يخبئه له القدر.

والقت السفينة مراسيها على الضفة الاخرى من الخليج وافرغت حمولتها من فحم الحطب، وترجل منها عبد الرحمن وبدر وساقا فرسيهما.

ليس المكان قفراً، كثيرون تجار الشام اقبلوا الى مصر للمتاجرة بالرقيق.

وتوجها الى السوق فاذا هناك خمس وعشرون جارية وعشرة غلمان، لا تزيد اعمار الجواري عن ست عشرة سنة بينما الغلمان لا يصلون الى هذه السن، وقد ربطت في اعناقهم قلادة من حديد وقد شدّوا الى بعضهم البعض بالسلاسل.

جيء بهم من الحبشة، فارعو القوام ولونهم الحنطي افتح من لون العبيد القادمين من السودان والجواري جميلات المنظر.

واشترى عبد الرحمن وزنة من الشعير للخيل وابصر البائع فرس الأمير الأموي وتأملها طويلاً.

واحضر الشعير والماء فشكره عبد الرحمن، وقال له البائع:

ـ اسمي محمد علي جئت قادماً من الجنوب. هل لك ان تقاسمنا طعامنا وشرابنا. حضورك بيننا يشرفنا.

شاء عبد الرحمن الرفض للوهلة الاولى غير انه تدارك ووجد من المناسب القبول للاختلاط بالمسافرين.

ـ قبلت الدعوة لكن رفيقي معي ولا استطيع التخلي عنه.

ـ بارك الله فيك وفي رفيقك.

وقادهما الى مكان ضمّ ثلاثة اشخاص تجمّعوا حول قصعة كبيرة من الارز والسمك والبصل فحيوا عبد الرحمن ورفيقه بدرا بكل بشاشة.

وجاء عبد يحمل طستا ومنشفة فغسلوا ايديهم وجلسوا على الطعام وقدّموا لهم الخبز والبرتقال والشاي والسمك فأكلوا بشهية واستطاب عبد الرحمن السمك الذي لم يتذوقه منذ زمن طويل.

ورفعت فرس عبد الرحمن راسها وابصرها محمد علي فقدم لها في راحتيه شيئاً من الارز والخبز.

وامر التاجر العبد ان يفك وثاق احدى الجواري ويعطيها مروحة لتخفف عن الضيوف شدة الحر فامتثلت الجارية، وتأملها عبد الرحمن انها جميلة كنور الصباح كتمثال من البرفير وليس عليها سوى ثوب قصير يستر حتى نصف فخذيها، فهي اشبه بالملكة بلقيس.

فقال صاحبها: تعتبر من الفاتنات الساحرات بين بنات جنسها وثمنها مضاعف.

فقال له احد التجار: ولماذا لا تحتفظ بها لنفسك ما دامت تتحلى بكل هذه الصفات؟

فاجابه محمد علي: انا لست سلطاناً بل تاجراً. ذهب بسببها خمسمائة ضحية، لما هاجمنا قريتها وجدنا مقاومة شديدة من قبل اقربائهن فدعتنا الحاجة لقتلهم جميعاً وابقينا عليها وعلى اربع جواري.

وتأملها عبد الرحمن مرة اخرى فوجدها جميلة في حزنها وكآبتها.

ـ ولماذا تصفيدهم بالحديد اذا كانوا طائعين كما تدعي؟ فالقيود تدمي ايديهن وارجلهن وبالتالي ينقص ثمنهن.

ولما فرغوا جميعاً من تناول الطعام اخذ محمد علي القصعة وادناها من فرس عبد الرحمن.

فانتهره الأمير قائلا: والعبيد الا ياكلون؟

ـ بلا ريب

ـ اذاً، ضع بين ايديهم القصعة فان فرسي لم تتعود على الرفاهية وعلى تناول طعام شهي مثل هذا الطعام

وشكره على ضيافته لهما وابتعد مع بدر. وقررا المبيت في العراء.

وفي الصباح استئنفا سيرهما قاصدين نهر النيل وترجلا عن جواديهما ليستقيا ماء من بئر قريبة وما خطا عبد الرحمن سوى بضع خطوات حتى شعر كان جمرة مست رجله فوق عقبه. حية رقطاء نهشته فصرخ صرخة داوية حملت الذعر الى بدر فالتفت يمنة وشاهد الافعى فانتضى سيفه وضربها فقطعها شطرين ثم هرول نحو عبد الرحمن.

ـ تعال استرح في ظل البئر دون ان تستند على رجلك تمدّد ولا تتحرك علينا ان نخرج السم من الدم.

وبدأ الورم في الرجل وترافقه الزروقة، انه منظر ليس جميلاً، وشعر عبد الرحمن بالضعف يتسرب الى جسمه وشعر بالقيء واغلق عينيه وتصبب جبينه بالعرق البارد واصابه دوار.

ولما فتح عينيه وجد بدرا قربه.

ـ انا ظمآن.

فرفع بدر راس عبد الرحمن وادنى القربة من فيه، وشعر بالموت يدب في مفاصله.

واقبل الحجاج يسألون عما جرى ومنهم محمد علي، جسّ نبضه وفحص الرجل المصابة، والمريض يهذي فاقد الرشد.

فتمتم محمد علي قائلا: سيموت مع قدوم الصباح.

ونصب الحجاج خيامهم بالقرب من مضرب عبد الرحمن وفكّت قيود الجواري والعبيد واقتربت الجارية صاحبة المروحة من مضرب عبد الرحمن فأبصرت الفتى الأموي أصفر الوجه، فلفظت بلسانها كلمات غير مفهومة.

فقال التاجر لبدر: تريد العناية برفيقك وهي خبيرة بالسموم.

فتأملها بدر مرتاباً بمقدرتها على شفاء مولاه ولكنه قال: لتجرب لا استطيع ان اعمل شيئاً آخر له.

عصبت الجارية رجل عبد الرحمن فوق ركبته واخذت سيفه من غمده

وجرحته في رجله المصابة واخذت تمج الدم من الجرح وتتفله وظلت على هذه الحال اكثر من نصف ساعة.

وقال محمد علي لبدر: ستظل هذه الليلة في المضرب للعناية برفيقك.

وتوارى ثم اقبل بالطعام فطلبت من بدر ان يأكل، فأكل نصفه وترك لها النصف الآخر، فوقفت على مدخل المضرب تزدرد الطعام دون ان تكف عن مراقبة الفتى الأموي السادر في غيبوبته.

وخيّم الصمت ورقد الناس ورقدت الجارية بالقرب من عبد الرحمن تسمع تنهداته وهذيانه وهو يردد اسم «اسماء» اسماء».

واستيقظ النيام عند مطلع الصباح ودبّت الحركة في المخيّم وتفقد محمد علي عبد الرحمن فوجده حياً ولكنه في حالة يرثى لها من الضعف. واعطت الجارية رايها فقالت في لسانها: سيعيش ولكن سيطول شفاؤه.

وفسّر محمد علي كلماتها لبدر فقال هذا: لتكن مشيئة الله.

وقرّروا رفعه على محمل لانه غير قادر على المسير، وجاء الاقتراح من محمد علي.

ودهش بدر لهذا التفاني في خدمة القريب من قبل نخاس. ووافق بدر، فقال محمد علي:

ـ في هذه الحال امتطي الفرس لان حماري كفيل بجر المريض.

انه يتشوق لركوب هذه الفرس وقد سنحت الفرصة وقد تكون المرة الأولى والأخيرة التي تتاح له فيها الفرصة لارضاء شهوته.

وساروا بضعة ايام وتحسنت احوال عبد الرحمن، والجارية لا تفارقه الا قليلاً، وشعر ان قواه تعود اليه تدريجياً واصبح بغنى عن عناية تلك الجارية السمراء ولم يدرك سبب تنازل النخاس عنها طوال هذه المدة. ماذا يجول في دماغه؟ وما هذه الانسانية الفذة في خدمة القريب، وما هو الحافز الذي اهاب به الى هذا التصرف المحمود ولم يجد جوابا لهذه الاسئلة الكثيرة التي تجول في ذهنه.

وادركوا وادي النيل وهبطت القافلة نحو القرية القريبة وتجمع اهلها لمشاهدة المسافرين الذين ابيضت ثيابهم من غبار الطريق، ولم يعبأوا بهم لانهم اعتادوا على مناظر مثل هذه.

ودنا النخاس من الأمير الأموي يخاطبه بهذه اللهجة: هل خدمتك الجارية كما تحب؟

فدهش عبد الرحمن لهذا السؤال واجاب: نعم اصدق خدمة، جزاها الله عني خيراً.

ـ انها تباع في سوق النخاسين بمائتي دينار. لماذا لا تشتريها وانا اهبها لك مع مائتي دينار لقاء الفرس.

والآن ادرك عبد الرحمن غرض تاجر الرقيق، فجميع الخدمات التي اداها له والترحيب والاكرام وحسن الوفادة ووضع الجارية تحت تصرفه كل هذا له غاية واحدة هي الفرس.

وتردد عبد الرحمن في الجواب

فاردف النخاس قائلاً: الجارية تميل اليك مثل حيوان بري وجد انساناً يدجنه. خدمتك اصدق خدمة، كما تقول، وتكون لك خير شريكة في وحدتك ووحشتك.

ولزم عبد الرحمن الصمت، فلا رغبة تدفعه للتخلي عن فرسه ولا يرضى بامتلاك الجارية التي انقذته من الموت ويسعى لمساعدتها دون شرائها، واذا اشتراها واطلق سراحها فماذا يحل بها في بلد تجهل اهله؟

واخيراً خرج الجواب من فمه:

ـ ليست الفرس في رسم البيع.

ـ ثلاثمائة دينار والجارية.

ـ لا

ـ خمسمائة دينار بدون الجارية ادفعها لك نقداً وعداً وتسلمني الفرس.

ـ لا

وكف النخاس عن العرض تجاه اصرار عبد الرحمن على رفض البيع مهما كان الثمن، وتظاهر كانه لم يعد له رغبة في الشراء.

وشاء الأمير الأموي ان يجول في السوق مفتشاً عن حاجة يقدمها للجارية لقاء السهر والعناية فاختار قطعة من الحرير ودفعها الى النخاس محمد علي ليسلمها للجارية.

سرت بها الجارية كل السرور وتوارت قليلاً ثم عادت متشحة بها فهمس محمد علي في اذن عبد الرحمن:

ـ خمسمائة دينار والجارية لقاء الفرس.

ـ الفرس ليست برسم البيع. والآن استاذن منك بالانصراف لاني تعب وغداً نسافر عند مطلع الفجر جئت لاشكرك على حسن ضيافتك ولأسلمك الهدية للجارية.

ـ جاءت الهدية في حينها، غداً ستباع هذه الجارية في سوق النخاسين..

وودعهم عبد الرحمن، وعزّ على محمد علي انه لم يستطع ادراك وطره من عبد الرحمن، انه يرغب في الحصول على الفرس ولم يدرك امنيته.

وصل عبد الرحمن وبدر في اليوم التالي الى وادي النيل وقد لوحتهما شمس الصحراء، ولم يكن النفوذ العباسي قد بلغ تلك الشطآن وان كان صالح بن عالي طارد مروان الحمار وقتله في بوصير. فعبد الرحمن الفهري لم يتخلص من الامويين حتى يلوي رقبته لنير العباسيين الاسياد الجدد بل فضّل الاستقلال بالامر والسلطان.

وطلب عبد الرحمن الأموي المثول بين يدي الفهري، ودهش هذا ان يقبل اليه امير اموي. هل بقي امير اموي بعد ان استأصل شافتهم العباسيون.

ولم يرض الفهري عن هذه المقابلة بالباطن ولكن بالظاهر ابدى البشاشة والايناس.

- اهلا بابناء الكرام، نزلت على الرحب والسعة.

وروى عبد الرحمن قصته واندحار الامويين ومقتل مروان.

واصغى لحديثه شيخ هرم شبعت منه الايام وشبع منها وسئم تكاليف الحياة كما سئمها قبله زهير بن ابي سلمى لما قال:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين عاماً، لا ابا لك، يسام

وحدج الفتى الأموي بنظرات كأنه شاء ان يلج الى اعماق الفتى. هذا حكمون اليهودي، فقال لعبد الرحمن:

- انت ابن معاوية وجدك هشام وعمك مسلمة.

- وهو كذلك

- انا اعرفكم واحداً واحداً وقد اخذت عن عمك مسلمة علم الغيب، والغيب يقول ان ظلكم تقلص عن المشرق ولم يبق امامك سوى المغرب يا ابن معاوية.

فبهت الجميع ودهشوا واكثرهم دهشة وغضباً الفهري فقال لليهودي مستشاره:

- افصح مقولتك.

- هذا الفتى سيعيد الحق المهدور فما اضاعه الأمويون في فارس والعراق والشام سيدركونه في الاندلس.

وانقبضت اسارير الفهري عند سماعه كلمة الاندلس، ما زالت نفسه تتوق الى تلك الاراضي التي سلخت عنه انسلاخ الجلد عن العظم، هذا الاموي يريد مزاحمته عليها، لن يكون ذلك سيفتك به قبل ادراك مأربه، وهم بقتله في الحال لولا الحضور، ولكنه اضمر له الشر. ولم يستطع تلك الليلة ان يغمض له جفن وعبد الرحمن الاموي قريب منه فاذا اطلق سراحه توجه الى الاندلس وبنى فيها من جديد مجد بني امية.

وشق عليه قول حكمون اليهودي فاستدعاه في اليوم التالي وانتهره قائلاً:

ـ يا شيخ السوء، كيف تجرأت امس ووهبت الاموي الاندلس وانت تعلم اني طامع فيها؟ انت تعلم بالغيب اطلعني بوضوح على ما يقول هذا العلم. اتبقى لي امارة المغرب بعد اضمحلال الامويين ام تضيع علي؟ اجبني بالصدق دون مواربة والا الويل لك.

ـ خفف عنك يا سيدي الامير.

ـ اخفف عني وانت تهب الممالك من تشاء؟ ماذا ابقيت لي، يا ابن اللخناء؟

ـ لا خوف عليك، المغرب ملك يمينك وسيظل ملك يمينك.

ـ والاندلس؟ اخبرني لمن تصير الاندلس؟

فأحرجه وصمت.

فانتهره الفهري قائلاً:

ـ لمن الاندلس؟ اجبني في الحال.

ـ لهذا الفتى الاموي النازل عليك ضيفاً، يقول الغيب بتغلب المرواني من ابناء ملوك القوم واسمه عبد الرحمن وهو ذو ضفيرتين يملك الاندلس ويورثها عقبه.

فلما سمع الفهري هذه النبوءة، تذكر ان الاموي يرخي ضفيرتين فشاء منذ تلك الساعة اتخاذ ضفيرتين حتى تناله الرواية.. وكاد يقضي على اليهودي لفرط هياجه غير انه تمالك نفسه وقال:

ـ لقد نعيته على الآفاق وانت تخلع عليه ولاية انا احق منها به.

وبالفعل فان عبد الرحمن الفهري كان قد فرّ من الاندلس بعد دخول ابي الخطار اليها، وتوصل الى انتزاع امارة المغرب..

فقال له اليهودي: اتقتل ضيفك والعرب انتم مكرمو الضيف وجاركم عزيز كريم.

وفي هذه الاثناء دخل الحاجب معلناً: بالباب رسول من الكوفة يستأذن على مولاي الأمير.

ـ من الكوفة؟

والتفت الى حكمون اليهودي، لا مندوحة له عن استشارته، فقال اليهودي:

ـ انه ولا شك رسول العباسيين اليك فليدخل لندرك منه الخبر اليقين.

فدخل الرسول والقى بين يدي الفهري رسالة مختومة وقال:

ـ هذا كتاب امير المؤمنين ابي العباس، الى امير المغرب عبد الرحمن بن حبيب الفهري.

فتناول الرسالة بيد ترتجف وقرأها وهو يخشى ان يقرأ فيها نبأ عزله عن ولاية المغرب ولكن جاء في الرسالة ما يلي:

«من ابي العباس امير المؤمنين الى عبد الرحمن بن حبيب الفهري، امير المغرب، اما بعد، فالخلافة اصبحت عباسية والحمد لله، وقد ركبت مسندها ورائدي الحق، ومبتغاي العدل، فسيروا في رعاية ولايتكم بطاعة الله ورسوله، وقد اقررناكم في ما أنتم موكلون به من اعباء فعليكم ان تسوسوا القوم بالحسنى وان تعتمدوا الانصاف عندما تدبرون الامور وارجعوا الينا في شؤونكم كافة شأنكم حيال من سلف من الحاكمين، فالدولة القائمة في ظل القدرة يضيمها العدوان كونوا بها بررة وارعوا فيها عدل الله ورسوله.

فازدادت عينا الفهري اتساعاً ودفع الرسالة الى اليهودي ليقرأها فقال اليهودي:

ـ هنيئاً لابي العباس في خلافته بايعناه وهو بها حقيق.

ثم التفت الى الفهري كأنه يقول له: لا مناص لنا من هذا الجواب في الوقت الحاضر، والحكمة تقضي باتقاء الصولة العاصفة..

واختلى الفهري بمستشاره ليكتب الرسالة. وتردد الفهري في اعلان الطاعة للعباسيين فقال حكمون اليهودي:

ـ حفظ الله مولاي الامير، هل نقوى على مقاومة العباسيين قاهري الامويين، فالحكمة تقضي باتقاء الصولة، والعصيان معناه الفناء المحتوم.

ـ اكتب اذا يا حكمون الجواب: اننا بايعنا ابا العباس. والعجيب مني اني اوافقك في رغباتك. رضيت منك بالقعود عن نصرة مروان الجعدي وهو ولي نعمتي وحبوت وإياك الى صالح بن علي اطأطىء الراس بين يديه.

وختم كتاب المبايعة ودعا اليه الرسول يعالنه:

ـ نحن على دين خليفتنا الميمون ولسنا من الدولة الطالعة غير ريشة في الخوافي، فليبسط ابو العباس جناحيه علينا فله منا الخضوع والطاعة والتأييد.

ونفح الرسول بجائزة سنية، فخرج شاكراً داعياً للفهري.

ومال الفهري على مستشاره الشيخ اليهودي قائلاً:

ـ اتفلت منا الاندلس بعدما ضاع علينا الاستئثار بولاية المغرب؟

وادرك حكمون اليهودي بثاقب نظره ان الفهري عازم على الفتك بعبد الرحمن فقال يداور سيده:

ـ الامور مرهونة باوقاتها يا مولاي الامير.

ـ ان كان الاموي عقبة في سبيل الوصول الى اغراضنا فلنقتله، ومن يطالبنا بدمه وهو بغية امير المؤمنين ابي العباس؟

ـ انه ضيفك ايها الامير، فهل يرضى الفهري ان يقال عنه انه خان جاره؟

ـ ايقيم عدوي في داري واعفو عنه؟

ـ وما عليك اذا عفوت؟ فالموت له بالمرصاد.

ـ لا تداوني بمرهمك ايها الماكر، يجب الخلاص من الاموي. اتتنبأ له

بركوب سدة الاندلس وتدعوني الى اطلاقه اليها؟ ساقتلك واقتله غير اني لن اقتله بيميني حرصاً على ما تلزمني الضيافة، بل ساعهد به الى سادة القوم وهم سادتي ولهم الحكم المبرم عليه وعلي. فرض الامانة يكرهني على ابلاغهم امره والا نالني منهم الاذى حين يعلمون اني اخفيت عنهم عدوهم.

- يؤلمني ان تزول عني ثقة سيدي، فان يكن دمي منجاة له من كيد اعدائه فليسفك دمي وهو في حل منه.

- ما كنت لامسك الساعة عن البطش بك لولا حرمة الشيخوخة.

غدا ساطلع العباسيين على مقام الاموي عندي ومهما قدر الرحمن يكون.

فنأى اليهودي عن القصر حزيناً وحاول النوم في تلك الليلة فلم يقدر وعبد الرحمن بن معاوية عرضة للموت.

ونهض يرتدي ثيابه ويسلك توا الى قصر الفهري ولم يعارضه احد. وتوجّه توّاً الى الغرفة التي يبيت فيها الامير الاموي وطرق الباب وقلبه يخفق شديداً لفرط الوجل.

فاستفاق عبد الرحمن بن معاوية: من؟

- افتح، ايها الأمير، صديق.

ونهض عبد الرحمن لساعته وفتح الباب، وعرفه على الفور هذا حكمون اليهودي.

- ما جاء بك في مثل هذه الساعة؟

- الموقف خطير يا ابن معاوية، اسرع بالرحيل، في نية الفهري ان يطرحك بين انياب صالح بن علي.

لقد جازفت بنفسي لكي انقذك من الوبال. عليك بالفرار.

فهتف عبد الرحمن مدهوشاً: أيبطُش الفهري بضيوفه يا حكمون؟

ـ المصلحة لا تقيم لحرمة الضيافة وزناً، الفهري يخشى ان تسلبه الاندلس فنقم عليك واراد لك الموت.

فبادر عبد الرحمن وايقظ بدراً قائلاً له: حان موعد الرحيل، يا بدر، فالفهري ينوي بنا شراً لننصرف قبل ان تدهمنا الغاشية.

وادرك عبد الرحمن انه اخطأ في التجائه الى الفهري فكان كالهارب من الدب ليقع في الجب او كالمستجير من الرمضاء بالنار. الآن بانت له الحقيقة ناصعة، فغادر مع بدر قصر الفهري خلسة يضمهما الظلام.

وما طلع الصباح حتى كانا قد بعدا عن قصر الفهري، ولا حاجة الى القول ان الفهري سأل عن عبد الرحمن في الصباح ولم يجد ولم يتمكن احد من معرفة مكانه مع خادمه بدر، لقد بلعتهما الارض ومن الطبيعي ان يصب الفهري جام غضبه على حكمون اليهودي لأنه، دون سواه قد نبّه الاموي الى الخطر المحدق به، غير انه لا يستطيع ايذاءه فهو ما زال بحاجة الى نصائحه وارشاداته، وقد اجاد النصح والارشاد الا في قضية الاموي.

الى برقة

ـ انها كارثة يا بدر، لم تسبقها كارثة، عندما اتصوّر الفاجعة يقشعر بدني واسجد واقبّل الارض لاننا ما زلنا احياء بنعمة الله علينا حتى الآن، لان اعداءنا ما زالوا يطاردوننا وقد استباحوا دماءنا واموالنا، والفهري أيضاً يطلب دمنا مرضاة للعباسيين ولهوى في نفسه.

ـ اجل مولاي ولولا رأفة الله بنا لكنا الآن تحت الثرى او بالاحرى تنهش اجسادنا الوحوش او اشلاء مبعثرة او رماداً تسفيها الرياح، كما جرى للكثيرين من اخواننا وانصارنا واعواننا.

ـ ولا انسى ما حييت، مقتل اخي الصغير رحمة الله عليه. ان ذلك المشهد ما زال ماثلاً امام عيني وسيظل مطبوعاً في ذاكرتي الى الأبد.

ـ لقد اصبحنا قريبين من اخوالك بني نفزة المقيمين في طرابلس وسنجد عندهم الامان والنصرة على الاعداء

ـ اتظن يا بدر ان اخوالي قادرون على حمايتي من مطاردة ابن حبيب الفهري؟

ـ لا يتجاسر الفهري على البحث عنك عندهم لانه لا يشاء اغاظتهم وهم قوم يخشى بأسهم.

ولاحت لهم عن بعد مضارب ممتدة في سفح جبل فاقتربا منها واذا هي قرية مثل مئات القرى والقبائل التي شاهداها في طريقهما، انتصبت حولها اشجار النخيل.

ووصلا الى نبع ماء كان قد ورده راع مع قطيعه، واقبل الاطفال لما رأوا غريبين دخلا القرية، واطلت النساء على ابواب بيوتهن لمشاهدة المسافرين.

ودخلا القرية يواكبهما الاولاد وظهر بضعة رجال مربوعو القامة خشنو الملامح وحدقوا بالقادمين ببعض الحذر وتبادلوا التحية.

والوقت قد قارب العصر فترك الرجال اعمالهم للاستراحة فانزلوا عبد الرحمن ورفيقه بدرا في كوخ يقع في ساحة القرية وقدموا لهما اللحم والخبز وحليب الماعز.

وجلس الرجال حولهما على شكل دائرة وطرحوا عليهما اسئلة كثيرة اجابا عليها بقدر ما سمحت لهما معارفهما المكتسبة من الاسفار الطويلة دون ان يكشفا عن هويتهما، لقد علمتهما التجارب الحذر من كل ما يدب حولهما.

ونهض بدر للاهتمام بالخيل وبقي عبد الرحمن بين الرجال يروي لها الروايات والقصص واخبار الملوك فسرّ الجميع بحديثه فالذي يخاطبهم ليس انساناً عادياً.

واستراحا تلك الليلة، وفي الصباح شكرا زعيم القبيلة على ضيافته السخية لهما ثم تابعا سيرهما بعد ان تزودا بما يحتاجانه من مأكل ومشرب.

ووصلا اخيراً الى قبيلة بني نفزة حيث اخوال عبد الرحمن وامه «راح» وقد مضى زمن طويل على عودتها الى اهلها بعد وفاة زوجها معاوية.

وكانت «راح» قد توغلت في الاربعين ورست في كمدة قلما تفارقها منذ ان فقدت زوجها معاوية بن عبد الملك وفضلت العودة الى ربعها على الاقامة في مكان يذكرها بزوجها الامير الذي احبها واحبته وفقدته في ساعة لم تنتظرها. انها امرأة ما زالت ترتع بجمالها البدوي الجذاب بلونها الحنطي وبقامتها السامقة وجسمها الممتلىء.

وما درى زعيم القبيلة بقدوم الامير عبد الرحمن حتى هف لاستقباله خفيف الخطو بادي الغبطة.

وسار الخبر في الحي سير النار في الهشيم ووصل الى اسماع «راح» وكذبته للوهلة الاولى: ابنها وحشاشة كبدها عبد الرحمن بينهم اخباره واخبارهم انقطعت عنها منذ زمان بعيد.

وتمثل امامها الماضي البعيد بكل ما حمل لها من افراح واتراح، وهبت للقاء ولدها.

ـ ولدي حبيبي

وتضمه الى صدرها بكل ما انطوى عليه هذا الصدر من حنان ام لم تشاهد ابنها منذ سنين، ويفور الدمع من عينيها وهي دموع الغبطة هذه المرة دموع اللقاء لا دموع الفراق، وتتهافت الكلمات من شفتيها دون رابطة بينها، فعندما تطغو العاطفة على العقل يدب الخلل الى التفكير، وما الحاجة الى التفكير في مثل هذه الساعة التي جمعت بين ام وولد فرّقت بينهما ابعاد الزمان والمكان؟

وافرد للامير عبد الرحمن مضرب يستريح فيه من عناء السفر الطويل الشاق.

وما امسى المساء حتى دعاه زعيم القبيلة وتناولوا طعام العشاء معاً.

واجتمع حوله الشيوخ وراحوا ينهالون عليه بالاسئلة لارواء غليلهم من الاطلاع عما جرى في بلاد الشام في تلك السنوات الاخيرة. ومن الطبيعي ان تكون امه اشد الناس شوقاً للاطلاع على تلك الاحداث التي تمخضت عنها تلك البلاد.

ـ انت سعيدة يا اماه، لانك لم تشاهدي تلك الفظائع التي يشيب لها راس الوليد. . انها كارثة لم تسبقها كارثة.

وسأله احد الشيوخ قائلاً: كيف قلب لكم الدهر ظهر المجن؟

ـ اخطاؤنا كثيرة وتفرقنا قبيح وتجمع اعدائنا علينا اوصلنا الى حالتنا التي لا نحسد عليها.

لقد ظلّ الشيعة نصف قرن ينظمون دعوتهم ويجمعون حولهم الانصار في سائر النواحي ونحن عنهم غافلون، ونكيد لبعضنا البعض ونقتل بعضنا البعض. وما تمكنت جيوشنا رغم كثرة عددها من الصمود امام ابي مسلم الخراساني فهزمها في معارك عديدة واستولى على مرو وسمرقند وخراسان ونيسبور وطرد منها عمالنا ورفع فيها لواء الشيعة الاسود.

وينبري احد الشيوخ قائلاً: «الى مَ تعزو هذا الانهيار السريع في دولة لا احد يعرف حدودها. الم تحاولوا القيام بردة فعل؟

ـ اجل، بعد تردد حاول آخر خليفة مروان الجعدي ان يقوّم ذلك الصرح المنهار فحشد جيشاً قوامه مائة وعشرون الف رجل حتى وصل الى ضفاف نهر الزاب، وهناك دارت معركة بيننا وبينهم وكانت القوى متناسبة في العَدد والعُدد والكفة اميل نحونا ولكنهم انتصروا علينا في تلك المعركة الشهيرة وفرّ مروان الى فلسطين ثم الى مصر وهناك قتل وارسل راسه الى ابي العباس السفاح.

ـ وانتم ماذا جرى لكم بعد تلك الموقعة الحاسمة، يا ولدي؟

ـ قصتي طويلة، يا اماه، فبعد ان ظفر العباسيون بالامويين اخذوا في تتبع من بقي من امرائهم وزعمائهم ولكن الكثيرين منهم فروا ولاذوا بالاختفاء فاعلن عبد الله بن علي وهو عم ابي العباس السفاح ان العباسي قد ندم على ما فرط منه في حقهم وانه يشملهم بعفوه وامانه، فخدع الكثيرون منهم بهذا الوعد ولبوا دعوة عبد الله الى الظهور. واستطاع بهذه الوسيلة ان يقتل منهم ثمانين رجلا آخرين والقيت جثثهم للكلاب، واستخرجت رفاة الخلفاء الامويين من قبورها وبعثرت، وقد كنت على وشك ان الاقي المصير ذاته لولا رأفة الله بي.

ـ وكيف تمت لك النجاة؟

ـ فررت الى ناحية الفرات واختفيت ببعض القرى[1]، وفيما انا جالس يوماً في تلك القرية في ظلمة بيت تواريت فيه وانا شديد الرمد ومعي خرقة سوداء امسح بها قذى عيني وابني سليمان البكر يلعب قدامي وهو ابن اربع سنوات، اذ دخل من باب البيت فزعاً باكياً، فأهوى الى حجري فجعلت ادفعه لما كان بي من الرمد وهو يأبى الا التعلق بي ويقول

---

١ ـ ذكر يعقوب بن اسحق الكندي انه سمع القاضي بن داود يقول: «استتر عبد الرحمن بن معاوية بن هشام عند جدي بقنسرين اربعة اشهر ايام قتل قومه في اول دولة بني العباس (ابن حزم جمهرة الانساب)

ما يقوله الاولاد عند الفزع. فخرجت انظر فاذا بالروع قد نزل بالقرية والرايات السود عليها منحطة، واخ لي حديث السن يشتد هارباً ويقول لي:

ـ النجاة، يا اخي، فهذه رايات «المسودّة».

فضربت بيدي على دنانير تناولتها ونجوت بنفسي والصبي اخي معي واعلمت اخواتي بمتوجهي وامرتهن ان يلحقنني وامرت بدراً ان يبتاع دابة وما يصلح للسفر.

ولما غادرنا بدر راعتنا جلبة الخيل فخرجنا نركض وابصرتنا الخيل قد دخلنا بين اجمة على الفرات واستدارت بنا الخيل فخرجنا من الاجمة وسبقناها الى الفرات والقينا بانفسنا فيه.

واقبلت الخيل وصاحوا علينا من الشط: «ارجعا لا باس عليكما».

فسبحت حاثاً نفسي وكنت احسن السباحة وسبح الغلام اخي معي. فلما سرنا ساعة سبقته بالسباحة وقطعت قدر نصف الفرات وقصّر اخي ودهش، فالتفت اليه لاقوّي منه قلبه واصيح عليه ليلحقني، فاذا هو لما سمع تأمينهم اياه اصغى اليهم وهم يخدعونه عن نفسه، وخاف واغتر بامانهم وخشي الغرق فأسرع نحوهم وقطعت انا الفرات، وبعضهم قد همّ بالتجرد للسباحة في اثري فمنعه اصحابه عن ذلك فتركوني واخذوا اخي الصبي الذي صار اليهم بالامان فضربوا عنقه ومضوا براسه، وانا انظر اليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة وقلبي ينفطر لوعة واسى.

ومضيت احس اني طائر وانا ساع على قدمي وتواريت في اجمة حتى خفّ عليّ الطلب فاقتربت من منزل شقيقتي ام الاصبع في جنح الظلام فاخبرتها مقصدي ورغبت اليها ان ترسل لي بعض الجواهر والدنانير للنفقة.

فقالت راح: «الحمد لله على سلامتك يا ولدي.

وسأله احد شيوخ القبيلة: وماذا جرى لك مع والي افريقية، عبد الرحمن بن حبيب الفهري؟

ـ التجأت اليه ظناً مني ان الدعوة العباسية لم تصل الى افريقية، غير

انه كان يخشى على سلطانه من ظهور بني امية في مصر او في اي مكان آخر من شمالي افريقية، فطارد اللاجئين اليها منهم وقتل بعضهم واعتقل البعض الآخر. وقد شاء قتلي ايضاً او تسليمي الى العباسيين. واطلعني على نواياه بعض المخلصين لبني امية، ففررت متخذاً الليل لي ستاراً. ولا شك انه يطاردني ليل نهار للقضاء عليّ. فقال زعيم القبيلة: «انت في جوارنا ونحن مانعوك بدمائنا وارواحنا.

ـ معاذ الله يا عماه، اني لا اريد لكم الاذى، ولا اساءة علاقاتكم مع الفهري بسببي.

ـ تنزل بيننا على الرحب والسعة الى ما شاء الله.

وطالت اقامة عبد الرحمن عند اخواله وشعر بالملل والضجر يتسربان الى نفسه الطموح.

وما خلت اقامته عند اخواله من مغامرات ومفاجآت. فبعد وصوله الى القبيلة بايام جاء رجال الفهري باحثين عنه في القبيلة، وحيّا قائدهم قائلاً:

ـ السلام عليكم.

فردّ شيخ القبيلة التحية بأحسن منها.

والتفت قائد الشرذمة فوجد ذاته مطوّقاً، اكثر من مائتي رجل احاطوا به وبرجاله، ووجد ذاته في خطر لكنه تشجع وقال:

جئنا باسم عبد الرحمن الفهري حاكم افريقية.

ـ سمعنا به.

ـ نبحث عن رجل هو بغية الفهري.

ـ وما هو الاثم الذي ارتكبه هذا الرجل؟

ـ اثمه انه عدو الفهري.

فأخذ الشيخ حفنة من الرمل بين يديه وتركها تنزل قليلاً قليلاً على الارض وقال:

ـ هذه الارض ارضنا ولا نعترف بعدالة الا عدالتنا.

فازداد القائد حنقاً وكتم غيظه وقال:

ـ أتأوي عدوّ صاحب افريقية؟

ـ لا يوجد هنا احد غريب عنا ونحن مستعدون للدفاع عن انفسنا.

وكان القائد يجهل صلة القرابة بين عبد الرحمن بن معاوية وبين قبيلة نفزة قال:

ـ هذا الرجل يجب ان يموت بأمر من الفهري.

واستمرّ القائد صامتا بعض الوقت لا يدري كيف يتصرف. ثم ادركه الغضب وقبض على عبد الرحمن ويده على سيفه.

فما كان من الرجال الا ان وضعوا ايديهم على قبضة سيوفهم واقترب الرماة ايضاً متاهبين للقتال.

وهمّ القائد بقتل عبد الرحمن فأسر نائبه في اذنه قائلاً: دع عنك ذلك، نموت جميعاً اذا جرّدت سيفك من غمده.

وتبينّ القائد صواب رأي نائبه، انهم ثلاثمائة مسلح ورجاله لا يزيدون على اربعين وقد اخذ التعب منه مأخذه والقبيلة قادرة على حشد خمسمائة مقاتل في مدة قصيرة.

فقال قائد الكوكبة: جئنا مسالمين واذا كنتم لا تريدون تسليم بغية الفهري فذلك راجع اليكم.

ـ اسق الخيول من الحوض ودع رجالك يستريحون بعض الوقت ثم تمضي من حيث جئت ورجالي يرافقونكم.

واعطى بعض الأوامر فنقلت في الحال الى جميع المقاتلين والرماة.

فلم يبق امام القائد ورجاله الا العمل بنصيحة الشيخ، وانتهت الرواية على سلامة.

وكان عبد الرحمن يستريح في مضربه ونومه مضطرب، يتقلب على

اليمين وعلى الشمال وهو فريسة آلام جسدية ونفسية، فحلم ان جنود الفهري يقبضون عليه وسيف الانتقام مسلط فوق راسه فهبّ مذعوراً من نومه مبللاً بالعرق.

فدنت منه امه وهدّأت روعه وخففت عنه ما به.. غير ان نفسه مريضة تعبة منهوكة لا سلام في قلبه..

ـ دعوني لماذا انقذتموني من فرسان الفهري؟ انا شريد طريد وعلامة الموت مرسومة على جبيني.

فخاطبه شيخ القبيلة قائلاً:

ـ الارض التي ابصرت عليها النور بعيدة ولكن الأم التي ولدتك قريبة منك، دمنا يجري في عروقك ولا يتمكن احد من قطع الحبل الذي يربطنا بك والدم يصرخ الى الدم، واين يستطيع الهارب ان يجد الامان اذا لم يجده في عشيرة امه؟ بدّد عنك شبح الخوف الذي رافقك طيلة هذه المدة. ومن فكّر في تسليمك لاجل المال فليعرف ان القبيلة واقفة له بالمرصاد ولا ينجيه من غضبها ارض او سماء.

وصمت الشيخ وخيّم صمت مهيب واحنى الجميع رؤوسهم كما لو انهم سمعوا كلاماً منزلاً. ولم يدرك عبد الرحمن اقوال زعيم القبيلة لان قواه خائرة. غير ان الشيخ اقسم اليمين ان خمسة آلاف مقاتل مستعدون للسير في ركابه حيث يشاء.

وجلس في المساء مع شيوخ القبيلة في مضربه الذي رفع ستاره فشاهدوا نساء القبيلة واردات العين يستقين الماء بخطواتهن المهيبة وقامتهن الفارعة حاملات جرار الماء على اكتافهن، انهن الجمال نفسه.

ـ هؤلاء النسوة بهجة للعين والقلب والروح فيذكرنني بكل ما هو جميل في هذه الحياة.

فابتسم زعيم القبيلة وقال: تعيش بيننا ايها الامير وتتزوج واحدة منهن.

فتنهد عبد الرحمن من اعماق فؤاده: انهن يذكرنني بامرأة احببتها وتخليت عنها بدون ارادتي.

ـ خير لنا ان ننسى الماضي ما دمنا لا نستطيع العودة اليه، امرأة اخرى من هذه القبيلة تنسيك حبيبتك السابقة.

ـ من المحال، ظننت وانا مريض اني نسيتها، اما الآن فقد عادت اليّ ذاكرتي فهي اعزّ عليّ من قلبي، غادرتها لانقذها وانقذ نفسي.

ووجد ان اقامته قد طالت عند اقاربه فقرّر الرحيل. وشاءت امه ان تردّه عن عزمه فلم تفلح، وفي ذات يوم غادر القبيلة مع خادمه بدر.

في قبيلة مغيلة

وودّع عبد الرحمن امه وشيوخ القبيلة وبكت راح وتوسلت، فتمثّل الامير بامرىء القيس:

«ولا تذرفي الدمع السخي فانما نحاول ملكاً او نموت فنعذرا»

وبدر واسع الالمام بتلك الاراضي. الى اين التوجه؟ لماذا لا نقصد قبيلة مغيلة وهي بربرية وصاحبها شيخ اسمه «وانسوس».

فسارا يقطعان الصحراء سالكين السبل التي لا تسلكها الا الوحوش تخفيا لان عبد الرحمن بن حبيب الفهري يلجّ في الطلب على الأموي لغرضين: الاول ارضاء للعباسيين المالكين في العراق وقد وعدوه بالاندلس والياً عليها، وهي امنية ما زال يعلل النفس بها منذ زمن بعيد ويعتبرها من حقه وقد نزعت منه انتزاعاً. ولم يشأ ان يثيرها حرباً مع قبيلة بني نفزة، وهم قوم يخشى بأسهم وهو بحاجة الى حليف لا الى خصم جديد. اما وقد تحوّل الفتى الأموي عنهم فوجبت مطاردته والقاء القبض عليه حياً او ميتاً مهما كلف الامر.

وعبد الرحمن الأموي لا يجهل الخطر المحدق به ولكن كما قال الشاعر:

«تريدين لقيان المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من ابر النحل.

واندفعا الى قبيلة «وانسوس» «وحمحم الجوادان عن خوف واذا هما امام ثلاثة اسود علا زئيرها حتى ملأ الصحراء، فانتضى عبد الرحمن سيفه وهجم على احد الاسود غير مبال وغرزت نصلة سيفه في لبدة الاسد دون ان تصرعه فتراجع متحفزاً للوثبة وتطاير الشرر من اشداق الاسود فهب بدر

وضرب الاسد المشدوخ الراس فتهاوى خامد النبضات غير ان الاسدين الباقيين لم ينثنيا لما رأيا) رفيقهما قتيلاً.

واصبح الامير عبد الرحمن هدف الاسدين الشرسين وطال الصراع بينه وبينهما، وبدأ العياء على الامير فارتجف ساعده وخارت قواه وادرك انه هالك لا محالة ولم يشأ ان يموت رخيصاً فوجّه سيفه الى كبد احد الاسدين فخر صريعاً وبقي الاسد الثالث، فانقض كالبرق الخاطف على الامير واستطاع ان ينهش بانيابه كتف عبد الرحمن فزعزعت النهشة قواه، ومع ذلك ظل يقاوم ورد الاسد عنه فاعاد الاسد الكرة وشاء الامير ضربه فلم تسعفه الضربة وهوى في الرمال، واذا بفارس مقبل كأنه السهم الخاطف يوجه ضربة الى الاسد فلقت هامته.

والتفت عبد الرحمن وبدر الى الفارس فاذا هو رجل قد توغّل في الاربعين وخطه الشيب، فنظر اليه الامير شاكراً، فقد انقذه من موت مبين، فنهض متثاقلاً وصافح الرجل وقدماه لا تكادان تحملانه والدم يسيل من كتفه.

فتأمله البربري وسأل بدر ان يساعده على حمله على جواده.

ولما سأله بدر عن نفسه قال: كنت اصطاد في هذه النواحي وقد شاهدت الاسود الثلاثة وراقبتها حتى اتمكن منها واحداً واحداً وطاردتها حتى وصلت اليكما وكان ما كان.

والآن لا بد من حمل هذا الفتى الى القبيلة لمداواته والسهر عليه فجرحه بليغ.

ـ لقد غمرتنا بفضلك واحسانك فهل لنا ان نعرف من انت؟

ـ انا وانسوس زعيم قبيلة مغيلة.

ـ سبحان الله نحن قادمان اليك رغبة بالعيش في كنفك.

ودهش وانسوس من كلام بدر وسأله قائلاً:

ـ هل لي ان اعرف من انتما وهل لك ان تفسّر لي الغازك؟

ـ هذا مولاي الأمير عبد الرحمن بن معاوية الهارب من العباسيين وهو بغية الفهري ايضاً.

ـ وما حاجة الفهري به؟

ـ يخشى مزاحمته على الاندلس، فأضمر له الشر وما اراه الا مواصلاً البحث عنه في القبائل.

ـ انتما عندي في امان ولكن اكتم السر. اما الآن فالمسألة تدعو الى العجلة في اسعاف الامير ولا اظنه يقوى على ركوب الجواد وحده.

وصحا عبد الرحمن من غيبوبته وابصر انساناً غريباً بجانب بدر فسأله عنه فأجاب بدر مقدّماً وانسوس:

ـ هذا وانسوس زعيم قبيلة مغيلة وهو مستعد لانجادنا وايوائنا عنده حتى يلهمنا الله امراً.

ـ مرحبا بالامير، تنزل عندي على الرحب والسعة، فالقبيلة غير بعيدة من هذا المكان فهل تقوى على الركوب. وتحامل عبد الرحمن على نفسه وامتطى صهوة فرسه بمساعدة بدر ووانسوس وشعر بالضعف الشديد لفرط ما سال منه من دماء.

وجاهد عبد الرحمن بالنطق فقال: نصوغ لك الشكر، يا وانسوس، لانك انقذتنا من الهلاك. وكاد يصاب بالاغماء وحثهما وانسوس على السير فاندفعا بخطوات وئيدة حزينة.

وصل الثلاثة بعد جهد الى ربع وانسوس ووقفت على باب الخيمة امرأة في العقد الثالث من عمرها سمراء اللون جميلة الوجه طويلة القامة تستطلع الافق، انها «تكفات» زوجة وانسوس سيد القبيلة فمنذ يوم وليلة نأى زوجها عنها الى الصيد ولم يرجع.

وابصرتهم قادمين فخفق قلبها، انه زوجها. فصارت تعنفه بصخب وغيظ ناعية عليه الحنان والمودة لقد تحجر فيه القلب.

فضحك طويلاً وهو يبصرها في نزقها. وترجّل عن جواده وفتح لها

ذراعيه مؤانساً فألقت رأسها على صدره كأنها تبحث عن وسادة هنيئة تذهب بشجوها. قال وهو يرتوي من تقبيلها:

ـ اسمعي لقد جئت بضيفين من كرام القوم احدهم حفيد خليفة فهو من الامراء الامويين.

فأجابت وعيناها في الارض: من دعاهما اليه يتدبر امرهما.

فالتفت الى الضيفين وقال: مرحباً بكما، الحي حيكما.

وما استطاعت تكفات الا ان تبتسم تأدباً.

وتحلق افراد القبيلة حول عبد الرحمن وبدر يحدقون فيهما بفضول.

وبدا عبد الرحمن لتكفات البربرية فوقفت منه كأنها حيال السحر المفاجىء. ما لهذا الوجه الانيق يقلق هدوء الصحراء؟

وجمدت عينا تكفات على الامير فكانه استهواها وقادتها رجلاها الى الجريح ترحب به بابتسامة مشرقة قالت: بابي انت وامي ما هذه الجراح في كتفيك.

ومال وانسوس على الامير بقوله: هذه تكفات زوجتي، يا عبد الرحمن.

فاطال اليها عبد الرحمن النظر والبسمة الرضية تحوم على فمه وقال برفق:

ـ هذا نصيبنا من الفلوات هاجمتنا الاسود ومزقتنا ولولا زوجك البطل لكنا طعماً لها.

فقالت تكفات وقد اشفقت عليه في اوجاعه: أيتألم مولاي الأمير؟

ـ مرآكم بدّد عني الآلام.

وحدجها عبد الرحمن وتلاقى النظران، وحدس ان هذه المرأة ستلعب دوراً خطيراً في حياته وشعر بميل اليها.

ـ أأجيئك باللبن تبرد به لهبة حلقك؟

وما انتظرت الجواب بل هرعت الى الاهراء تصطفي منها الطيبات وتهرع بها على طبق، وجثمت على مقربة من الأمير تلقمه اشهى ماكل فافاض بالشكران.

فقال وانسوس: انت ضيف والضيف يستحق كل اكرام.

ومرت بضعة ايام وعبد الرحمن يستردّ نشاطه،

تكفات لا تدري لمن تشكو داءها، تحمل لوعتها في صدرها ولا تجرؤ على بثها، من تعالن انها تهوى عبد الرحمن بن معاوية؟

واستفحلت فيها شهوتها ستستأثر بحب الفتى الاموي فهي منه على شغف دفين وباطلاً تجاهد في التحرر منه.

وقادتها قدماها الى مضرب الامير، فابتسم لها عبد الرحمن وهي تعرض له بسمرتها اللدنة وقال مداعباً: بت لا ادري من الضيف على الربع، يا تكفات، انحن ام انت؟

ـ انت رب الدار، يا مولاي الامير.

ـ ولكن لماذا تكرهين الجلوس الينا؟

ـ تحاشيت الاقتراب منك لاني اراك دائماً مسترسلاً في التفكير ولا اريد ان اقطع عليك حبل افكارك، انت بحاجة الى السكون حتى لا تعذبك جراحك.

ـ وبحاجة الى صوتك العذب يا تكفات، وحنوك الجم.

ـ مولاي الامير يشوقه المزاح، ايحفل بمثلي انا البربرية وهو سليل المجد؟

وقاطعها في كلامها وامسك بيدها يجذبها اليه فانقادت الى حيث تجرها يمينه ورفعت اليه ناظرين غرقا في نظريه وامتزجت انفاسه بانفاسها.

ـ اهواك يا تكفات ولماذا الانكار، بيد اني لا استطيع التنعم بهواي وانا في ظروفي الحاضرة وانت في عصمة رجل انا ضيف عليه. علينا يا تكفات ان نخنق هذا الحب النامي في ضلوعنا.

فأخفت وجهها بيديها وغارت في بكاء ملتاح.

، ـ ما رايت دمعة تترقرق من عين على ديباجة خد احسن من عبرة امطرتها عيناك

وصاح بها عبد الرحمن وقد آلمته حسرتها:

ـ تكفات، اتتوجعين؟ ما بك؟ بابي انت وامي.

فأجابت وهي لا ترفع اليه بصرها ولا تنقطع عن بكائها: دع تكفات في حرقتها ليت عينها لم تقع عليك.

ـ لا تبكي، اني شاعر بما يضنيك واني لأتألم كما تتألمين وانا منك على فتون الا اني مقيد بوثاق لا اقوى على فكه عن ساعدي.

وتنهد، اما هي فأشرق وجهها وجمد دمعها فقد احياها بما القى في سمعها من الكلمات العذاب وقالت: «اصحيح ان الأمير يهواني؟

ـ اجل اهواك بدون رجاء فلماذا الانكار؟ بيد انه لا يحق لي لا يحق لي حبك.

ويتجهم وجه تكفات وتنهض دون ان تفوه بكلمة، وتبتعد فقد جرتها قدمها الى كثيب من الرمل بعيد عن مضارب القبيلة تبكي حبها الذبيح اوتشتهي ان يكون نصيبها من دنياها ضجعة في حفرة يحجبها فيها كفن من تراب وابد من ظلام.

وما خفي على عبد الرحمن بن حبيب الفهري صاحب افريقية ان الأمير الأموي غادر قبيلة بني نفزة ليقترب اكثر فاكثر من الاندلس، فأين يبحث عنه؟ لا شك انه موجود في مكان يستطيع منه القفز الى الاندلس فشدّد في البحث عليه في تلك القبائل المبعثرة بين سبتة ومليلية.

وطغى الفرسان على مضارب وانسوس فهش لهم وبشّ:

ـ مرحباً بالاصدقاء.

ولم يبدر منه وهن او خشية، ومال عليه قائد الكوكبة يحييه ويقول:

ـ نحن رسل اميرنا الفهري اليك، فقد بلغه ان اعداءه اتخذوا ربعك متكئاً فسلمهم.

فأبدى الدهشة وقال:

ـ ومن هم هؤلاء الأعداء يا صاحبي؟

وجمعت كلماته الاداء الصافي والنبرة المطمئنة وسدّد اليه قائد الشرذمة نظرة يخترق بها عينيه ليقرأ في قلبه فما ارتجف وانسوس.

ـ ما كنت لا تنكب عن الصدق يا صاحبي.

ـ بحقك يا وانسوس اصدقني الخبر، اما اجتاز ديارك عبد الرحمن بن معاوية؟

ـ بلى عرّج عليّ بيد اني ما علمت انه على نفار وسيّد المغرب حتى نفضت منه يدي، فلست ارضى ان يأوي اليّ خصوم الأمير.

ـ ومنذ كم رحل عنك، يا وانسوس، والى اين؟

ـ منذ شهر تقريباً اذا صدقت الذاكرة، غاب يبحث عن مفزع ولا رزق العافية.

ولم يقتنع رجال الفهري بمقولة وانسوس، لا بد من البحث عن الرجل في الخيام. وكاد ينفضح امر وانسوس لو لم يتمالك على نفسه ويفسح لهم المجال لتفتيش الربع..

وسمع عبد الرحمن الحديث بكامله وتكفات ايضاً فدخلت الى الخباء وخشي الامير سوء العاقبة وادرك ان اجله قد دنا وليس من مفر وجند الفهري منتشرون يبحثون عنه في كل مخبأ وزاوية، فبادرته تكفات بنبرة صافية:

ـ لا تخش شراً، ايها الأمير.

فذهل من نبرتها ومن رباطة جأشها في هذه الساعة العصيبة والموقف الحرج، وكل شيء يدلّ على النهاية.

ونظر الى تكفات فاذا بها ترفع ثوبها الفضفاض الذي يغطي جسمها حتى قدميها وتومي اليه بالاختباء تحته.

ودهش كل الدهشة من تصرفها ولم تترك له مجالاً للتفكير فالجلبة تقترب اكثر فاكثر من الخباء، فاندسّ تحت ثوبها وصبر صبراً جميلاً.

وأقبل الجند فبحثوا عنه في الخباء والقوا نظرة على تكفات، ولم يدر في خلد واحد منهم ان عبد الرحمن غريمهم مختبىء تحت ثوب تلك المرأة. وغادروا المكان بخيبة امل.

وتنفس عبد الرحمن الصعداء وما صدّق انه نجى من قبضة عدوّه الفهري المنكّل بالأمويين الذين يلجأون اليه.

ولحسن الحظ ان بدرا في ذاك الوقت تغيّب عن الربع، فهو يرعى الفرسين بعيداً ولمس ضجة وغوغاء في الربع وابصر رجالاً مسلحين، فتبادر الى ذهنه في الحال ان سيّده في خطر ولا سبيل له الى انقاذه ففضّل المكوث بعيداً فقد تفتق له حيلة ينقذ بها الأمير من الورطة التي وقع فيها.

وابصرهم يغادرون القبيلة ولم ير الأمير معهم، فذهل كيف انهم لم يعثروا عليه.

وسرّ في باطنه كل السرور وسأل نفسه: اين اختبأ سيده؟ وما صدّق ان ابصره حتى بادره مهنئاً وشاكراً الله على سلامته.

انه كابوس ثقيل ازيح عن عاتق الجميع ولكنهم ما زالوا يعانون تأثيره، وخيّم عليهم الصمت الى ان خرقه «وانسوس» قائلاً:

ـ لماذا لا يجرّب الامير حظه في الاندلس، والاندلس نار تضطرم، وله فيها الانصار والاعوان وهم مستعدون لخدمتك ومساعدتك لانهم يأملون من الأمير المكافأة. استخلص يوسف الفهري السلطة لنفسه بعد ان ابعد الصميل عن قرطبة وجعله والياً على سرقسطة في الثغر الاعلى. وهبّت على يوسف رياح الفتنة من كل جانب وهو يغالبها فلا يكاد يخمدها في ناحية حتى تهب في ناحية اخرى اشد اضطراماً.

ووجد عبد الرحمن الفكرة حسنة، فالتفت الى بدر قائلاً:

ـ ما قولك يا بدر في الرحيل الى الاندلس لجس النبض؟

ـ انا رهن اشارة سيدي الأمير.

ـ انصارنا في الاندلس ينتسبون الى بني امية واهل الشام وينزلون في منطقة غرناطة. اذهب اليهم وتحدث مع زعمائهم واسبر غورهم ومدى استعدادهم لمساعدتي واليك هذه الرسالة تسلمها الى ابي عثمان رئيس الموالي المروانية..

وفي اليوم التالي ينهض بدر ويعدّ معدات السفر، عليه ان يقطع بضعة اميال قبل الوصول الى الشاطىء ليركب زورقاً ينقله الى ساحل غرناطة. ويساعده بعض رجال الحي في الوصول الى الساحل بجوار مليلية، ويودّعه عبد الرحمن واضعاً فيه كل آماله واحلامه وتصوراته ومستقبله، كل هذا موقوف على نجاح مهمة بدر في الاندلس.

ـ سر على الطائر الميمون.

الاندلس

بعد مقتل عبد الرحمن الغافقي في معركة بوتيه التي جئنا على ذكرها في كتاب «بلاي الرومي»، ولي الاندلس عبد الملك بن قطن الفهري ومن نسله بنو القاسم اصحاب البونت وبنو الجد اعيان اشبيلية. ثم عزل وكان ظلوماً في سيرته جائراً في حكومته، غزا ارض البشكنس فاوقع بهم.

ثم جاء عقبة بن الحجاج السلولي، ولاه عبيد الله بن الحجاب صاحب افريقية، الاندلس ودخلها سنة ١١٧ هـ فأقام بها سنين محمود السيرة مثابراً على الجهاد مفتتحاً البلاد حتى بلغ سكنى المسلمين اربونة «فأقام عقبة بالاندلس سنة احدى وعشرين ومائة وكان قد اتخذ بأقصى ثغر الاندلس الاعلى مدينة يقال لها اربونة قاعدة للجهاد والغزو وانه كان يخرج للغزو كل عام. وكان اذا اسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الاسلام ويبين له عيوب دينه فاسلم على يده الفا رجل وكانت ولايته خمس سنين وشهرين.

قال الرازي: فثار اهل الاندلس بعقبة فخلعوه في صفر سنة ثلاث وعشرين ومائة هـ في خلافة هشام بن عبد الملك وولوا على انفسهم عبد الملك بن قطن وهي ولايته الثانية.

بلج بن بشر القشيري:

لما بلغ هشام بن عبد الملك ما كان من امر الخوارج البربر بالمغرب الاقصى والاندلس وخلعهم لطاعته وعيشهم في الارض فعزل عبيد الله بن الحجاب عن افريقية واعتزم ان يخمد ثورة البربر بكافة الوسائل، فعيّن لولاية افريقية كلثوم بن عياض القشيري وسيّره اليها في جيش ضخم من

عرب الشام بقيادة ابن اخيه بلج بن بشر القشيري، واجتمعت اليه اثناء مسيره قوات اخرى من مصر وطرابلس حتى بلغ زهاء سبعين الف رجل.

وكان حبيب بن ابي عبيدة قد وقف بجيشه في منتصف الطريق متردد لما رآه من استفحال امر البربر، فاستوقفه كلثوم حتى يصل اليه. وكان حبيب وزعماء العرب في افريقية يتوجسون شراً من غلبة الشامين، فاستقبلو كلثوما وبلجا بفتور، وابدى بلج جفاء وخشونة في معاملة اهل القيروان وثارت بينه وبين حبيب مناقشات عاصفة وكاد الخلاف يضطرم بين الفريقين ويرتد العرب لقتال بعضهم بعضاً لولا ان غلبت الحكمة ازاء الخطر الداهم.

سارت القوات المتحدة لقتال البربر وسار البربر لقتالهم في طنجة في جموع زاخرة بقيادة خالد بن حميد الزناتي. ونشبت بين الفريقين على مقربة من طنجة في مكان يعرف بوادي سبسر معارك هائلة كان النصر فيها حليف البربر فقتل كلثوم وحبيب وكثير من الزعماء والقادة، وارتدت فلول العرب الى القيروان وفرّ بلج بن بشر ونفر من الزعماء منهم ثعلبة بن سلامة الجذامي وعبد الرحمن بن حبيب في بقية من جند الشام الى سبتة فامتنعوا بها واستغاثوا بوالي الاندلس عبد الملك بن قطن.

عندئذ سيّر هشام بن عبد الملك حنظلة بن صفوان الكلبي والي مصر والياً لافريقية وكان البربر قد ثاروا في جميع النواحي وخرج منهم في ناحية قابس زعيم يدعى عكاشة الفزاري وخرج في غرب القيروان زعيم آخر هو عبد الواحد بن يزيد الهواري، فحشد حنظلة كل قواته ولقي الفزاري اولا وهزمه بعد معركة عنيفة ومزّق جموعه.

ثم التقى بجيش عبد الواحد على مقربة من القيروان بمكان يعرف بالاصنام، ويقال ان جموع البربر بلغت يومئذ ثلاثمائة الف، وبلغ العرب اربعين الفاً فقط ونشب بين الفريقين قتال ثبت فيه العرب ومزق البربر وقتلت منهم جموع عظيمة وقتل عبد الواحد واسر الفزاري وقتل بامر حنظلة وكانت هذه الموقعة سنة ٧٤٢ م.

ولنرجع الى بلج بن بشر القشيري المحاصر في سبتة مع عمه كلثوم

ومن معهما من اهل الشام وانقطعت عنهم الاقوات وبلغوا من الجهد الى الغاية استغاثوا باخوانهم من عرب الاندلس، فتثاقل عنهم صاحب الاندلس عبد الملك بن قطن لخوفه على سلطانه منهم.

فلما شاع خبر ضرهم عند رجال العرب اشفقوا عليهم فاغاثهم زياد بن عمرو اللخمي بمركبين مشحونين ميرة امسكا من ارماقهم.

فلما بلغ ذلك عبد الملك بن قطن ضربه سبعمائة سوط ثم اتهمه بعد ذلك باثارة الجند عليه فسمل عينيه ثم ضرب عنقه وصلب عن يساره كلباً.

واتفق في هذا الوقت ان برابر الاندلس لما بلغهم ما كان من ظهور برابر العدوة على العرب انقضوا على عرب الاندلس واقتدوا بما فعله اخوانهم ونصبوا عليهم اماماً فكثر ايقاعهم بجيوش ابن قطن، واستفحل امرهم فخاف ابن قطن ان يلقى منهم ما لقي العرب ببر العدوة من البرابرة. وبلغه انه قد عزموا على قصده فلم ير اجدى من الاستعداد بصعاليك عرب الشام اصحاب بلج الموتورين. فكتب لبلج وقد مات عمه كلثوم في ذلك الوقت، فأسرعوا الى اجابته وكانت امنيتهم.

احسن اليهم واسبغ النعم عليهم وشرط عليهم ان يأخذ منهم رهائن، فاذا فرغوا له من البربر هزمهم الى افريقية وخرجوا له عن اندلسه فرضوا بذلك وعاهدوه عليه فقوّم عليهم وعلى جنده قطنا وامية، والبربر في جموع لا يحصيها غير رازقها. فاقتتلوا قتالاً صعب فيه المقام الى ان كانت الدائرة على البربر فقتلهم العرب باقطار الاندلس حتى الحقوا فلهم بالثغور وخفوا عن العيون، فكّر الشاميون وقد امتلأت ايديهم من الغنائم فاشتدت شوكتهم وثابت همتهم وبطروا ونسُوا العهود.

طالبهم ابن قطن بالخروج عن الاندلس الى افريقية فتعللوا عليه وذكروا صنيعه بهم ايام انحصارهم في سبتة وقتله الرجل الذي اغاثهم بالميرة، فخلعوه وقدّموا على انفسهم اميرهم بلج بن بشر القشيري وتبعه جند ابن قطن وحملوا عليه في قتل ابن قطن فأبى. فثارت اليمانية وقالوا: قد حميت لمضرك والله لا نطيعك.

فلما خاف تفرق الكلمة امر ابن قطن فاخرج اليهم وهو شيخ كبير

كفرخ نعامة فجعلوا يسبونه ويقولـون له: افلت من سيـوفنا يـوم الحرة وعرضتنا لاكل الكلاب والجلود في سبتة محبس الضنك حتى امتنا جوعاً.

فقتلوه وصلبوه بصحراء ربض قرطبة وصلبوا عن يمينه خنزيراً وعن يساره كلباً.

وكان ابناه قد طلبا الثأر، واجتمع عليهما العرب الاقدمون والبربر وصار معهم عبد الرحمن بن حبيب الفهري كبير الجند. وكان في اصحاب بلج، فلما صنع بابن عمه عبد الملك ما صنع فارقه فانحاز يطلب ثاره وانضم اليهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي صاحب اربونة وكان فارس الاندلس في وقته.

اقبلوا نحو بلج في ماية الف وازيد وبلج قد استعد لهم في مقدار اثني عشر الفاً سوى عبيد له كثيرة واتباع من البلديين، فاقتتلوا وصبر اهل الشام صبرا لم يصبر مثله احد قط.

وقال عبد الرحمن بن علقمة اللخمي: «اروني بلجا فوالله لاقتلنه او لا موتن دونه»

فاشاروا اليه نحوه فحمل باهل الثغر حملة انفرج لها الشاميون والراية بيده فضربه عبد الرحمن ضربتين مات منهما بعد ذلك بايام قلائل.

ثم ان البلديين انهزموا بعد ذلك هزيمة قبيحة واتبعهم الشاميـون يقتلون ويأسرون. فكان عسكراً منصوراً مقتولاً اميره.

وكان هلاك بلج في شوال سنة اربع وعشرين ومائة وكانت مدته احد عشر شهراً وسريره قرطبة. والعرب الداخلون معـه يعرفـون عند اهـل الاندلس بالشـاميين، والـذين كانـوا في الاندلس قبـل دخولـه يشهرون بالبلديين.

ولما هلك بلج قدّم الشاميون عليهم ثعلبة بن سلامة العاملي، وقد كان عندهم عهد الخليفة هشام بذلك فسار فيهم بأحسن سيرة، وحاول ان يضبط النظام والامن وابدى كثيـراً من اللين والاعتدال، ولكن سلطان الحكومة المركزية كان قد تضعضع.

انقسم الاندلس الى مناطق عديدة النفوذ، ولبثت الغلبة في الاقاليم الوسطى والشمالية لجماعة من الزعماء الخارجين على حكومة قرطبة، مثل امية وقطن ابني عبد الملك وعبد الرحمن بن حبيب الفهري وعبد الرحمن اللخمي حاكم اربونة واستمرّ يؤازر هذا الفريق سواد العرب البلديين والبربر. ولم تمض اشهر قلائل حتى اضطرمت الحرب مرة اخرى بين الفريقين المتنازعين ونشبت بينهما مواقع عديدة على مقربة من ماردة، فهزم الشاميون اولا واعتصم ثعلبة بقلعة ماردة، ولكنه عاد فكّر على خصومه وهزمهم هزيمة شنيعة واسر وسبى منهم جموعاً كبيرة. ولكنه قبل ان يتمكن من تنفيذ عزمه قدم الى قرطبة حاكم جديد. ابو الخطار حسام بن ضرار الكلبي من قبل حنظلة بن صفوان صاحب افريقية، والخليفة حينئذ الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، في رجب سنة ١٢٥ هـ بعد عشرة اشهر وليها ثعلبة بن سلامة، فقبض في الحال على زمام السلطة وافرج عن الاسرى والسبايا التي اعتزم ان يزهقها وينكل بها ثعلبة، وفرّق الشاميين في مختلف الكور تمزيقاً لعصبيتهم.

انزل جند الشام بالبيرة من اعمال غرناطة.

وجند حمص باشبيلية ولبلة

وجند فلسطين بشذونة والجزيرة

وجند الاردن بريّه

وجند قنسرين بجيان

وجند مصر بعضهم في اكشونبة وباجه والبعض في تدمير.

وتتبع ابو خطار الزعماء الخارجين قبض على ثعلبة ونفاه الى افريقية اما عبد الرحمن بن حبيب الفهري فقد فرّ خفية الى تونس وهناك اقام حيناً يرقب الحوادث حتى سنحت له فرصة الوثوب وانتزاع امارة افريقية من حنظلة بن صفوان.

وكان ابو الخطار في اول ولايته قد اظهر العدل فدانت له الاندلس الى ان مالت به العصبية اليمانية على المضرية فهاجت الفتنة العمياء.

وسبب هذه الفتنة ان أبا الخطار بلغ به التعصب لليمانية ان اختصم عنده رجل من قومه مع خصم له من كنانة كان ابلج حجة من ابن عم ابي الخطار فمال الخطار مع ابن عمه، فاقبل الكناني الى الصميل بن حاتم الكلابي احد سادات مصر وجدة شمر بن ذي الجوشن من اشراف الكوفة، وكان قد اشترك في قتل الحسين بن علي بن ابي طالب في كربلاء، ثم نزح بأسرته الى الشام خشية الانتقام فلما ولّى كلثوم بن عياض القشيري حكم افريقية كان الصميل بين اشراف الشام الذين انتظموا في جيش بلج القشيري ثم جازوا معه الى الاندلس، وكان الصميل فارساً وزعيماً ذا نجدة يلتف حوله المضرية وبعض اليمنية من خصوم ابي الخطار.

قلنا اقبل الكناني الى الصميل وشكا له حيف ابي الخطار، فدخل على ابي الخطار وامضّ عتابه فاغلظ له ابو الخطار فردّ الصميل عليه فأمر به ابو الخطار فاقيم ومالت عمامته.

فلما خرج قال له بعض من على الباب:

- ما بال عمامتك مائلة؟

- ان كان لي قوم فسيقومونها.

واقبل الى داره فاجتمع اليه قومه حين بلغهم ذلك ممتعضين فباتوا عنده.

فلما اظلم الليل قال: «ما رايكم في ما حدث عليّ فانه منوط بكم»؟ فقالوا: «اخبرنا بما تريد»

فقال: اريد اخراج هذا الاعرابي من هذا السلطان وانا خارج لذلك عن قرطبة فانه ما يمكنني ما اريد الا بالخروج من قرطبة، فالى اين تريدون اقصد.

فقالوا: اذهب حيث شئت ولا تأت أبا عطاء القيسي فانه لا يواليك على امر ينفعك.

وكان ابو عطاء هذا سيداً مطاعاً يسكن باستجه. واقام ابو عطاء على

نصرته، وعمد الى ثوابة بن يزيد الجذامي احد اشراف اليمن وساداتهم وكان ساكناً بمرور.

زحف الصميل بجموعه على قرطبة فلقيه ابو الخطار بقواته على ضفاف وادي لكة في رجب ١٢٧ هـ ونشبت بين الفريقين معارك شديدة انتهت بهزيمة ابي الخطار واسره.

دخل ثوابة بن سلامة الجاذمي قرطبة وارتضته المضرية اميراً للاندلس مكان ابي خطار، ووافق عبد الرحمن بن حبيب الفهري امير افريقية على هذا الاختيار.

واستطاع ابو الخطار ان يفرّ من سجنه فذهب الى باجه وحشد جموعه وقصد الى قرطبة ولقيه الصميل في المضرية وثوابة في انصاره من اليمنية ووقعت بينهما معركة غير حاسمة.

وعندئذ دعا بعض اليمنية من فريق ثوابة الى وقف القتال ونعى على انصار ابي الخطار انهم يقاتلون ثوابة مع انه يمني منهم وقد عفا عن ابي الخطار وعفّ عن دمه عندما كان في قبضته، فأحدثت هذه الدعوة اثرها وانفضّ عن ابي خطار جنده واضطرّ للعودة الى باجه وهناك لبث ينتظر الحوادث.

وتوفي ثوابة سنة ١٢٩ هـ ونشب الخلاف بين الزعماء والقبائل وأصرّ اليمنية على ان يكون الأمير منهم خلفاً لأميرهم المتوفي وأصرّ الصميل ان يكون الأمير من المضرية واشتدّ النزاع بين الفريقين، ولبثت الاندلس بضعة اشهر بدون وال.

وتولى الاحكام فيها عبد الرحمن بن كثير اللخمي باتفاق الفريقين.

ولما تفاقم الخلاف وخشي زعماء البلاد عاقبة الفتنة اتفقوا على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهري احد زعماء المضرية واستقلّ بولايتها زهاء عشرة اعوام وعلى عهده انتقلت الى عهد جديد كما سنرى فيوسف هذا هو ابن عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي فرّ الى تونس اتقاء لسطوة ابي الخطار.

فلما جاءت الاخبار الى افريقية بمقتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك رأى عبد الرحمن الفرصة سانحة للعمل فدعا انصاره وحشد جموعه لقتال حنظلة بن صفوان والي افريقية وخشي صفوان عاقبة الفتنة فانسحب مع اصحابه الى الشام دون قتال ودخل عبد الرحمن القيروان واعلن ولايته لافريقية وايدته المضرية.

ولما تولّى مروان بن محمد الجعدي الخلافة كاتبه عبد الرحمن وهاداه واظهر له الطاعة فأقرّه على ولايته، وغزا صقلية وسردينية ولما دالت دولة بني امية اعلن الطاعة لبني العباس كما رأينا ودعا لهم بافريقية ولكنه لم يلبث ان قتل غيلة سنة ٧٥٥ م. / ١٣٨ هـ

اما ابنه يوسف فقد فرّ منه مغضباً لأمور نقمها عليه، ودخل الاندلس يبحث وراء طالعه في حوادثها. وكان مثل ابيه فارساً هماماً وخطيباً مفوّهاً فلم يلبث ان ظهر بين اجناد المضرية وساداتهم، ولازم الصميل وصادقه حتى عظم نفوذه وانتهى بأن ظفر بامارة الاندلس في ربيع الثاني ١٢٩ هـ وهو يومئذ في السابعة والخمسين من عمره.

فلما علم ابو الخطار المعزول بتولية يوسف الفهري تحرّك للعمل وجمع جموعه وحشد انصاره وزحف على قرطبة.

التقى الفريقان في شقندة وكانت الوقعة بين اليمنية والمضرية قيل انه لم يك بالمشرق والمغرب حرب اصدق منها جلاداً ولا اصبر رجالاً طال صبر بعضهم على بعض الى ان فني السلاح وتجاذبوا بالشعور وتلاطموا بالأيدي وكلّ بعضهم عن بعض.

وثابت للصميل غرة في اليمنية في بعض الأيام فأمر بتحريك اهل الصناعات بأسواق قرطبة فخرجوا في نحو اربعمائة رجل من انجادهم بما حضرهم من السكاكين والعصي ليس فيهم حامل رمح ولا سيف الا قليلاً فرماهم على اليمنية وهم على غفلة وما فيهم من يبسط يداً لقتال ولا ينهض لدفاع فانهزمت اليمنية ووضع السيف فيهم فابادوا منهم خلقاً واختفى ابو الخطار تحت سرير رحى فقبض عليه وجيء به الى الصميل فضرب عنقه.

وللصميل هذا قصة مع ارطباس وهي ان الصميل قصده الى منزله

مع تسعة من رؤساء رجال الشاميين بينهم ابن الطفيل وابو عبدة فأجلسهم ارطباس على الكرسي وبالغ في تكريمهم.

ودخل على اثرهم ميمون العابد جد بني حزم، وكان في عداد الشاميين الا انه كان شديد الانقباض عنهم لزهده وروعه فلما ابصر به ارطباس قام اليه دونهم اعظاماً ورقاه الى كرسيه الذي كان يجلس عليه وكان ملبساً صفائح الذهب وجذبه ليجلسه مكانه فامتنع عليه ميمون وقعد على الارض فقعد ارطباس معه عليها واقبل عليه قبلهم فقال له:

«يا سيدي، ما الذي جاء بك الى مثلي؟

فقال له: «ما تسمعه، انّا قدمنا الى هذا البلد غزاة نحسب ان مقامنا فيه لا يطول فلم نستعد للمقام ولا كثرنا من العدة. ثم حدثت بعدنا على موالينا وفي اجنادنا ما قد انسينا معه من الرجوع الى اوطاننا وقد وسّع الله عليك، فأحب ان تدفع لي ضياعاً من ضياعك اعتمره بيدي وأودي اليك الحق منها وآخذ الفضل لي طيباً اتعيش منه».

فقال ارطباس: «لا ارضى لك بالمساهمة بل اهب لك هبة مسوغة».

ثم دعا بوكيل له فقال له: «سلّم اليه المجشر الذي لنا على وادي شوش بما لنا فيه من العبيد والدواب والبقر وغير ذلك وادفع اليه الضيعة التي بجيان».

فتسلّم ميمون الضيعتين وورّثها ولده، واليهم نسبت قلعة حزم.

فشكره ميمون واثنى عليه وقام عنه. وقد انف الصميل من قيامه اليه فأقبل عليه ارطباس وقال له: «كنت اظنك ارجح وزناً ادخل عليك وانا سيّد العرب بالاندلس في اصحابي هؤلاء وهم سادة الموالي فلا تزيدنا من الكرامة على الاقعاد على اعوادك هذه، ويدخل هذا الصعلوك فتصير من اكرامه الى حيث صرت؟»

فقال له: «يا ابا جوشن، ان اهل دينك يخبروننا ان ادبهم لم يرهفك ولو كان لم تنكر عليّ ما فعلته. انكم، اكرمكم الله، انما تكرّمون لدنياكم وسلطانكم وهذا انما اكرمته لله تعالى، فقد روينا عن المسيح عليه السلام

انه قال: «من اكرمه الله تعالى من عباده بالطاعة له وجبت كرامته على خلقه».

فكانما القمة حجر.

وكان الصميل أميّاً فلذلك عرّض به فقال له القوم: «دعنا من هذا، وانظر فيما قصدنا له، فحاجتنا حاجة الرجل الذي قصدك فأكرمته فانظر في شأننا».

فقال لهم: «انتم ملوك الناس وليس يرضيكم الا الكثير وها انا اهب لكم مائة ضيعة تقتسمونها عشرا عشرا».

وكتب لهم بها وامر وكلاءه بتسليمها اليهم، فكان القوم يرونها من اطيب املاكهم.

العصبية بين النزارية واليمنية

اما السبب في العصبية بين النزارية واليمنية وقد وصل اثرها الى الاندلس كما رأينا حتى ان معركة طاحنة جرت بسببها، معركة شقندة التي اشرنا اليها سابقاً فهو انه: لما قال الشاعر الكميت بن زيد الاسدي من اسد مضر بن نزار الهاشميات قدم البصرة فأتى الفرزدق فقال: «يا ابا فراس، انا ابن اخيك.

قال: ومن انت؟

فانتسب له فقال:

ـ صدقت، فما حاجتك؟

قال: نفث على لساني وانت شيخ مضر وشاعرها واحببت ان اعرض عليك ما قلت، فان كان حسناً امرتني باذاعته وان كان غير ذلك امرتني وسترته عليّ.

فقال: «يا ابن اخي، احسب شعرك على قدر عقلك فهات ما قلت راشداً».

فأنشده:

«طربت وما شوقاً الى البيض اطرب ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب

قال: بلى، فالعب. فقال:

«ولم يلهني دار ولا رسم منزل ولم تـطربني بنـان مخضب

قال: فما يطربك اذا؟ قال:

ولا انا مما يزجر الطير همه اصاح غراب او تعرض ثعلب

قال: فما انت ويحك والى من تسمو؟ قال:

«ولا السانحات البارحات عشية امرّ سليم القرن ام مرّ اعضب[1]

قال: اما هذا فقد احسنت فيه. فقال:

«واسكن الى اهل الفضائل والنهي وخير بني حواء والخير يطلب.

قال: من هم؟ ويحك. قال:

«الى النفر البيض الذين بحبهم الى الله فيـما نـابني اتقـرب

قال: ارحني ويحك، من هؤلاء؟ قال:

«بني هاشم رهط النبي فانني بهم ولهم ارضى مراراً واغضب»

قال: «لله درك يا بني، اصبت فأحسنت اذ عدلت عن الزعانف والاوباش اذ لا يصرد سهمك ولا يكذب قولك. ثم مرّ فيها فقال له: «اظهر ثم اظهر وكد الاعداء فانت والله اشعر من مضى واشعر من بقي.

وقدم المدينة فأتى أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم فاذن له ليلاً وانشده، فلما بلغ من الميمية قوله:

«وقتيل بالـطف غودر منهم بـين غـوغـاء امـه وطغـام

بكى ابو جعفر ثم قال: يا كميت لو كان عندنا مال لاعطيناك ولكن لك ما قال رسول الله لحسان بن ثابت: لا زلت مؤيداً بروح القدس.

١ ـ الاعضب، المكسور القرن من الغنم او نحوها.

فخرج من عنده فأتى الى عبد الله بن الحسن بن علي فأنشده.

فقال: يا ابا المستهل، ان لي ضيعة اعطيت فيها اربعة آلاف دينار وهذا كتابها، وقد اشهدت لك بذلك شهوداً.

وناوله اياه فقال: «بابي انت وامي، ان كنت اقول الشعر في غيركم اريد بذلك الدنيا والمال، ولا والله ما قلت فيكم الا لله وما كنت لآخذ على جعلته لله مالاً ولا ثمنا. «فألحّ عبد الله عليه وابى من اعفائه. فأخذ الكميت الكتاب ومضى فمكث اياماً. ثم جاء الى عبد الله فقال: بابي انت وامي، يا ابن رسول الله، ان لي حاجة. قال: «وما هي؟ «وكل حاجة لك مقضية»

قال: «كائنة ما كانت؟ قال: نعم. قال: هذا الكتاب تقبله وترجع الضيعة

ووضع الكتاب بين يديه، فقبله عبد الله.

ونهض عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب فأخذ ثوباً جلداً فدفعه الى اربعة من نزار واياد وانمار لبني نذار ونظم قصيدة اكثر فيها من تفضيلهم ويطنب في وصفهم وانهم افضل من قحطان فغضب بها بين اليمانية والنزارية وهي قصيدته التي اولها:

«الا حييت عنا يا مدينا　　　وهل ناس تقول مسلمينا

وتعرض باليمن فيما كان من امر الحبشة وغيرهم فيها وهو قوله:

«لنا قمر السماء وكل نجم　　　تشير اليه ايدي المهتدينا
وجدت الله اذ سمّى نزارا　　　واسكنهم بمكة قاطنينا
لنا جعل المكارم خالصات　　　وللناس القفا ولنا الجبينا
وما ضربت هجائن من نزار　　　فوالخ من فحول الاعجمينا
وما حملوا الحمير على عتاق　　　مطهرة فيلفوا مبلغينا
وما وجدت بنات بني نزار　　　حلائل اسودين واحمرينا

وقد نقض دعبل بن علي الخزاعي هذه القصيدة على الكميت وغيرها

وذكر مناقب اليمن وفضائلها من ملوكها وغيرها وصرح وعرّض بغيرهم كما فعل الكميت وذلك في قصيدته التي اولها:

«افيقي من ملامك يا ظعينا كفاك اللوم مرّ الاربعينا
الم تحزنك احداث الليالي يشيبن الذوائب والقرونا
احبي الغر من سروات قومي لقد حييت عنا يا مدينا
فان يك آل اسرائيل منكم وكنتم بالاعاجم فاخرينا
فلا تنس الخنازير اللواتي مسخن مع القرود الخاسئينا
بايلة والخليج لهم رسوم وآثار قدامى وما محينا
وما طلب الكميت طلاب وتر ولكنا لنصرتنا هجينا

وهي طويلة ونمى قول الكميت في النزارية واليمنية وافتخرت نزار على اليمن وافتخرت اليمن على نزار، وادلى كل فريق بما له من المناقب، وتحزّبت الناس، وثارت العصبية في البدو والحضر فنتج بذلك امر مروان بن محمد الجعدي وتعصّبه لقومه من نزار على اليمن وانحرف اليمن عنه الى الدعوة العابسية وتغلغل الأمر الى انتقال الدولة عن بني امية الى بني هاشم، ثم ما تلى ذلك من قصة معن بن زائدة باليمن وقتله اهلها تعصباً لقومه من ربيعة وغيرها من نزار وقطعه الحلف الذي كان بين اليمن وربيعة في القدم، وفعل عقبة بن سالم بعمان والبحرين وقتله عبد القيس وغيرهم من ربيعة كياداً لمعن وتعصباً من عقبة بن سالم لقومه من قحطان.

وانتقلت هذه العصبية الى الأندلس ووقعت لأجلها حروب ونشبت معارك طاحنة كما رأينا. تلك كانت الحال في شبه الجزيرة لما قرّر عبد الرحمن بن معاوية ارسال مولاه بدر ليجس النبض.

ولما شاهد بدر البحر الأبيض المتوسط في تلك النقطة التي يختلط بها مع بحر الظلمات خفق قلبه وقابل بين منظر هذا البحر في فلسطين ومصر ومنظره في اطراف افريقية، فلم يلحظ فرقاً شاسعاً، المياه زرقاء هنا مثلما هي زرقاء هناك وقد تكون المياه في مصر وفلسطين اشدّ زروقة من المياه المختلطة مع بحر الظلمات او المحيط الاطلسي.

دنا من سفينة كثر الصعود اليها والهبوط منها فسأل عنها فقيل له:

هذه السفينة التي تقطع المسافة بين بري العدوة اي من سبتة الى الجزيرة الخضراء.

وبحث عن ربان السفينة فأرشدوه الى رجل لوحته الشمس مكشوف الصدر، فحيّاه وسأله قائلاً: هل لك في نقلي الى الجزيرة الخضراء مع فرسي طبعاً؟

ـ على شرط ان تكون طيّعة.

ـ انها كالحمل الوديع كما سترى.

ـ وتأمّل صاحب السفينة في مخاطبه وفرسه ورضي لقاء دينار.

ـ متى تقلع السفينة؟

ـ قبل الظهيرة بقليل ونصل بعد ثلاث ساعات.

وظل بدر قابضاً على عنان فرسه طيلة الرحلة.

وسايرتهم الريح فمخرت السفينة عباب اليم حاملة رسول عبد الرحمن بن معاوية الى الأندلس، دون ان يدري الربان انها رحلة تاريخية من اروع الرحلات التي حققها حتى الآن بين برّ العدوتين، انها السبب الأول في ادخال تغيير جوهري على تاريخ الأندلس.

ولم يهتمّ بدر قدر اهتمامه بتدبير الخطة في الوصول الى زعيم الشيعة الأموية في الأندلس، ابي عثمان عبيد الله بن عثمان، وموالي المروانية في شبه الجزيرة آنذاك وتصل الى خمسمائة رجل لهم جمرة. وكانت رئاستهم الى شخصين هما ابو عثمان المذكور وعبد الله بن خالد وهما من موالي عثمان بن عفان، وكانا يتوليان لواء بني امية ورئاسة جند الشام النازلين بكورة البيرة اي غرناطة الحالية.

وبين دقيقة ودقيقة يتحسس الكتاب في صدره، كتاب عبد الرحمن الى زعيمي الشيعة الأموية، وقد قرأه مراراً عديدة بحضور عبد الرحمن حتى حفظه عن ظهر قلبه مخافة ان يضيع فيكون واقفاً على فحواه. يذكر فيه عبد الرحمن ايادي سلفه من بني امية ويصف لهم فيه ما أصابه من كوارث

وقوارع الخطوب، وانه، اي عبد الرحمن انما يريد الاعتزاز بهم وان يمنعوه ووعدهم باعلاء الدرجة وحسن المنزلة، ويشير عليهم بالاستفادة من الشقاق والاحنة بين اليمنية والمضرية.

كل افكار بدر موجهة نحو هذه الغاية فلم يخاطب احداً طيلة الرحلة التي تبلغ مسافتها ثمانية عشر ميلاً بين الجزيرة الخضراء وبين سبتة.

ولاحت المدينة واضحة المعالم وهي متحضرة لها سور حجارة مفرغ بالجيار ولها ثلاثة ابواب ودار صناعة داخل المدينة، ويشقها نهر يسمى نهر العسل وهو حلو عذب ومنه يشرب اهل المدينة، ولهم على هذا النهر بساتين وجنات بكلتي ضفتيه.

امام المدينة جزيرة تعرف بجزيرة «ام حكيم» وبها امر عجيب وهو ان فيها بئراً عميقة كثيرة الماء حلوة، والجزيرة في ذاتها صغيرة مستوية السطح يكاد البحر يركبها.

والجزيرة الخضراء اول مدينة افتتحت من الأندلس وذلك سنة ٩٠ هـ وافتتحها طارق بن زياد وبها على باب البحر مسجد يسمى مسجد الرايات، ويقال ان هناك اجتمعت رايات القوم للرأي.

وبين جبل طارق والجزيرة الخضراء ستة اميال، وهو جبل منقطع عن الجبال مستدير في اسفله من جهة البحر كهوف، وفيها مياه قاطرة جارية، وبمقربة منه مرسى يعرف بمرسى الشجرة، ومن الجزيرة الخضراء الى مدينة اشبيلية مسيرة خمسة ايام.

وكان على بدر ان يقطع مسافات طويلة قبل ان يصل الى غرناطة ماراً بمالقة واستيجه ورندة وشريش ووادي اش فيتوقف عند كل قرية او منعرج يؤدّي الى قرية او بلد، فيقضي يوماً او ليلة هناك يحادث الناس ويسمر معهم ويصيب من طعامهم ويصلي في الجامع، فاذا هبط الليل صلّى المغرب والعشاء في حيث ينتهي به المسير ثم يقصد فندق البلد ويحط رحاله ثم يريح جنبه على الفراش الى الصباح.

وهذا بالفعل ما صنعه بدر.

ويصل في سيره الى رندة التي خرج منها ابو البقاء الرندي، وهي بلدة عجيبة تقع على قمة جبل منازلها معلقة على حافة الهاوية فكانما بنيت لتكون حصناً.

وكان عليه ان يمرّ بانطاكيرة وارشدونة ولوشة، والى جنوبها الشرقي على شاطىء البحر، مالقة ومنها اخذ الساحل متجهاً صوب المرية ومر بالمنكب البلدة الصغيرة التي دخلت في التاريخ كما سنرى.

ثم واصل سفره الى شلوبينية ذات المنظر العجيب، بساط من الخضرة الزاهية في وسطه جبل وعلى قمة الجبل سفحه تقوم البليدة بيضاء ناصعة تتوجها السقوف الحمراء.

واستدلّ بدر الى منزل عبد الله وارشدوه اليه في «طرش» فطلب مواجهته على حدة وصودف وجود صهره عبد الله بن خالد عنده.

ـ هل لنا في اجتماع على خلوة؟

فحار عبيد الله وتساءل عن مقصد هذا الرجل والغرض الذي جاء لأجله فقال:

ـ هذا صهري ولا اكتم عنه سراً.

فبادرهما بدر قائلاً: ما رأيكما في رجل من اهل الخلافة يطلب الدولكة بكم فيقيم اودكم ويدرككم آمالكم؟

فازدادت دهشة عبيد الله وصهره، فالأمر خطير اكثر مما توقعها للوهلة الأولى وظنا ان الرجل غير مجدّ في ما يقول، وترددا في تصديق هذا الكلام الخطير الذي يتفوّه به هذا الزائر القادم من بلاد بعيدة.

ـ ومن لنا به في هذه الديار؟

ـ ما ادناه منكم وانا الكفيل لكم به.

فازدادت الدهشة والحيرة، فهذا الرجل الذي طلب مقابلتهما يتكلم بالألغاز وهذا ما يزيد في تشويقهما الى نهاية القضية.

وسأله عبيد الله: ومن هو؟

وتردّد بدر في ذكر اسم الرجل واخيراً قال:

ـ انه عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبد الملك، وهو في برّ العدوة في سبتة وقد وجهني اليكم انا خادمه بدر بكتاب.

واخرج الكتاب من صدره وسلمه لعبيد الله، وهذا بدوره اخذه من بدر ودفعه الى صهره خالد، ففضه وقرأه عليه على مسمع ومرأى من بدر.

وحدق الواحد في الآخر بذهول وخيّم صمت على المجلس، خرقه عبيد الله قائلاً:

ـ فجيء به اهلاً، انا سراع الى طاعته.

فانبرى خالد قائلاً: لا بدّ من أخذ رأي الجماعة، فمن الأفضل عقد اجتماع سرّي يحضره وجوه الشيعة الأموية للمداولة في الموضوع.

وهكذا جرى، استدعي وجوه واعيان الشيعة الأموية في الأندلس، وعقد الاجتماع وتكلّم من شاء الكلام وأبدي رأيه كل من احب ابداء الرأي في مسألة خطيرة مثل هذه تتناول مصير دولة.

واجمع الرأي على مساعدة عبد الرحمن بن معاوية للوصول الى غرضه وهذا الاجماع في الرأي لا يخلو من التأثر بدافع المصلحة، لأنه اذا عاد السلطان الى الامويين واصبحت مناصب الدولة وقفاً عليهم فانهم سيشركون معهم فيها الموالي.

وقال عبيد الله: لنعمل المنطق ولنترك جانباً العاطفة والمصلحة ايضاً فالمسألة خطيرة اكثر مما تتصورون. لنعمل العقل: هل بمقدورنا وحدنا ايصال عبد الرحمن بن معاوية الى سدة قرطبة؟ هل نقوى على مقاتلة جميع القوى التي ولا شك تتجمع ضدنا عندما يدركون نوايانا ومقاصدنا؟ اليس من صواب الرأي ان نجمع حولنا الأنصار والمؤيدين المتذمرين من الحكم الحالي او الاعداء الطبيعيين لمن يتربعون على سدة الحكم. اليس من الرأي الصائب استشارة الصميل وانتم تعلمون وانا اعلم انه في الوقت الحاضر ناقم على يوسف الفهري حاكم الأندلس لتقاعده عن نصرته في فك الحصار

عن سرقسطة مكان ولاية الصميل. وانتم تعلمون ان بيني وبين الصميل صداقة قديمة، ولا اظنه يتهاون عن نصرتنا.

فقال عبد الله بن خالد صهره: الا تخشى اذا فاتحته بالأمر ان يفشي سرّنا للفهري؟

ـ اني واثق تمام الثقة من الصميل فانه مهما كان الأمر، سواء رضي عن مشروعنا او انكره فانه لا يظهر على سرّنا احداً لمروءته وانفته.

وكان بدر في هذه الاثناء يصغي الى اقوال الجميع دون ان يفوه بكلمة، واخيراً اخرج لسانه للنطق فقال:

ـ بماذا اجيب مولاي عبد الرحمن.

فقال عبيد الله: لا بد من التريث بعض الوقت في ارسال الجواب، علينا ان نشاور الصميل، لأننا اذا ربحنا الصميل اصبح نجاحنا مضموناً.

والصميل، في ذلك الحين كان بطليطلة بعد ان شبّت ثورة في سرقسطة يقودها عامر بن عمرو ابن وهب العبدري، وهذا عظيم الجاه وكثير الاتباع يتزعم مضر. وكان صديقاً ليوسف الفهري قبل ان يظفر هذا الاخير بالامارة، يتولى مثله قيادة الجيش. فلما ولي يوسف نزعها منه. ونقم على يوسف والصميل مثلما نقم عليهما باقي الزعماء لاستئثارهما بالسلطة. كاتب الخليفة العباسي ابا جعفر المنصور وعرض عليه ان يدعو له بالأندلس وان يحكمها باسمه اذا بعث اليه بمرسوم امارتها.. ويتودّد من ناحية اخرى الى اليمنية وينعي على يوسف والصميل اسرافهما في سفك دمائهم يوم شقندة، كما رأينا، فالتفّت حوله اليمنية والمضرية...

ولما همّ يوسف بمطاردته والقبض عليه فرّ الى سرقسطة في كثير من اتباعه.

وكان زعيمان آخران هما الحباب بن رواحة الزهري من بني كلاب وتميم بن معبد الفهري قد رفعا لواء الثورة في سرقسطة، فتفاهم معهما عامر بن عمرو العبدري واجتمع اليه جيش كبير من اليمنية والمضرية والبربر.

زحف عامر والحباب الزهري على سرقسطة حيث كان الصميل عاملاً

وضيّقوا عليه الحصار، فاستغاث بحليفه يوسف ولكن يوسف الفهري لم يستطع او لم يرد اغاثته بغية القضاء على سلطانه. فاضطرّ الصميل ان يلقي خصومه في انصاره واتباعه. ونشبت بين الفريقين معارك عديدة انتهت بهزيمة الصميل وانسحابه من سرقسطة مع البقية الباقية من انصاره، فدخلها عامر وحليفاه واستولوا عليها سنة ٧٥٣، ودعا عامر لنفسه بولاية الاندلس بمرسوم زعم انه تلقاه من ابي جعفر المنصور، وفلت الشمال كله من قبضة يوسف الفهري.. فندم على تقاعده عن نصرة الصميل ولكن الندم لا ينفع.

لنعد الى طليطلة التي اسند اليه يوسف ولايتها تعويضاً له عن خسارته سرقسطة. وبما انه جاء ذكر طليطلة فهي في منحنى عنيف من النهر فكأنها شبه جزيرة لا تتصل بالارض الا من ناحية واحدة. وشبه الجزيرة هذا مجموعة من التلال تسهل حمايتها واقامة القلاع عليها، واتخذها القوط عاصمة لهم وهذه البلدة هي من اعظم بلاد الأندلس مركزها في وسط شبه الجزيرة الابرية وان كانت اميل الى الجنوب منها الى الشمال. وأصل بنائها متوغل في القدم، وقد ورد ذكرها في كتاب المؤرخ الروماني «تيتوس ليفيوس» ويسميها «طوليتوم»، ويذكر انها بلدة صغيرة ولكنها جميلة.

ولما وقع الانشقاق الديني عند النصارى فانقسموا قسمين قسم يقول بالوهية المسيح وهم الكاثوليك، والقسم الآخر وهم الآريوسيون الذين يخالفونهم فجرت مجادلات دينية ومجامع متعددة لفصل الخلاف وكان لكل من الحزبين قوة هي كفوء للقوة الاخرى.

فتح طارق بن زياد طليطلة ٧١١/٩٢ ولم يطل مقامه فيها بل مضى في اتجاه شمالي شرقي حتى وصل الى قلعة النهر ثم عاد الى طليطلة مع حلول الشتاء لينتظر موسى بن نصير.

والاعتقاد السائد هو ان طارقاً أنشأ مسجد طليطلة خلال هذه الشهور التي قضاها في انتظار موسى بن نصير الذي اقبل الى الأندلس في الصيف التالي.

وغنم العرب من طليطلة مغانم كثيرة ولكنهم لم يتخذوها حاضرة لهم

مثل القوط لأنهم وجدوها متوسطة بالنسبة الى اسبانيا ولم يشاءوا الابتعاد كثيراً عن افريقية، فجعلوا الامارة في اشبيلية اولاً ثم في قرطبة واصبحت هذه الأخيرة العاصمة مدة قرون طويلة حتى سقطت في أيدي النصارى في منتصف القرن الثالث عشر.

وكان لطليطلة شأن عظيم عند العرب فهي المعقل الحصين لهم في وجه النصارى، ويسمونها الثغر الادنى بينها سرقسطة التي جئنا على ذكرها ايضاً تسمى الثغر الاعلى، وقد ضايقتهم كثيراً بسبب الثورات التي كانت تنشب بها من حين الى آخر.

كانت العاصمة الدينية والمدنية للقوط وانعقد فيها ستة عشر مجمعاً اقليمياً وطنياً، وآخر مجمع عقد في سنة ٦٣٣ برئاسة القديس ازيدورو مطران اشبيلية.

والآريوسية مذهب يرجع الى قسيس شهير اسمه اريوس ولد في عرقا سنة ٢٨٠ م وتوفي سنة ٣٣٦، ويقول ان المسيح لم يكن ابن الله فعلاً وانما كان ابنه اسماً.

مات آريوس ولم تمت عقيدته وانقسم بسببها الرومانيون الى قسمين قسم يؤيدها وقسم يحاربها حتى اضمحلت في المملكة الرومانية غير انها عادت الى الظهور بين البرابرة الذين جاءوا من الشمال مثل القوط. وآثر العرب عليها قرطبة كما اشرنا، اذ جعلوها عاصمتهم فصارت طليطلة كلما وجدت الفرصة مناسبة تشق عصا الطاعة على قرطبة.

ويقال ان الرومان لما دخلوها وجدوا فيها صناعة السيوف زاهرة وظلت كذلك على ايام العرب، انما هؤلاء زادوها اتقاناً بما كان لأهل دمشق من رسوخ القدم في هذه الصنعة، وبقيت طليطلة تصنع السيوف طيلة وجود العرب فيها اي حتى عام ١٠٨٥ لما سلّمت الى الملك الفونسه السادس، وظلت هذه الصناعة مزدهرة فيها حتى ايامنا هذه، ولم تقتصر صناعتها على السيوف بل تعدتها الى صناعة السروج وعدة الخيل والمهاميز وزرد الدروع وصناعة الخزف.

وكانت مركزاً لصناعة نسج الحرير والصوف والمخمل والاطلس

بجميع انواعها وقد وصل عدد الناسجين فيها الى خمسين الفاً.

واشتهرت طليطلة أيضاً في ذلك العهد بصنع الخبز، فكانت تصنع نوعاً من الأقراص بالسمن والسكر واللوز ولم يكن احد يباريهم فيها، ويسمى هذا النوع من الحلوى «المسابان» او «المرسبان» كما نسميه في الشرق العربي.

وما زالت هذه الصناعات موجودة حتى الآن في مدينة طليطلة التي تبعد عن العاصمة الاسبانية زهاء سبعين كيلومتراً، وما زالت تحتفظ بالاسم التقليدي لهذه الصناعة اي «داماسينو» «الدمشقي».

ويقول عنها الجغرافيون العرب انها مدينة عظيمة القطر كثيرة البشر حصينة الذات لها اسوار حسنة فيها حصانة ومنعة، وقليلاً ما روئي مثلها اتقاناً وشماخة بنيان، وهي عالية الذرى حسنة البقعة زاكية الرقعة وهي على ضفة نهر كبير اسمه «تاجه»، لها قنطرة من عجيب البنيان وهي قوس واحدة والماء يدخل تحت تلك القوس كله بعنف وشدة جري، ومع آخر القنطرة ناعورة ارتفاعها في الجو ٩٠ ذراعاً وهي تصعد الماء الى اعلى القنطرة، والماء يجري على ظهرها فيدخل المدينة.

ووجد المسلمون فيها عند فتحها ذخائر كادت تفوق الوصف كثرة، فمنها انه وجد بها ١٧٠ تاجاً من الذهب مرصّعة بالدرّ وبأصناف الحجارة الكريمة ووجد فيها الف سيف مجوهر ملكس ووجد بها من الدر والياقوت اكيال ووجد بها من انواع آنية الذهب والفضة ما لا يحيط به تحصيل، ووجد بها مائدة سليمان بن داود وكانت في ما يذكر من زمردة وهذه المائدة اليوم في مدينة روما، كما يقول المؤرخ و العرب الاقدمون.

ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها وانهار جارية ودواليب دائرة وجنات يانعة وفواكه عديمة المثال ولها من جميع جهاتها قلاع منيعة وعلى بعد منها في جهة الشمال الجبل العظيم المتصل المعروف بالشارات، وهو يأخذ من ظهر «مدينة سالم» الى ان يأتي قرب مدينة «قلمرية» في آخر المغرب، وفي هذا الجهل من الغنم والبقر الشيء الكثير الذي يتجهز به الجلابون الى سائر

البلاد، ولا يوجد شيء من اغنامه وابقاره مهزولاً بل هي في نهاية السمن ويضرب بها في ذلك المثل في جميع اقطار الاندلس».

نرجع الى حديثنا السابق:

توجّه عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد وصحبهما بدر لمخاطبة الصميل بالامر. خلوا به وكاشفوه بأمر عبد الرحمن بن معاوية واطلعوه على الكتاب الذي حمله بدر وقالوا له:

- لا نقوم على رضى ولا سخط الا برأيك فان ترض امراً رضيناه وان تسخط سخطناه».

وادرك صميل خطورة الامر فقال لهم: «دعوني اروي النظر.

وجمعوا بينه وبين بدر فأعطاه عشرة دنانير وشقة خز ولكنه لم يعده بشيء.

قفل الصميل الى قرطبة فوجد يوسف الفهري يجهّز جيشاً لمقاتلة الثائرين في سرقسطة، اي عامر والحباب الزهري، فالآن لم يعد من سبيل للتردد في مقاتلة هذين الثائرين، ولو انه تدارك الامر منذ البدء لما اصابته وجعة الرأس هذه فان دولته مهددة بالخطر الآتي اليه من الشمال.

وكان من الطبيعي ان يستدعي يوسف الفهري الزعيمين الأمويين أي أبا عثمان وعبدالله بن خالد فعدد من يلوذ بهما يقارب الخمسمائة رجل.

قدما عليه الى قرطبة طالباً نجدتهما ومشاركتهما في قتال الثائرين في الثغر الاعلى سرقسطة. فقال له عبدالله: «ليس في القوم نهضة ولا قوة على الخروج، وكل من كان فيه منهض قد نهض الى ابي جوشن (الصميل) فتقطعوا واهلكهم الله بالشتاء والسفر الطويل مع ما نال الناس من الجهد.

فلما سمع يوسف الفهري كلامه اخرج له الف دينار وقال لهما:

- قوياهم بهذه.

- هم خمسمائة مدوّن واين تبلغ هذه منهم؟

وامسكا عن اخذها لقلتها.

ثم خرجا من حضرة يوسف واعملا الفكرة واجالا الرأي ورأيا ان قبول هذا المبلغ من المال يعينهما فيما يبغيان بشأن عبد الرحمن بن معاوية، وان في وسعهما ان يختلقا الاعذار ليخلصا رجالهما من النهوض مع يوسف الفهري.

وعادا اليه واخبراه عن عزمهما في اخذ المال. فسلمه لهما وحملا الدنانير.

ثم عادا الى كورة «ريه وفرّقا جزءاً من المال على الامويين تقوية لهم واستئلافاً بهم.

وكان يوسف الفهري قد بلغ جيان وهي مدينة كثيرة الخصب كثيرة اللحوم والعسل ولها زائد على ثلاثة آلاف قرية كلها يربى بها دود الحرير، وهي مدينة كثيرة العيون الجارية تحت سورها ولها قصبة من امنع القصبات واحصنها يرتقي اليها على طريق مثل مدرج النمل، وبمدينة جيان بساتين وجنات ومزارع وغلات القمح والشعير وسائر الحبوب وبها مسجد جامع وجلة وعلماء.

فأقبل اليه ابو عثمان وعبدالله بن خالد وهو نازل على مخاضة الفتح ينتظر وصول الناس اليه.

دخل عليه ابو عثمان فقال له يوسف: «يا عبيد الله، اين موالينا؟

فقال: اصلح الله الامير مواليك ليسوا كغيرهم لا مقام لهم عنك وانما سألوني انتظارهم حتى يبلغ الأمير طليطلة ثم يلحقونه بها لعلهم ان يتناولوا شيئاً من جديد شعيرهم.

وكان ذلك العام عام خلف
فصدّقه يوسف الفهري ولم يتهمه فقال له:

- ارجع اليهم وليكن منك عليهم ضاغط.

وودعا يوسف وعادا ليودعا الصميل.

وكان الصميل لادمانه الخمرة لا يكاد يبيت الا سكران، فالفياه راقداً

ولم يستيقظ من نومه الا بعد ان تحرك الجيش ومضى الناس ولم يبق غيره وغير حشمه. فلما خرج وكانا ينتظرانه، تقدما منه. فقال لهما: ما بالكما؟ وما يرجعكما؟

فقال عبيد الله: اجتمعنا بيوسف ووعدناه اننا نلتحق به وننضم الى جنده مع رجالنا في طليطلة للخروج لمقاتلة الثوار في سرقسطة بالثغر الاعلى.

فاستحسن ذلك.

وبعد ان سارا معه حيناً دنوا منه وقالا له:

ـ اخلنا بنفسك

فنحى اصحابه، فقالا له:

ـ نريد رأيك في الذي كنا شاورناك فيه من امر ابن معاوية، فان الرسول لم يبرح.

فقال لهم: اما انا فما اغفلت ذلك ولقد رويت فيه استخرت الله وكتمت الامر فما شاورت فيه قريباً ولا بعيداً وفاء بما جعلته لكما من ستره وقد رأيت انه جواره وان يحسن له ويتخلى له عن هذا الامر ويزوجه بابنته ام موسى التي ترملت من زوجها قطن بن عبد الملك، على ان يكون واحداً منا فان فعل قبلنا منه وعرفنا حقه ومنته وان كره هان علينا ان نقرع صلعته بسيوفنا.»

فشكراه وقبلا يده ثم ودعاه، واقام بطليطلة وقد ولاه يوسف عليها وعزله عن الثغر.

ولكن الصميل لما خلا بنفسه ادرك خطأه وتسرعه لأنه لو تم الامر لعبد الرحمن بن معاوية لاستأثر بالسلطة وفي ذلك وبال على الصميل وعلى غيره من رؤساء القبائل. فأرسل احد اتباعه للحاق بهما وردهما.

يقول ابو عثمان:

«وسرنا عنه ساعة نحواً من ميل منصرفين فرحين لا نرى الا ان الامر قد تم لنا، فاذا نحن بصائح خلفنا ينادي: «يا ابا عثمان، فنظرنا

فاذا وصيف له على فرس فوقفنا فقال لنا: «يقول ابو جوشن (الصميل) اقيما حتى آتيكما.»

فاعظمنا اتيانه بنفسه لنكون نحن اولى باتيانه، ووالله ما نأمنه.

ثم توكلنا على الله فسرنا فاذا هو قد اقبل على الكوكب بغله الابيض وهو يجنح به.

فلما رأيناه وحده امنا وعلمنا انه لو اراد مكروهاً ردّ معه اعواناً.

فنادانا فدنونا منه فقال لنا:

ـ انني منذ اتيتموني برسول ابن معاوية وكتابه لم ازل في ادارة فاستحسنت ما دعوتما اليه، ثم كان مني اليكما ما كان. فلما فارقتكما رويت فيه فوجدته من قوم لو بال احدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وانتم في بوله. وهذا رجل نتحكم عليه ونميل على جوانبه ولا يسعنا بدل منه، ووالله لو بلغتما بيوتكما ثم بدا لي فيما فارقتكما عليه لرأيت ان لا اقصر حتى القاكما لئلا اعركما من نفسي، فاني اعلمكما ان اول سيف يسل عليه سيفي فبارك الله لكما في رأيكما ومولاكما.

فقالا له: اصلحك الله، ما لنا رأي الا رأيك، ولا مذهب لنا عنك.

فقال: لا تفعلا فوالله ما يسعكما الا النظر له فان الحب غير السلطان، فله عندي ان يؤاسيه يوسف الفهري ويزوّجه ويحبوه. انطلقا راشدين.

ثم انصرف عنا فانقطع رجاؤنا من مضر وربيعة بأسرها، ورجع رأينا الى اليمنية وادخالهم في رأينا، ففعلنا ذلك من فورنا ولم نمر بيمنى له بال وثقنا به الا عرضنا عليه امر ابن معاوية ودعوناه اليه. واخذنا في تهييج احقاد اهل اليمن على مضر فوجدناهم قوماً وغرت صدورهم عليهم يتمنون شيئاً يجدون به سبيلاً الى ادراك ثارهم.

واغتنمنا بعد يوسف صاحب الأندلس في الثغر الأعلى، وغيبة

الصميل في طليطلة، فابتعنا مركباً ووجهنا فيه احد عشر رجلاً مع بدر رسول عبد الرحمن وفيها تمام بن علقمة.

وكان عبد الرحمن قد وجّه خاتمه الى مواليه فكتبوا تحت ختمه الى من يرجونه في طلب الامر فبثوا من ذلك في الجهات ما دبّ به امرهم.

ولنترك المركب في سيره يقطع بحر الزقاق للوصول الى مليلية، وننتقل الى الامير عبد الرحمن المتشوق الى اخبار بدر ولم تأته عن مسرة او عن حزن، لأن المفاوضات استغرقت وقتاً طويلاً، والمسافات بعيدة.

كان عبد الرحمن موزّع النفس بين اليأس والرجاء. وخرج الى الشاطىء ينشد العزاء ويلتمس الهدوء ويقلب الطرف في امواجه الهدارة. ثم آوى الى ناحية مهجورة بشط مغيلة من بلاد البربر وهو يصلي ولم يكن راض عن هذه الحياة الهادئة البعيدة عن العمران وعن صخب المجتمع، ثم انه لا يثق كثيراً بالبربر وان وثق كل الثقة ببدر فهو منهم ولكنه يختلف عنهم فقد خبزه وعجنه فوجده يسمو عليهم في جميع النواحي.

قد تكون هذه المخاوف في غير محلها ولكنها راودته وتراوده ولا يقوى على التخلص منها، وخشي ان يكون اصاب بدرا مكروه فاشتدّ قلقه عليه وعلى ذاته.

وفي ذات يوم بينما كان يسير على الشاطىء متأملاً في حاله حانت منه التفاتة الى ناحية البحر فأبصر مركباً يشقّ الأمواج ويدنو من الساحل، واذا برجل يقفز الى الماء ويسبح الى الشاطىء، واذا بهذا الرجل مولاه بدر، فسّر به كل السرور ولا سيما لما بشره بتمكن الامر.

ثم خرج تمام بن علقمة مكثراً التبشير فقال له عبد الرحمن: ما اسمك؟

قال: تمام

قال: وما كنيتك

قال: ابو غالب

فاستبشر عبد الرحمن بن معاوية بالنصر قائلاً: الله اكبر، الآن تمّ امرنا وغلبنا بحول الله تعالى وقوته.

ثم خاطب ابا غالب قائلاً: انك تكون حاجبي وقائد جيوشي.

٦ ولما همّ عبد الرحمن بالدخول الى المركب عرضت له مشكلة خطيرة لم تكن في الحسبان، وهي ان البربر تجمعوا حوله ومنعوه عن الوصول الى المركب ما لم يدفع فدية. ومن اين له المال ليدفع الفدية؟ ولكن لحسن الحظ كان عبيد الله قد سلم بدرا خمسمائة دينار للنفقة، وهي قسم من الاموال التي دفعها له يوسف الفهري حتى ينفقها عبيد الله على رجاله وينشطهم بها. فانفق ابو عثمان النصف وسلم النصف الآخر لبدر لفدية البربر.

يا لظلم القدر، هذا المال الذي دفعه يوسف الفهري ليكون له عوناً ضد الثوار الذين شقوا عصا الطاعة في سرقسطة ولينفق على ما فيه نفعه فانه سيكون المال هذا بالذات السبب في القضاء عليه.

لا نستبق الاحداث.

اخذ تمام يوزع المال بين ألبربر كل واحد على قدره، فلم يبق احد حتى ارضاه.

وتنفس عبد الرحمن الصعداء وصار في داخل المركب، واقبل عات منهم لم يكن اخذ شيئاً فطالب بنصيبه وهدد وتوعد وقرن قوله بالعمل فانه تعلق بحبل الهودج يعقل المركب، فضربه رجل اسمه شاكر بالسيف قطع يده. واعانتهم الريح على التوجه بمركبهم حتى حلوا بساحل البيرة في جهة المنكب وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٨.

والمنكب هذه مدينة حسنة متوسطة كثيرة مصايد السمك وبها فواكه جمة وفي وسطها بناء مربع كالصنم اسفله واسع واعلاه ضيّق، وبه حفيران من جانبيه متصلان من اسفله الى اعلاه وبازائه من الناحية الواحدة من الارض حوض كبير يأتي اليه الماء من نهر ميل، على ظهر قناطر كثيرة معقودة من حجر الصلد فيصب ماؤه في ذلك الحوض. ويذكر اهل المعرفة

من اهل المنكب ان ذلك الماء كان يصعد الى اعلى النار وينزل من الناحية الاخرى، فيجري هناك الى رحى صغيرة.

ومن مدينة المنكب في البر الى مدينة غرناطة اربعون ميلاً ومن المنكب على البحر الى قرية «شاط اثنا عشر ميلاً، ومن قرية شاط الى قرية طرش، التي سيأتي ذكرها، على ضفة البحر اثنا عشر ميلاً فاستقبله نقيباه ابو عثمان وصهر هذا الاخير ابو خالد بالاعظم والاكرام.

وكان وقت العصر فصلى بهم العصر وجلسوا يتناولون الطعام، فأتوه بخمر فقال لهم: «اني محتاج لما يزيد في عقلي لا لما ينقصه».

فاعجبوا بكلامه وعرفوا بذلك قدره، وادركوا انه هو الرجل الذي يستحق السيادة على الاندلس.

وبعد تناول الطعام اهديت اليه جارية جميلة المنظر، فتأملها ووقعت في نفسه موقعاً حسناً ولكنه تذكر حالة مروان الجعدي لما عصفت في دولته الثورات والثلائل فانزوى في ديوانه معرضاً عن ملذات الحياة وتنكر لجواريه لا يجالسهن. وبرزت له احداهن فانتهرها قائلاً: اغربي يا ابنة اللخناء والله لا دنوت منك ولا حللت لك عقدة مئزر والثورة تعصف في خراسان.

تذكر عبد الرحمن هذه القصة وليست بعيدة العهد غير انه لم يتصرف تصرف مروان الحمار بل كان ارق لساناً والطف جناناً فقال:

«ان هذه من القلب والعين بمكان، وانا ان اشتغلت عنها بهمتي فيها اطلبه ظلمتها، وان اشتغلت بها عما اطلبه ظلمت همتي، ولا حاجة لي بها الآن.

وردها لصاحبها.

وقد يكون عبد الرحمن تذكر ايضاً قصة عبد الملك بن مروان لما شاء مقاتلة مصعب بن الزبير. ومصعب هذا كان امير العراق، وكان شجاعاً جميلاً جليل القدر، تزوج سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وجمعهما في داره وكانتا من اعظم النساء قدراً ومالاً وجمالاً.

وقال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه: «من اشجع الناس؟ قالوا: انت.

فقال: لا، لكن اشجع الناس من جمع في داره بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين،»، يعني مصعباً.

ثم تجهز عبد الملك لقتال مصعب وودّع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية. فلما ودعها بكت فبكى جواريها لبكائها. فقال عبد الملك: قاتل الله كثّير عزّة، كأنه شاهد هذا حين قال:

«اذا ما اراد الغزو لم يثن همه   حَصَانٌ عليها نظم در يزينها
نهته فلما لم تر النهي نافعا   بكت فبكى مما شجاها قطينها.»

وازدادت دهشة الحاضرين من تصرف الامير عبد الرحمن حيال الجارية.

وباتوا ليلتهم في المنكب بعد ان توجهوا لصلاة المساء في مسجدها الجميل وتفقدوا مرفأها الكبير وشاهدوا السفن الراسية فيه من بلاد النصرانية وتأملوا بجمال منظرها وتبينوا من حصانة معقلها ولكنهم لم يرغبوا في اطالة الاقامة فيها نظراً لسوء مناخها لان هواءها غير صحي بسبب ضيق مساحتها وتلاصق بيوتها وصغرها.

وفي الصباح توجّه الى قرية «طرش» التي تبعد زهاء خمسين ميلاً، وهناك منزل ابي عثمان، فاقام به عبد الرحمن الداخل. واتاه جماعة من وجوه الموالي وبعض العرب حتى كمل من معه ستمائة فارس.

خرج من البيرة الى كورة ريه، واخذ له البيعة تمام بن علقمة اللخمي من جند فلسطين، ويوسف بن بخت من جند الاردن فدخلت في جماعته. ثم بايعه اهلها واجنادها.

ثم ارتحل الى شذونة ثم المدور ثم سار الى اشبيلية وهي مدينة تقع على مسافة يومين ونيف من قرطبة، ومدينة اشبيلية مدينة كبيرة عامرة ذات اسوار حصينة واسواق كثيرة وبيع وشراء واهلها مياسير وجل تجارتها بالزيت

يتجهز به منها الى اقصى المشرق والمغرب براً وبحراً. وهذا الزيت عندهم يجثم من «الشرف» وهذا «الشرف» هو على مسافة اربعين ميلاً وهذه الاربعون ميلاً كلها تمشي في ظل شجر الزيتون والتين، أوله بمدينة اشبيلية وآخره بمدينة لبلة، وكله شجر الزيتون وسعته ١٢ ميلاً واكثر، وفيه فيما يذكر ثمانية الآف قرية عامرة آهلة بالحمامات والدور الحسنة. وبين الشرف واشبيلية ثلاثة اميال، وسمي كذلك لأنه مشرف من ناحية اشبيلية ممتد من الجنوب الى الشمال وهو تل تراب احمر وشجر الزيتون مغروسة به من هذا المكان الى قنطرة لبلة، وقال الشقندي: من اعظم مدن الاندلس اشبيلية، من محاسنها اعتدال الهواء وحسن المباني ونهرها الاعظم الذي يصعد المد فيه اثنين وسبعين ميلاً ثم يحسر وفيه يقول ابن سفر:

«شق النسيم عليه جيب قميصه   فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها   هــزءا فضم من الحيـاء ازاره

وقيل لأحد من رأى مصر والشام: ايهما رأيت احسن، اهذان ام اشبيلية؟

فقال بعد تفضيل اشبيلية شرفها (اي غابة الزيتون العظيمة المسماة بالشرف)، غابة بلا اسد ونهر نيل بلا تمساح. ويقال ان الذي بنى اشبيلية اسمه «يوليوس» وانه اول من سمي «قيصر» وانه لما دخل الاندلس اعجب بساحاتها وطيب ارضها وجبلها المعروف بالشرف فردم على النهر الاعظم مكاناً واقام فيه المدينة واحدق عليها بأسوار من صخر صلد، وبنى في وسط المدينة قصبتين بديعتي الشأن، تعرفان باخوين وجعلهما ام قواعد الاندلس.

واشبيلية لها كور جليلة ومدن كثيرة وحصون شريفة، وهي من الكور المجندة وقد نزلها جند حمص ولواءهم في الميمنة بعد لواء جند دمشق، واطلق عليها اسم حمص ويقول الشاعر في رثائها:

«واين حمص وما تحويه من نزه   ونهرها العذب فيـاض وملآن»

وقال صاحب «منهاج الفكر» عند ذكر اشبيلية: «وهذه المدينة من احسن مدن الدنيا وبأهلها يضرب المثل في الخلاعة وانتهاز فرصة الزمان

الساعة بعد الساعة، ويعينهم على ذلك واديها الفرج وناديها البهج، وقال عنها اديب الاندلس ابو بحر صفوان بن ادريس:

. . . . . تنمرت حمص (اشبيلية) غيظاً وكادت تفيض فيضاً وقالت: ما لهم يزيدون وينقصون ويطمعون ويحرصون؟ ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون، الهم السهم الاسد والساعد الاشد والنهر الذي يتعاقب عليه الجزر والمد؟ انا نصر الاندلس والنيل نهري وسمائي التانس والنجوم زهري، ان تجاريتهم في ذلك «الشرف» فحسبي ان افيض في ذلك الشرف، وان تبجحتم باشرف اللبوس فأي ازار اشتملتموه كشنتبوس[1]؟ الى ما شئت من ابنية رحاب وروضى يستغنى بنضرته عن السحاب، وقد ملأت زهراتي وهاداً ونجاداً وتوشح سيف نهري بحدائقي نجاداً.»

قلنا لما وصل عبد الرحمن بن معاوية الى اشبيلية استقبله ابو عبدة حسان بن مالك الكلبي من اشبيلية، فاستوزره، وجاءه جدران بن عمرو المذحجي من اهل مالقة فكان بعد ذلك قاضيه في العساكر، وانثال عليه الناس انثيالا فقوي امره مع الساعات فضلاً عن الأيام.

وكان دخوله الاندلس قد صادف صاحبها يوسف الفهري بالثغر الأعلى وقد قبض على الحباب الزهري الثائر بسرقسطة وعلى عامر العبدوي الثائر معه.

فبينما هو بوادي الرمل على مقربة من طليطلة يتنعم بانتصاره على ثورة كادت تؤدّي بالثغر الاعلى بكامله، وقد ضرب عنق عامر العبدوي والحباب الزهري، برأي الصميل، اذ جاءه قبل أن يدخل رواقه رسول يركض من عند ولده عبد الرحمن بن يوسف الفهري من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمن الداخل[2] ونزوله بساحل جند دمشق، واجتماع الموالي المروانية اليه وتشوف الناس لامره.

وقد شاء كتمان الخبر عن الجند ولكن الخبر كان قد سبقه الى

---

١ - سانتي بونسي من قرى اشبيلية

٢ - سمي الداخل لأنه اول امير اموي دخل الاندلس.

الانتشار في العسكر لوقته وشمت الناس بيوسف لقتله القرشيين، فسارع عدد كثير منهم الى البدار لعبد الرحمن الداخل وتنادوا بشعارهم وقوضوا عن عسكره.

واتفق ان جادت السماء بوابل لا عهد بمثله، لما شاء الله تعالى من التضييق على يوسف، فأصبح وليس في عسكره سوى غلمانه وخاصته وقوم الصميل قيس واتباعه.

واقبل الى طليطلة بهذه الفلول الهزيلة من ذلك الجيش الضخم الذي تغلب على الثوار في الثغر الاعلى واعاد وحدة البلاد، ولكن الناس غضبوا على الفهري لأنه اعدم الثائرين مع ان هؤلاء الناس قد لاقوا الامرين من هؤلاء الثوار.

وقال يوسف للصميل: ما الرأي،

فأجابه الصميل: بادره الساعة قبل ان يغلظ امره فاني لست آمن عليك هؤلاء اليمانية لحنقهم علينا.

فهزّ يوسف الفهري رأسه باستخفاف قائلاً:

«اتقول ذلك؟ ومع من نسير اليه وانت ترى الناس قد ذهبوا عنا وقد نفد المال لطول الحصار، وانضينا الظهر ونهكتنا المجاعة في سفرتنا هذه. ولكن الرأي السديد هو ان نسير الى قرطبة فنستأنف الاستعداد له بعد ان ننظر في امره ونتبين لنا خبره فلعله دون ما كتب الينا.

وهذا يدل على ان يوسف الفهري ظلّ في ريبة من امر عبد الرحمن في المطالبة بالسلطان.

فقال الصميل: «الرأي ما اشرت به عليك وليس غيره، وسوف تتبين غلطك فيما تنكبه.

ومضوا الى قرطبة.

ولما استقرّ يوسف بقرطبة خشي عاقبة المماطلة وآثر فيه الحاح الصميل، ولكن احد مستشاريه قال له: «ان الرجل لم يظهر طلب

سلطانك وانما جاء يطلب معاشاً وامناً، فان عرضت عليه المصاهرة وان توسع عليه، الفيته مسرعاً الى طاعتك.

واسترجح يوسف الفهري هذا الرأي فأوفد الى عبد الرحمن وفداً فيه خالد بن يزيد، كاتبه ومولاه، وكان موضع ثقته وصاحب رأيه بعد الصميل، وعبيد بن علي من كبار زعماء القيسية، كانوا في خدمة يوسف، وبعث معهم بكساء فاخر وفرسين وبغلين وجاريتين والف دينار، وكتب اليه كتاباً حملوه مع الهدايا.

وساروا حتى بلغوا «اوس في ادنى كورة رية»، وهناك قال لهم عيسى بن عبد الرحمن: «بأي رأي يعيش الصميل ويوسف وانتم»؟ أرأيتم أن بلغنا بهذه الهدية، فكره ما جئنا به؟ اليس ان اخذه ما معنا يقوى به ويوهن صاحبنا؟

فأبصر القوم عوار رأيهم فقالوا له: اقم بما معنا، ونسير نحن، فان اعطانا بيعة ورضي بما جئنا به سرحنا اليك رسولنا لتقدم علينا بما معك وان يكن غير ذلك فارجعه الى الامير يوسف الفهري فهو احق بماله».

وسار خالد وعبيد حتى قدما على ابن معاوية بطرش «عند ابي عثمان، وعنده جماعة من بني امية ورجال من اليمن يختلفون اليه ويعتقبون المقام عنده.

ولما سمح لهما بالمثول بين يدي الامير عبد الرحمن، اختطب عبيد وخالد كل واحد حذو صاحبه ودعواه الى الالفة ومصاهرة يوسف وقالا:

«ان يوسف ما يزال يذكر ايادي سلفه على جده عقبة بن نافع، وانه حريص على توثيق الالفة بينه وبين الأمير على شريطة الا يطالب بالولاية والسلطان وان يكتفي بما كان سابقاً من املاك جده هشام بن عبد الملك.»

وذكرا ايضاً ان يوسف الفهري ارسل معهما هدية تركاها في «ارش» وانها آتية عما قريب. وان يوسف مستعد للترحيب به والحفاوة بقدومه الى قرطبة.

وراق هذا العرض الخلاب الشيعة الاموية، واعجبتهم هذه الشروط، وانبرى احدهم وقال لرسولي يوسف: «ما احسن ما عرضتنا وما جاء الا طالباً لمورثيه.

واخرج خالد كتاب يوسف الفهري وناوله لعبد الرحمن. فدفعه عبد الرحمن، وقد لزم الصمت، الى ابي عثمان وقال له:

«اقرأ واجب فيه بما تعلم من رأينا».

وكان الكتاب من انشاء خالد بن يزيد، وقد جاء فيه:

«اما بعد، فقد انتهى الينا نزولك ساحل «المنكب» وتابش من تابش اليك ونزع نحوك من السراق واهل الختر والغدر ونقض الايمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا، به جلّ وعلا نستعين عليهم. لقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش حتى غمطوا ذلك واستبدلوا بالامن خوفاً وجنحوا الى النقض والله من ورائهم محيط.

فاذا كنت تريد المال وسعة الجناب فأنا اولى بك ممن لجأت اليه اكتنفك واصل رحمك وانزلك معي ان اردت او بحيث تريد. ثم لك عهد الله وذمته بي الا اغدرك ولا امكن منك ابن عمي صاحب افريقية ولا غيره».

ولما اتمّ ابو عثمان قراءته همّ بكتابة الرد عليه، فقد القى عبد الرحمن الداخل على كاهله هذه المسؤولية والرد طبعاً كان سيكون بالايجاب، اي ان عبد الرحمن راض عن مصاهره الفهري وان تعاد اليه املاك جده هشام بن عبد الملك وغير ذلك.

وقد لحظ عبد الرحمن على الامويين رضاهم عن الرد المأمول، اما هو فليس براض عنه لأنه يسعى الى المجد ويريد الملك ولكنه لم يكن واثقاً من رسوخ مكانته، ولذا رأى من الحزم ان يترك الامور لاصحابه، واستسلم الى تضحية آماله وتوديع احلامه ولو لحين، لأن آخر شيء يضيع هو الامل ولقد صدق الشاعر العربي لما قال:

«اعلل النفس بالآمال ارقبها ما اضيق العيش لولا فسحة الامل».

غير ان الحظ كان بجانب عبد الرحمن بن معاوية، والقدر قال كلمته فيه حتى يحقق نبؤة مسلمة في شخص خالد بن يزيد رسول الفهري الى الامير عبد الرحمن.

لم يكن خالد هذا رسول يوسف ومنشىء كتابه عربي الاصل وانما اسباني المنشأ، جحد ابوه الديانة المسيحية واعتنق الاسلام وتسمي «خالد». وكان ذكياً متضلعاً من الادب. فاتخذه يوسف الفهري كاتباً له فحسده العربي على منصبه لمكانته من يوسف، ومن الحسد والبغض الى الاحتقار قيد شعرة فاحتقروه وكرهوه وابغضوه وشاءوا له الاذى. وبادلهم احتقاراً باحتقار، ولم يترك سانحة تمرّ دون التعرّض لهم والحط من مقامهم والشموخ عليهم بأنفه. وساعده في عنجهيته وكبريائه تضلعه من اللغة العربية.

· وهنا لا بد من الاشارة الى ناحية هامة جداً في تعريب شبه الجزيرة الابرية بسرعة مدهشة.

جرت هذه الحادثة عام ٧٥٥ اي حوالي اربعين عاماً بعد دخول العرب الى الاندلس. ويمكن التأكيد ان جميع مواليد فاتح القرن الثامن الميلادي تعلّموا العربية واصبحوا لا يتميزون عن العرب الاصلاء من حيث النطق بها. وهذه القصة تعطينا فكرة صادقة عن مبلغ تضلع الاسبان المسلمين وغير المسلمين من اللغة العربية في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، وحتى قبل حلول النصف الثاني من ذلك القرن ولدينا براهين اخرى سنوردها في هذا الكتاب ان شاء الله.

ولنرجع الى ما كنا عليه من عزم ابي عثمان على اجابة يوسف الفهري بقبول الأمير الأموي اقتراحه الذي تقدّم به.

انما ابو عثمان لا يملك المقدرة على الانشاء مثلما يملكها خالد كاتب الفهري، فلم يقع على الجواب المطلوب ولم يجد الكلمات التي تؤدّي مقصوده رغم مجهوده الفكري.

فلما رأى خالد بن يزيد ابطاءه وتعثره في الردّ على كتابه، وجدها فرصة سانحة للحط من قدر هذا الزعيم العربي الأموي واظهار تقصيره

امام الجميع دون ان يلم بما تؤدّي هذه البادرة الحمقاء نحو زعيم اموي يملك في تلك الساعة بالذات مفتاح القضية التي جاء لاجلها والمهمة الموكول اليه امرها، وكان من واجبه ان يتجنب جميع العقبات وجميع الملابسات التي تؤدّي الى فشل مهمته.

التفت خالد هذا الى ابي عثمان ساخراً وقال له تلك العبارة الشهيرة التي غيرت تاريخ الاندلس: «لتعرقن ابطاك قبل ان تحير فيه جوابا».

فاستشاط ابو عثمان غيظاً ورفع يده وضرب بالكتاب وجه خالد وقال له:

«يا ابن الفاعلة لا تعرق لي ابط ولا احير فيه جوابا.

وصاح برجاله: خذوه. فأخذوه وكبل من ساعته.

والتفت ابو عثمان الى عبد الرحمن وقال له: «هذا اول الفتح، وهذا الرجل هو منبع الحكمة عند يوسف الفهري وبدونه لا يدبر شيئاً».

وانتظر الرسول الآخر حتى هدأ غضب عبيد الله وقال له:

«يا ابا عثمان هذا رسول ولا سبيل اليه».

فأجابه ابو عثمان: «انت الرسول، فارحل في سلام، وهذا معتد وقد بدأ بالشتيمة والانتقاص، ابن الخبيثة العلج.»

ولا حاجة للتعبير عن ابتهاج عبد الرحمن وارتياحه لما وصلت اليه المهمة، فقد سايرت مرامه ومآربه بحيث انه لو شاء بنفسه ايصالها الى هذا الحد لما استطاع، فالامويون الآن واقفون الى جانبه حتى الموت بعد أن اعتقل زعيمهم ابو عثمان رسول يوسف الفهري اليه وخلف عداوة بينهما لا تمحيها الايام.

وفي غمرة هذه الأحداث والتقلبات غاب عن ذهنهم وجود الهدايا التي تنتظرهم قريبة منهم وفيها اموال هم بأشدّ الحاجة اليها في هذه الظروف الصعبة لتقوية عزائمهم وهممهم، فصمموا الاستيلاء عليها فوجهو ثلاثين فارساً لاغتصابها.

توجّه الفرسان الى المكان المقصود واصيبوا بخيبة امل مريرة لما لم يجدوا أثراً للهدايا لأن الخبر سبقهم الى عيسى فطار راجعاً بكل ما معه وعاد الفرسان بخفي حنين.

النجاح لا يمكن ان يكون على جميع الجبهات.

وسار عبد الرحمن الى اشبيلية وتلقاه رئيس عربها ابو الصباح بن يحيى اليحصبي. واجتمع الرأي على ان يقصدوا به دار الامارة قرطبة.

وصلوا الى طشانة ونزلوا للاستراحة فيها وقالوا: كيف نسير بأمير لالواء له ولا علم؟، كيف نهتدي اليه؟

فجاءوا بقناة وعمامة ليعقدوها عليه، فكرهوا ان يميلوا القناة لتعقد، فاقاموها بين زيتونتين مجاورتين وصعد رجل فرع احدهما فعقد اللواء والقناة قائمة.

ومما يحكى ان فرقد العالم صاحب الحدثان مرّ بذلك الموضع فنظر الى الزيتونتين وقال: «سيعقد بين هاتين الزيتونتين لواء لأمير لا يثور عليه لواء الاكسره». فكان ذلك اللواء يسعد هو وولده من بعده.»

فلما رأى يوسف الفهري تصميم عبد الرحمن الى قرطبة رجع مع النهر محاذياً له، فتسايرا والنهر حاجز بينهما الى ان حلّ يوسف بصحراء «المصارة» غربي قرطبة وعبد الرحمن في مقابلته...

وتراسلا في الصلح. وقد امر يوسف الفهري بعمل الاطعمة، وعبد الرحمن بن معاوية آخذ في عكس ذلك، قد أعدّ للحرب عدّتها واستكمل اهبتها وسهر الليل كله على نظام امره.

ورأى عبد الرحمن أن مركزه الحربي يتحسن كثيراً ان عبر النهر هو وجيشه.

لجأ الى استعمال الحيلة فأظهر للصميل وليوسف الفهري الصلح معهما خصوصاً في مثل تلك الأيام المباركة، في عيد الأضحى. فوافق الصميل ويوسف على ذلك. ولكن لما تيسر لعبد الرحمن عبور النهر الكبير ليلاً اعلن بأن لا صلح الا بعد اعلانه أميراً على الأندلس.

ولما اصبح يوم الأضحى تزاحف القوم واقتتلوا قتالاً شديداً. ولما اشتدّ الأمر نظرت اليمنية الى عبد الرحمن على فرس وقد نزل حوله مواليه وحمل رايته عبيد الله. وقال بعضهم لبعض:

«هذا فتى حديث السن تحته جواد وما نأمن من اول ردعة يردعها ان يطير منهزماً على جواده ويدعنا».

وسمع بدر هذه الكلمات، فأقبل على عبد الرحمن واخبره بمقالتهم فبادر عبد الرحمن باستدعاء ابا الصباح.

فأقبل اليه، فقال له: «ليس في عسكرنا بغل اوفق من بغلك وان هذا الفرس يقلق تحتي فلا اقدر على ما اريد من الرمي بالقسي، فخذ فرسي وهات بغلك واني احب ان تكون تحتي.»

وكان بغلاً اشهب قد ابيض، فاستحيا ابو الصباح وقال «او يثبت الأمير على فرسه». فقال عبد الرحمن: «لا والله».

وركب البغل فاطمأنت اليمنية وترامو عن خيلهم وحملوا عليها اخفاءهم واشتد القتال. وقال عبد الرحمن لرجاله لما اشتدّ الكرب بين يديه ورأى شدة مؤاساة اصحابه:

«هذا يوم هو آسّ ما يبنى عليه اما ذل يوم واما عز دهر، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون، تربحوا بها بقية اعماركم فيما تشتهون».

وحمي الوطيس وانتصرت جيوش عبد الرحمن واخترقت فرسانه الجناح الايمن لجيش عدوه وهزمت القلب وهزم سائر الجيش وقتلوا قتالاً ذريعاً.

وسار عبد الرحمن حتى دخل قرطبة، فانتهب عسكر يوسف وجلسوا يأكلون الطعام الذي كان قد أعدّه يوسف.

وانتهكت بعض رجال اليمانية حرمة منزل يوسف الفهري وسلبوا ونهبوا. فخرجت الى عبد الرحمن زوجة يوسف الفهري وابنتاه وقالت له ام موسى التي كان ابوها عازماً ان يزوجها من الأمير الأموي: «يا ابن عمنا احسن كما احسن الله اليك».

فالتفت عبد الرحمن اليهن وتلاقت نظراته بنظرات ابنة الفهري فقال في نفسه: هذه هي المرأة التي شاءوا تزويجي بها وها هي تسترحم الآن.

وتأملها ولاح له التوسل في ناظريها، وعزّ عليه ان تهان وتهان امها واختها معها، فقال لهن بلهجة تخللها الصدق والعزم: «افعل».

ودعا صاحب الصلاة، وكان موسى الفهري فأمر بضم النساء الى داره.

ثم توجّه الى منزل يوسف وانتهر السالبين وامرهم بالكف عن السلب والنهب على الأقل في دار يوسف حتى لا يحنث بوعده للنسوة، وانتزع منهم ما قدر على انتزاعه ورده الى النسوة فشكرن صنيعه وارسلن الدعاء له.

وقد عرفت هذه الموقعة الحاسمة بين عبد الرحمن بن معاوية ويوسف الفهري باسم «المصارة» والاسبان يسمونها «الاميدا».

وتمتد مصارة قرطبة في جنوب غرب المدينة على الضفة اليمنى من نهر وادي الكبير. وكلمة «مصارة» اطلقت على عدة نواحي في الاندلس والمغرب، وعلى الفضاء الواسع المجاور للمدن الكبيرة مثل قرطبة وغرناطة وفاس. «والمصارة» معدة لاقامة الحفلات والعاب الفروسية واستعراض الجيوش قبل التوجه الى ساحات القتال، وخاصة الصلوات لاجل الاستسقاء. ولهذا لم يميزوا بين المصارة والمصلي لانهما في مكان واحد. وقد انتقل هذا الاسم الى اللغة الاسبانية «الموسارا» وما زالت اماكن عديدة موجودة في شمالي اسبانية تعرف بهذا الاسم واغلبها اراضي زراعية فسيحة وهذا ما حمل بعض المستشرقين على اعتبار كلمة المزارع والزراعة اصلاً لكلمة «المصارة». ويقول الدكتور احمد مختار العبادي:

«وتسمية موقعة المصارة في الكتب الاسبانية بكلمة ALAMEDA (الاميدا)، فيبدو ان وجود الالف واللام في بداية هذه الكلمة قد جعل بعض الكتاب يظن ان اصلها عربي مثل معظم الكلمات الاسبانية العربية الأصل والتي تبتدىء بـ «ال»، ومثال ذلك تفسير دائرة المعارف الاسبانية لهذه الكلمة «بالميدان» غير ان الامر مشكوك فيه لان اصل هذه الكلمة لاتيني وهو «ALAMO» (الامو) اي شجر الصفصاف او الحور وهو شجر

مرتفع عـريض الاوراق. والمكان الـذي يكثر فيـه هذا الشجـر يسمى «الاميدا»، وهذا الاسم منتشر في اسبانية ولا سيما بنواحي ليون وسرقسطة وبرغش واسترقة.

وعلى أثر هذا الانتصار شاء رئيس اليمانية ابو الصباح الاستفادة من هذا النصر، فقال لاصحابه عند هزيمة يوسف الفهري والصميل:

«يا معشر يمن، هل لكم الى فتحين في يوم قد فرغنا من يوسف والصميل، فلنقتل هذا الفتى المقدام بن معاوية فيصير الامر لنا، نقدم رجلاً منا ونحل عنه المضرية؟.

فلم يجبه احد لذلك.

وبلغ الخبر عبد الرحمن الداخل، فأسره في نفسه منتظراً الظرف الملائم للقضاء عليه، وتكافأت الفرص وقتله كما سنرى...

ونزل الامير عبد الرحمن في القصر بقرطبة في تلك الليلة قرير العين رغم التعب المستحوذ عليه. قطع اكثر الطريق الى المجد ولكن الخطر ما زال رابضاً قريباً منه لانه لم يظفر بيوسف ولا بالصميل اللذين فرّا اثر اندحارهما في معركة «المصارة» فانهزم الصميل قاصداً شنوزر من كورة جيان وهي تبعد زهاء ثمانية عشر ميلاً من قرطبة وهي في سهل كثير الزيتون، وفر يوسف الفهري الى جهة ماردة.

ومدينة ماردة كانت دار مملكة وقد بنيت سنة ٢٣ قبل المسيح ونمت نمواً كبيراً حتى سميت «رومة الاسبانية» وقيل انه كان لها اربعة وثمانون باباً وخمسة حصون وثلاثة الآف وسبعمائة برج، واستولى عليها العرب بقيادة موسى بن نصير سنة ٧١٣م واستردها الاسبان سنة ١٣٢٨م ومنذ ذلك الحين فقدت اهميتها.

فيها من البناء آثار ظاهرة تنطق ملكاً وقدرة، وتعرب عن نخوة وعزة وتفصح عن غبطة. في هذا البناء في غربي المدينة قنطرة كبيرة ذات قسي، عالية الذروة، كثيرة العدد عريضة المجاز. وقد بني على ظهر القسي اقباء تتصل من داخل المدينة الى آخر القنطرة ولا يرى الماشي بها وفي داخل

هذا الداموس[1] قناة ماء تصل المدينة. ومشى الناس والدواب على تلك الدواميس وهي متقنة البنيان وثيقة التأليف حسنة الصنعة والمدينة عليها سور حجارة منجورة من احسن صنعة واوثق بناء، ولها في قصبتها قصور خربة وفيها دار يقال لها دار البطيخ، في ساقية هي الآن باقية الاثر لا ماء بها.. وكانت توضع صحاف الذهب والفضة بانواع الطعام في تلك الساقية على الماء حتى تخرج بين يدي الملكة فترفع على الموائد، وعندما يفرغ من اكل ما فيها توضع في الساقية فتستدير الى ان تصل الى يد الطباخ بدار الطبيخ فيرفعها بعد غسلها ثم تمر بقية ذلك الماء في سروب القصر.

ومن اغرب الغريب جلب الماء الذي كان يأتي الى القصر على عمد مبنية تسمى «الارجل» وهي اعداد كثيرة باقية الى الآن قائمة على قوام لم تخل بها الازمان ولا غيرتها الدهور، ومنها قصار ومنها طوال بحسب الاماكن التي وجب فيها البناء، واطولها يكون غلوة سهم وهي على خط مستقيم.. وكان الماء يأتي عليها في قنى مصنوعة خربت وفنيت وبقيت تلك الارجل قائمة، يخيل الناظر اليها انها من حجر واحد لحكمة اتقانها وتجويد صنعتها... وفي وسط هذه المدينة احناء قوس، يدخل عليه الفارس بيده علم قائم. عدة احجاره احد عشر حجراً فقط، في كل عضاضة منها ثلاثة احجار وفي القوس اربعة احجار حنيات وواحد قفل فكانت الجملة احد عشر حجراً. وفي الجنوب من سور هذه المدينة قصر آخر صغير وفي برج منه كان مكان مرآة كانت الملكة «ماردة» تنظر الى وجهها فيها ومحيط دورها عشرون شبراً وكان يدور على حرفه ومكانه الآن باق باق، ويقال انما صنعته ماردة لتحاكي به مرآة ذي القرنين التي صنعها في منار الاسكندرية.

هذه هي المدينة التي هرب اليها يوسف الفهري وقد عزّ على عبد الرحمن ان يفلت الزعيمان من يده، لقد بقي الراس وما زال الراس باقياً فالثورات ستضطرم من جديد وقد قال الشاعر:

«لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها   ان كنت شهماً فاتبع راسها الذنبا».

---

١ - الداموس ما يستتر به الانسان.

وفيما هو مستسلم لتفكيره اذا بالباب يقرع قرعاً خفيفاً فنهض واستلّ سيفه واقترب من الباب بحذر وفتحه، فشاهد جارية حسنة القوام رشيقة القد حنطية اللون في نظراتها حياء وفي وقفتها استعطاف واسترحام. ودهش لما سمعها تطلب الاذن بالدخول، ولم يسعه الا الموافقة على طلبها بعد ان سألها: «من انت وما شأنك؟..

- انا حلل، جارية ام موسى والآن، جاريتك.
- وما جاء بك اليّ في هذه الساعة من الليل؟
- سيدتي ام موسى ابنة الفهري، أنا هديتها اليك مكافاءة لك على حسن صنيعك معها ومع اهل بيتها، فقد عرضت ذاتك لسخط رجالك لما منعتهم عن نهب قصر ابيها.

فاستأنس بها عبد الرحمن وحسنت في عينيه، وخطرت في باله الجارية التي عرضت عليه اثناء وصوله الى الأندلس ولكنها برهة وجيزة وتلاشت من باله لتحلّ محلها هذه الماثلة امامه في خلوة، لا واش ولا رقيب ليسمع او يرى.

- هل من حاجة اقضيها لسيدي الأمير فأنا رهن اشارته.

وشاء عبد الرحمن مداعبتها وقد طابت نفسه فقال لها:

- واذا صارحتك بالاستغناء عنك وأمرتك بالعودة الى سيدتك؟
- ينكمش قلبي وتحزن نفسي لأني لم أنل حظوة في عيني سيدي الأمير. ثم ان مولاتي تنازلت لك عن حقها فيّ فأنا ملك لك تتصرف بي كما تشاء...
- واذا اطلقت لك حريتك فما انت صانعة؟
- افضل البقاء في كنف سيدي وأعمل على مرضاته، انه شاب وله حاجات بدنية وأنا اقضيها له. سيدي يشعر بالتعب وانا كفيلة بازالة التعب عنه.
- اجل اشعر ببعض التعب، فأنا بحاجة الى الراحة.
- اذا سمح لي سيدي جئته بماء لغسل قدميه.

ولم تنتظر موافقته، فهرعت واحضرت الماء بسرعة وهي العالمة بأحوال القصر وخفاياه.

ثم شرعت في غسل رجليه بعناية ورفق وتلمسهما لمسات خفيفة تدخل هناءة لذيذة تدبّ في جسم عبد الرحمن فيودّ لو طالت.

وتملكته الدهشة والاستغراب دون ان يبدي تذمراً لما رأى يداها تمتدان الى ثيابه لتجرّده منها وفي حركاتها اغراء.

ومددته على الفراش وجلست عند قدميه، ومن حين الى حين تمرّ يدها على ساقيه ثم تدني شفتيها منهما. وشعر عبد الرحمن برعشات خفيفة تسري في عروقه، فأدناها منه حتى اصبح رأسها قريباً من رأسه وهو ينظر في عينيها وتنظر في عينيه ولا تطيل النظر حياء. وأخذ يدها بين يديه ثم عمد الى نزع بعض ثيابها عنها ويتحسس صدرها ونهديها وتهبط يده الى امكنة منخفضة من جسدها فتشب حمّى تنتقل بالعدوى الى ضجيعته، وانتابته قشعريرة وضمها اليه بعنف، وتقلب جسدهما على الفراش متشابكي الاعضاء يحترقان بنار الشهوة الجموح.

وبحث عن شفتيها المفتحتين وغرق بينهما لسانه اعمق ما يدرك متطلباً المزيد.

وطوّقت خصره بساقيها وفقدت السيطرة على اعضائها فكلها جمرة تتوقد وتزداد اشتعالاً مسترسلة في تأوهات وتنهدات.

وتمكن من ذلك الجسد الثائر وسقط بكل ثقله عليه فسحق نهديها المستديرين وتململت تحته باحثة عما يطفىء لهيبها ويخمد حرارتها وتملكتها هزة خالت روحها تخرج منها لما ادركت انه لها وانها له في عناق امتزج فيه الجسمان والروحان.

وانطلقت في الوقت ذاته صرخة من الحنجرتين كأن صاحبيهما اصيبا بطعنة خنجر، وتوالت التنهدات والآهات وصار الجسمان يخوران شيئاً فشيئاً وهما مرطبان بالعرق وظلا متعانقين سادرين في شبه غيبوبة تمنيا لو استمرا بها مدى الحياة.

وشعر عبد الرحمن انه بحاجة الى الراحة فتراخت اعصابه واستسلم لرقاد عميق. ونامت حلل عند قدميه تعانقهما قريرة العين.

كفاح بلا هوادة

ولما حصل عبد الرحمن بدار الامارة وحلّ محل يوسف الفهري لم يستقر له قرار من افلات يوسف والصميل، فقرر مطاردتها. فخرج في اثر يوسف الفهري، واستخلف على قرطبة القائم بأمره ابا عثمان.

ونهض في طلب يوسف، غير ان الفهري وصل اليه خبر مطاردته وخروج الامير عبد الرحمن من قرطبة، فما كان منه الا ان وجّه ابنه عبد الرحمن الفهري في بعض قواته الى قرطبة فدخل القصر واستولى على ما فيه واضطر ابو عثمان الذي خلفه عبد الرحمن على قرطبة للتحصن بصومعة الجامع فاستنزله بالامان، واستبقاه رهينة عنده من جملة الأسرى وبينهم حلل.

وبعد أن قام عبد الرحمن الفهري بهذه الهجمة الموفقة على قرطبة غادرها في الحال بصحبة الأسرى خشية ان يداهمه الأمير الأموي فيقضي عليه. غير ان هذا لم يعبأ بما حدث لقرطبة بل ظل في طريقه الى البيرة معتقل يوسف الفهري والصميل.

وضع عليهما الحصار، فشعرا ان المقاومة لا تجدي نفعاً، فبدأت المفاوضات لأجل الصلح والتسليم بالأمر له ونبذ كل دعوى في الولاية، والشرط على ان يؤمنها في النفس والمال والعيال وان يخلي بينه وبين امواله حيث كانت، وان يسكن بلاط الحر الثقفي احد الولاة السابقين، على شرط ان يختلف كل يوم الى عبد الرحمن بن معاوية ويريه وجهه، واعطاه رهينة على ذلك ولديه الأسود وعبد الرحمن.

وتم عقد الصلح بين الفريقين في صفر سنة ١٣٩هـ، وافرج عن ابي

عثمان وباقي الأسرى الذين اسرهم عبد الرحمن بن يوسف الفهري لما هاجم قرطبة كما رأينا، وأبدى الأمير الأموي نحوهما ليناً وعطفاً وهو مع ذلك يشدد عليهما الرقابة ويحرص على تجريدهما من كل سلطة وقوة.

واستدعى عبد الرحمن بن معاوية قومه الأمويين ومواليهم، فتتابعت اليه ناس كثيرون، وكان فيمن دخل في سنة ١٤٠هـ عبد الملك بن عمر بن مروان ويقال له المرواني.

ووجّه عبد الرحمن الى الشام في طلب شقيقتيه وبعث مع الرسول مالاً فلما قدم عليهما الرسول وهو معاوية بن صالح القاضي قالتا له:

«السفر لا تؤمن آفته وقوامنا بحمد الله ووسعنا فضل القوم وحسبنا ان نكون في عافية وسلمهما الرسول المال وهذه الأبيات من الشعر:

«أيها الراكب الميمم ارضي　　اقر عني بعض السلام لبعضي
ان جسمي كما تراه بأرض　　وفؤادي ومالكيه بأرضِ
قدّر البين بيننا فافترقنا　　وطوى البين عن جنوني غمضي
قد قضى الدهر بالفراق علينا　　فعسى باجتماعنا سوف يقضي

ومع ذلك فلم يلن قلباهما وفضلتا البقاء في دمشق. وعاد الرسول معاوية بن صالح القاضي الى الاندلس للمرة الثانية لانه كان قد دخلها قبل دخول عبد الرحمن اليها، وهو من جملة العلماء، عالي الرواية، شامي من اهل حمص خرج منها سنة ١٢٥هـ الى مصر ثم تركها الى الاندلس حيث حظي عند عبد الرحمن الداخل. ويذكر عنه انه روى عنه مالك بن انس.

وعند رجوعه الى قرطبة ولّاه عبد الرحمن قضاء حضرته وقد شارك عبد الرحمن غزواته ويحيي ليله بالصلاة فاذا اقبل النهار تقدّم في خيل حمص غازياً الى ان عزله في آخر ايامه.

وكان يستقضيه عاماً ويستقضي نصر بن طريف عاماً آخر.

وكان نصر هذا قد تربّى مع عبد الرحمن وتأدّب بأدب الملوك فاستحقّ خطة القضاء لما كان خير اهل زمانه، وقدّمه عبد الرحمن الداخل للقضاء بقرطبة لما خبر عنه من العلم والفهم، قال ابن الابار:

«انه كان ورعاً اذا شغل عن القضاء يوماً لم يأخذ لذلك اليوم اجراً».

ولم يرق لأنصار يوسف الفهري الموجودين في قرطبة هذا الموقف الجديد، فالرفد توارى والعطاء والجاه والحظوة انحجبت، وقابلوا بين ماضيهم الرافل بالجاه والغنى وحاضرهم الراسب في زوايا النسيان. وجاش الحنين في صدورهم الى ماضيهم وقد يعود الماضي القريب والستار الذي يحجبهم عنه شفاف حديث العهد. واسرفوا في الملامة على يوسف الفهري لرضوخه للأمر الواقع ولاستسلامه الرضي والامكانات متوافرة لاستعادة الجاه القديم والسؤدد المنهار.

ولاقى هذا التحريض اذناً صاغية عند يوسف الفهري. قد يكونون على صواب فالحياة في قرطبة لم تعد تطاق اصبح الفهري مهيض الجناح منخفض المنزلة لا يتورع عن الشكاية كل من يظن ان له عنده حق او امانة، يطالبه بها امام القاضي ويربح المدعي دعواه.

وسعوا به لدى الأمير عبد الرحمن وخوّفوه منه واوغروا صدره عليه، فاشتدّت وحشة الفهري وعوّل على الفرار من ذلك الجو الخانق المتنكب له.

ونفذ عزمه ففر الى جهة ماردة، واجتمع اليه عشرون الفاً من اهل الشتات، فغلظ امره. وحدثته نفسه ان يقيس قوته بقوة عبد الرحمن بن معاوية مرة ثالثة، فخرج نحوه من ماردة وخرج ابن معاوية من قرطبة قاصداً حصن «المدوّر» غربي قرطبة حيث حشد قواته.

اما يوسف الفهري فقد توجّه من ماردة الى اشبيلية وعليها عبد الملك بن عمر بن مروان المعروف بالمرواني كان قد فرّ من الشام خوفاً من المسودة وقصد الأندلس فأكرمه عبد الرحمن وولّاه اشبيلية، ثم انه لما وجد عبد الرحمن الداخل يدعو لابي جعفر المنصور اشار عليه بقطع اسمه من الخطبة وذكره بسوء صنيع بني العباس لبني امية فتوقف عبد الرحمن في ذلك فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء لابي جعفر المنصور، وذلك انه قال له حين امتنع من ذلك: «ان لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسي، فقطع عبد الرحمن الخطبة بالمنصور بعد ان خطب باسمه عشرة اشهر.

وكان المرواني في اشبيلية منتظراً لولده عبد الله الوالي على موررو، وظن عبد الله هذا ان والده محصوراً في اشبيلية فأسرع لنجدته.

وقيل ليوسف الفهري هذا المرواني قد نهد اليك وركب ساقتك، فصرف اليه يوسف جموعه واستعجل مكافحته خوفاً من ان يأتي عبد الرحمن من وجه والمرواني من وجه آخر.

وتقاعس المرواني رجاء ذلك، فلم يمكنه يوسف الفهري من التقاعس وارغمه على الاشتباك معه في معركة والتقيا من ساعتهما.

فحين التقيا نزل رجل من موالي الفهري من البربر من ساكني ماردة معروف بالشجاعة فدعا الى النزال والبراز فلم يجرؤ احد على النزول اليه، فكبر ذلك على المرواني فالتفت الى ابنه عبد الله وقال له: «هذا اول الشر ونحن في قلة فانزل على عون الله».

فنهض عبد الله الى النزال فأقبل اليه مولى له من موالي آل مروان بن الحكم، حبشي يكنى بابي البصري فقال له: «اي شيء تريد يا مولاي»؟

قال: اريد النزول الى هذا. فقال له: انا اكفيك ذلك يا مولاي.

ونزل ابو البصري الى البربري وكانت السماء قد رشت برذاذ، فالتقيا فتجاولا ساعة وكلاهما جسيم شجاع فقضى ان البربري زلقت رجلاه فسقط وتحامل عليه ابو البصري فقطع رجليه بالسيف. ولما ابصر المرواني ان صاحبه قد قتل البربري صرخ في رجاله: «اكسروا جفون السيوف فالموت اولى او الظفر». ففعلوا وحملوا وتقدمهم فهزم اليمانية ولم تقم لها بعدها قائمة وقتل بين الفريقين ثلاثون الفاً.

وجرح عبد الملك المرواني فأتاه عبد الرحمن وجرحه يجري دماً وسيفه يقطر دماً وقد لصقت يده بقائم سيفه فقبَّله بين عينيه وجزاه خيراً وقال له: «يا ابن عمي، قد انكحت ابني وولي عهدي هشاماً ابنتك فلانة واعطيتها كذا وكذا، واعطيتك كذا وكذا ولاولادك كذا وكذا واقطعتك واياهم كذا ووليتكم الوزارة».

فنظم عبد الملك قصيدة في مدح عبد الرحمن جاء فيها:

«فيا زمناً أودى بأهلي ومعشري / لقد صرت في احشائنا لاذعاً جمرا
ويزداد دهر السوء غشاً وظلمة / كان على شمس الضحى دوننا سترا
الى ان بدا من آل مروان مقمر / اضاء لنا من بعد ظلمته الدهرا
هجان اصيل الرأي ندب مهذب / اقام لنا ملكاً وشدّ لنا ازرا
وانبت آمالاً واثبت نعمة / وجئنا فالفينا الكرامة والبرا
انال وأغنى منعماً متفضلا / واصفى لنا مأمول ابنائه صهرا
فنحن حواليه النجوم تجمعت / الى البدر حتى صرن من حوله حجرا»

وبعد ان تمّت الغلبة لعبد الرحمن الداخل على يوسف الفهري فرّ يوسف الى فحص البلوط، ثم واقع محجه طليطلة يريد ابن عروة ليأمن عنده وهو الى طليطلة على عشرة أميال. فمرّ بعبد الله بن عمر الانصاري وهو بقرية من قرى طليطلة فقيل له: «هذا يوسف منهزماً».

فقال لأصحابه: ويحكم اخرجوا بنا نقتله ونريح الدنيا منه ونريحه من الدنيا ونريح الناس من شره فقد صار رجلاً ناجشاً للحرب».

فخرج حتى لحقه وليس بينه وبين مدينة طليطلة الا أربعة أميال وليس معه الا سابق الفارسي مولى بني تميم، ومن يجهله يقول مولى يوسف ووصيف واحد فقط وقد ماتوا من شدة الركض وليس معهم منعة ولا مدفع فقتل عبد الله يوسف الفهري وقتل سابقاً وهرب الغلام حتى دخل طليطلة.

واحتزّ رأسه وقدم به الى عبد الرحمن بن معاوية. فلما قرب وطلب المثول بين يدي الأمير الأموي لاطلاعه على أمر خطير يرضى عنه.

ودرى عبد الرحمن بأن الانصاري قد جاء برأس يوسف الفهري فأمره ان يتوقف به دون جسر قرطبة وأمر بقتل ولده عبد الرحمن المحبوس عنده وضمّ رأسه الى رأس أبيه ووضعا على قناتين مشهرين الى باب قرطبة.

تلك هي النهاية المشؤومة ليوسف الفهري، بقي ان نعرف مصير الصميل.

كان عبد الرحمن بن معاوية، لما فر يوسف الفهري الى ماردة كما ذكرنا، امر باحضار الصميل. ولما مثل بين يديه سأله عن مكان يوسف فقال الصميل: «لا اعلم»

فقال عبد الرحمن: «ما كان ليخرج حتى يعلمك، ومع ذلك فان ابنك معه فلا بد من احضاره».

فقال له الصميل: لو انه تحت قدمي هذه ما رفعتها لك عنه فاصنع ما شئت».

وشاء الخروج من حضرة عبد الرحمن فأمر حينئذ بحبسه لأنه قد يحتاج اليه في المستقبل. ولكن عندما قتل يوسف لم يعد بحاجة الى الصميل، فادخل على الصميل من خنقه، فأصبح ميتاً.

ودخل عليه مشيخة المضرية في السجن، فوجدوه ميتاً وبين يده كأس ونقل كأنه بغت على شرابه. فقالوا: «والله إنّا نعلم يا ابا جوشن انك ما شربتها ولكن سقيتها».

وهكذا استراح عبد الرحمن الداخل من الفهري واحد ابنائه، ومن الصميل، غير ان الولد الآخر واسمه محمد ابو الأسود استطاع ان يفرّ من سجنه. وتوجّه الى طليطلة، فحاصرها حتى استسلمت، واسر محمد بن يوسف الفهري مرة ثانية، وجيء به الى قرطبة واستولت جنود عبد الرحمن على طليطلة سنة ١٤٢هـ فاستحضر الوفود اليها فانثالوا عليه ووالى القعود لهم قصره عدة ايام في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم بكلام سرهم وطيب نفوسهم وكساهم واطعمهم فانصرفوا عنه مغتبطين يتدارسون بكلامه ويتهافتون بشكره ويهانئون بنعمة الله تعالى عليهم فيه.

وفي بعض مجالسهم هذه مثل بين يديه رجل من جند قنسرين قائلا:

«يا ابن الخلائف الراشدين والسادة الأكرمين اليك فررت وبك عدت من زمن ظلوم ودهر غشوم قلّل المال وكثّر العيال وانت ولي المحمد والمجد والمرجو للرفد».

فقال له عبد الرحمن مسرعاً: «قد سمعنا مقالتك وقضينا حاجتك وامرنا بعونك على دهرك على كرهنا لسوء مقامك فلا تعودَنَّ ولا سواك لمثله من اراقة ماء وجهك بتصريح المسألة والالحاف في الطلبة. واذا ألمّ بك خطب او حزّ بك امر فارفعه الينا في رقعة كي نستر عليك خلتك ونكف شمات العدو عنك».

وامر له بجائزة حسنة، وخرج والناس يعجبون من حسن منطقه وبراعة أدبه.

وهكذا انتهت بذهاب يوسف والصميل مرحلة خطيرة من الاضطراب والقلاقل، كما يقول عبد الله عنان[1] وقد استطاع ان يحكم الاندلس زهاء عشرة اعوام في ظروف عصيبة وان يسهر على وحدتها وسلامتها بقوة وذكاء وان يدرأ عنها خطر نصارى الشمال والفرنج. ولما فقد يوسف رئاسة الاندلس في يوم المسارة لبث مع ذلك اخطر قوة تهدّد طالع عبد الرحمن الأموي وسلطانه، وكان الصميل زعيماً قوي العصبية نافذ الرأي والكلمة وافر الدهاء والمكر يخشى بأسه ووحيه فكان ذهابهما من الميدان فوزاً لعبد الرحمن وخطوة كبيرة في سبيل استقرار رئاسته وتوطيدها.

وقطع عبد الرحمن اعوامه التالية في كفاح مستمرّ، يتلقىّ وثبات الخوارج عليه من كل صوب. وكان اولهم بعد مصرع يوسف والصميل، القاسم بن يوسف وحليفه رزق بن النعمان الغساني. وكان القاسم حينما فرّ من طليطلة سار الى الجزيرة الخضراء والتجأ الى شيخها رزق بن النعمان صديق ابيه وحشد حوله جمعاً من الأنصار والمرتزقة واستولى بمعونة حليفه على شذونة، ثم سارا في قواتهما الى اشبيلية ولم تكن بها قوة تدافع عنها فاستوليا عليها دون مشقة، فبادر عبد الرحمن الأموي في قواته الى اشبيلية ونشبت بينه وبين الخوارج معركة عنيفة قتل فيها رزق بن النعمان ومزق جنده. ودخل عبد الرحمن اشبيلية ظافراً في اواخر سنة ١٤٣، اما القاسم فالتجأ بقواته الى شذونة، وبعث عبد الرحمن في اثره تماماً والي طليطلة فطارده حتى اسره ومزّق قواته.

ولبث عبد الرحمن في اشبيلية بضعة اشهر، ولكنه ما كاد يغادرها الى قرطبة حتى نشبت ثورة اخرى بقيادة عبد الغافر اليماني زعيم اليمانية واستولى عبد الغافر على ما جاور قرطبة من الأنحاء وكثرت جموعه ولا سيما

---

١ ـ دولة الاسلام في الأندلس من الفتح الى بداية ولايه عبد الرحمن الناصر. العصر الأول ـ القسم الأول ص = ١٥٧ وما يليها.

من البربر، واصبح يهدّد قرطبة، فخرج عبد الرحمن لقتاله والتقيا بوادي قيس على مقربة من قرطبة، فاستمال عبد الرحمن حلفاء عبد الغافر من البربر وانفض عنه جندهم واقتتل الفريقان فهزم عبد الغافر هزيمة شديدة وفرّ الى «لقنت»[٢] وطارد عبد الرحمن جنده حتى قتل منهم الوفاً عديدة سنة ١٤٤ هـ.

ولنتوقف الآن قليلاً عن القتال والحرب وسفك الدماء وننتقل الى البنيان:

قصر الرصافة:

كان هذا القصر مما ابتناه عبد الرحمن بن معاوية في اول ايامه لنزهته وسكناه. اكثر اوقاته قضاها في منية الرصافة التي اتخذها بشمال قرطبة منحرفة الى الغرب فاتخذها قصراً حسناً وجناناً واسعة ونقل اليها غرائب الفردوس واكارم الشجر من كل ناحية واودعها ما كان استجلبه يزيد وسفر رسولاه الى الشام من النوى المختارة والحبوب الغريبة حتى نمت بمين الجد وحسن التربية في المدة القريبة اشجاراً معتمة اثمرت اغرب الفواكه انتشرت عما قليل في ارض الاندلس فاعترف بفضلها على انواعها.

قال: وسماها باسم رصافة جده هشام بارض الشام الأثيرة لديه ولميله في اختيار هذه وكلفه بها وكثرة تردده عليها وسكناه اكثر اوقاته فيها. طار لها الذكر في ايامه واتصل من بعده في ايثارها.

قال: وكلهم فضلها وزاد في عمارتها وانبرى اوصاف الشعراء فتنازعوا في ذلك فيما هو الآن مشهور ومأثور عنهم مستجاد منهم.

قال ابن سعيد: والرمان السفري الذي فاض على ارجاء الاندلس وصاروا لا يفضلون عليه سواه اصله من هذه الرصافة.

وقد ذكره ابن حيان وافرد له فصلاً فقال: انه الموصوف بالفضيلة المقدم على اجناس الرمان بعذوبة الطعم ودقة العجم وغزارة الماء وحسن الصورة.

---

٢ ـ Alicante الحالية

وكان رسوله الى الشام في توصيل اخته منها الى الاندلس قد جلب طرائف منها من رمان الرصافة المنسوب الى هشام بن عبد الملك.

قال: عرض عبد الرحمن الداخل على خواص رجاله مباهياً به. وكان فيمن حضره منهم سفر ابن زيد الكلاعي من جند الاردن ويقال هو من الأنصار الذين كانوا يحملون ألويه الرسول صلعم في غزواته. قال، وهم يحملون الالوية بين يدي الخلفاء من بني امية، فأعطاه من ذلك الرمان جزءاً فراقه حسنه وخبره فسار به الى قرية بكورة ريه فعالج عجمه واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله حتى طلع شجراً أثمر وأينع، فنزع الى عرقه وارغب في حسنه فجاء به عما قليل الى عبد الرحمن فاذا هو اشبه شيء بذلك الرصافي. فسأله الأمير عنه فعرفه وجه حيلته فاستبرع استنباطه واستنبل همته وشكر صنعه واجزل صلته، واغترس منه بمنية الرصافة وبغيرها من جنانه فانتشر نوعه واستسرع الناس في غرسه ولزمه النسب اليه فصار يعرف الى الآن بالرمان السفري قال وقد وصف هذا الرمان ابن روح الشاعر في ابيات كتبها الى بعض من اهداه له، فقال:

«ولابسة صدفاً احمر ... اتتك وقد ملئت جوهرا
كأنك فاتح حق لطيف ... تضمن مرجانه الاحمرا
حبوباً كمثل لثات الحبيب ... رضاباً اذا شئت او منظرا
وللسفر تعزى وما سافرت ... فتشكو النوى او تقاسي السرى
بل فارقت ايكها ناعماً ... رطيباً واغصانها نضّرا
وجاءتك معتاضة اذ اتتك ... باكرم من عودها عنصرا
بعود ترى فيه ماء الندى ... ويورق من قبل ان يثمرا
هدية من لو غدت نفسه ... هديته ظنه قصرا

وكانت اخت الأمير عبد الرحمن الأموي ام الاصبع ترسل اليه من الشام بالغرائب.

ولكن الثورات المتوالية على عبد الرحمن الداخل لم تكن تسمح له بالتمتع هنيئاً في هذه الجنان، فما يخمد ثورة حتى تهب اخرى فبعد تغلبه في اشبيلية كما رأينا على عبد الغافر اليماني زعيم اليمانية، رفع من بعده لواء الثورة في اشبيلية ايضاً حيوة بن ملامس الحضرمي كبير زعمائها وتغلب على

اشبيلية «واستجه[1]» وكثير من الأراضي الواقعة غربي اشبيلية في جنوب البرتغال ما بين نهر وادي يانة والمحيط، والتفّ حوله اهل هذه الأنحاء واستفحل امره.

سار اليه عبد الرحمن ونشبت بينهما معارك عنيفة ودافع الثوار عن انفسهم بمنتهى البسالة حتى كادت الدائرة تدور على عبد الرحمن. غير ان التفرق دب اخيراً الى صفوف الثوار ولحقهم الإعياء والملل فوقعت عليهم الهزيمة وفرّ زعيمهم حيوة وكتب الى عبد الرحمن يلتمس منه العفو والأمان، ١٤٤/٧٦١.

وما خمدت الثوة في اشبيلية حتى هبّت في طليطلة، وكان عبد الرحمن الداخل قد اختار لولايتها تمام بن عاقمة، ثم عيّنه لحجابته فكان اول حجابه، وخلفه في ولاية طليطلة حبيب بن عبد الملك. وكانت المدينة ما تزال تضطرم بعناصر الثورة وفيها كثير من انصار الفهرية، فلم يلبث زعيمهم هشام بن عزرة الفهري، ان اعلن الثورة واعتصم بالمدينة. فسار اليه عبد الرحمن وحاصره مدى اشهر حتى اضطرّ الى طلب الصلح وقدّم ولده رهينة بحسن طاعته فأجابه عبد الرحمن الى مطلبه وآثر ان يهادنه موقتاً. ولكنه ما كاد عبد الرحمن يصل الى قرطبة حتى هشام بن عزرة الفهري الى الثورة، فارتد اليه عبد الرحمن ليعاقبه على نكثه. وحاصره ثانية وقتل ابنه واطلق رأسه بالمنجنيق داخل الأسوار، ومع ذلك فلم يظفر بحمل الثائر على الاستسلام فعاد الى قرطبة ليضاعف اهبته، بيد انه لم يستطع ان يعود توّاً الى طليطلة اذ نمى اليه خبر حادث داهم الخطر يتطلب كل جهوده وقواه.

العلاء بن مغيث اليحصبي

كان الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور لم يغفل عن مثل هذا العدو الأموي ويتركه يؤسس دولة قوية، فحرض العلاء مغيث حاكم القيروان على محاولة الاستيلاء على الأندلس. جاء العلاء الى الاندلس سنة ١٤٦هـ

---

(١) Ecija الحالية.

ونشر الراية السوداء راية العباسيين فهرعت اليه الجموع وتطلع اكثر اهل الانـدلس الى خلع عبد الـرحمن فانضـووا تحت لواء العـلاء بن مغيث اليحصبي الذي اتصل برسل المنصور في افريقية واستصدر منه سجلاء بولايته للاندلس. ثم ارتدّ الى «باجه» بقوة كبيرة ودعا لبني العباس ورفع العلم الاسود واعلن انه قد عين أميراً للاندلس من قبل المنصور الذي حاول تحطيم مشاريع بني امية فيما وراء البحار.

واضطرمت «باجه» وما حولها بنار الثورة، وهرعت القبائل والاحزاب المختلفة الى الانضواء تحت اللواء الاسود لواء العباسيين ولا سيما الفهرية واليمنية وجند مصر، واستفحل امر العلاء وكثر جمعه وانضمّ اليه بعض الثوار في «شذونة».

خرج عبد الرحمن في جميع قواته من قرطبة، وبعث بدراً في بعضها الى شذونة فحاصرها حتى اذعن صاحبها غياث لطلب الصلح.

توجّه عبد الرحمن الى قرمونة ما بين قرطبة واشبيلية وهي مدينة كبيرة يضاهي سورها سور اشبيلية. وكانت فيها سلف بأيدي البربر، ولم يزل اهلها أبداً اهل النفاق، وهي حصينة على رأس جبل حصين منيع وهي على فحص ممتد، جيد الزراعات، كثير الاصابة في الحنطة والشعير وهي تبعد ١٨ ميلاً عن اشبيلية ومن مدينة قرمونة الى شريش من كورة شذونة ثلاث مراحل.

اتخذ عبد الرحمن في قرمونة موقف الدفاع، فسار اليه العلاء في جموعه وهاجم قرمونة مراراً وحاصرها مدى اسابيع حتى وهنت قوى جنده.

عندئذ انقلب عبد الرحمن من الدفاع الى الهجوم وداهم العلاء في صفوة جنده ونشبت بين الفريقين معارك شديدة حتى انهزم العلاء ومزق جنده وقتل منهم عدة الآف.

وكان العلاء نفسه بين القتلى.

ولا بأس في ان نسترسل قليلاً في وصف هذه المعركة التي كادت تقضي عـلى عبـد الـرحمن بحيث ان جنـوده صـاروا ينتحلون الاعـذار للانصراف الى منازلهم.

اختار عبد الرحمن سبعمائة رجل من صفوة حرسه ومغاوير ابطاله وامر بنار فأوقدت عند باب قرمونة المعروف بباب اشبيلية، ثم امر باجفان سيوفهم فطرحت في النار وأخذ كل واحد منهم نصل سيفه بيده وقال لهم عبد الرحمن:

«اخرجوا معي الى هذه الجموع خروج من لا يحدث نفسه بالنكوص على الاعقاب فاما الموت واما الانتصار».

وكان هجومهم من الاندفاع والقوة بحيث زلزل جيش العلاء فولى رجاله منهزمين واختلطت صفوفهم وفقدوا قادتهم وما يقرب من سبعة الآف رجل.

جيء بالعلاء واعلام رجاله فامر عبد الرحمن بقطع يديه ورجليه ثم ضرب عنقه واعناقهم، وامر فقرطت الصكاك في آذانهم باسمائهم واودعت جوالق محصناً ومعها اللواء الأسود.

وانفذ عبد الرحمن بالجوالق تاجراً من ثقاته واجزل له العطاء. وامره ان يضعه بالليل في اسواق القيروان، فالقيت في اسواقها سراً، واثارت هناك دهشة وارتياعاً. ووضعت رأس العلاء في سفط ومعها اللواء الأسود وسبل المنصور للعلاء وحمله بعض التجارة الثقاة الى مكة حيث كان المنصور يؤدّي فريضة الحج في العام التالي سنة ١٤٧هـ، والقى امام سرادق المنصور، وحمل اليه فارتاح لرؤيته وقال: «لقد عرضنا هذا البائس، يعني العلاء، للحتف. ما في هذا الشيطان مطمع فالحمد الله الذي صيّر هذا البحر بيننا وبينه.

وهكذا استطاع عبد الرحمن الداخل ان يسحق تلك الدعوة الخطرة، واخطر ما فيها انها دعوة عامة تدعمها الشرعية، ولم يكن اصلح منها لجمع خصوم عبد الرحمن من سائر الاحزاب والقبائل تحت لواء واحد.

ولما عاد عبد الرحمن الى قرطبة كانت الثورة التي يثير ضرامها هشام الفهري في طليطلة قد استفحلت واتسع نطاقها.

ارسل عبد الرحمن قائديه بدرا وتمام بن علقمة في جيش كبير الى طليطلة فطوّقها وشدّد الحصار عليها حتى ضاق اهلها ذرعاً واضطروا الى طلب الصلح، على ان يسلموا الزعماء الثائرين.

قبضوا على هشام وعدة من اصحابه فأخذوا الى قرطبة مصفدين معذبين. ثم صلبوا بأمر عبد الرحمن وتم بذلك القضاء على ثورة طليطلة سنة ٧٦٤م.

وفي اوائل سنة ٧٦٦/١٤٩ خرج سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بمدينة لبلة، مطالباً بثأر اليمانية الذين قتلوا مع العلاء فهرعت اليه اليمانية وقوى جمعه ثم سار الى اشبيلية فاستولى عليها، وارتد عنها واليها عبد الملك بن عمر المرواني لقلة جنده ولبث ينتظر المدد.

وكانت اشبيلية مطمح كل ثائر لقربها من قرطبة[1] ولانها لبثت مدى اعوام من اهم مراكز الثورة في الاندلس.

وخرج في الوقت نفسه غياث بن علقمة اللخمي بمدينة شذونة ناكثاً لعهده.

سار عبد الرحمن اولاً الى اشبيلية وانقلب المطري الى قلعة راعوق القريبة وامتنع بها، فحاصره عبد الرحمن وقطع علائقه مع بقية انصاره. فلما ضاق الثائر بالحصار ذرعاً حاول الخروج ليشق له طريقاً بين الجيش المحاصر. ووقعت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها المطري وارتدّت فلوله الى القلعة وقدموا عليهم خليفة بن مروان فاستمرّ عبد الرحمن في محاصرة الخوارج حتى اذعنوا لطلب الصلح وسلموا اليه قائدهم فقتله واستولى على القلعة وهدمها، ثم سار الى شذونة فحاصرها حتى اذعن اهلها لطلب الامان.

ابو الصباح بن يحيي اليحصبي

عرفناه في معركة المصارة وهو الذي ابدلت بغلته بفرس الأمير عبد الرحمن الداخل وهو الذي في نهاية المعركة اقترح على قومه تصفية عبد الرحمن الداخل فيخلو لهم الجو ولم يطاوعه في ذلك الحين احد على نيل بغيته..

---

١ ـ عبد الله عنان: المصدر السابق ص ص = ١٦٠ ـ ١٦٢

ولم يشأ الأمير الأموي ان يكشف له عن نواياه ولكنه ظلّ يضمر له الشر وينتهز الفرصة للتخلص منه وكان عبد الرحمن قد ولاه اشبيلية ثم عزله عنها لما ظهر من عجزه عن قمع الفتنة فغضب ابو الصباح واظهر الخلاف واجتمع اليه انصاره.

اظهر عبد الرحمن اللين والملاطفة فوجّه اليه عبد الله بن خالد يدعوه الى قرطبة للتفاهم معه وقد بذل له الوعود جزافاً.

وركن ابو الصباح الى تلك الوعود بحذر فسار الى قرطبة باربعمائة من رجاله. واستقبله عبد الرحمن في القصر وعاتبه على ما كان منه فاغلظ ابو الصباح في الجواب وهدّد الأمير ولامه على النكث بوعده له. فغافله عبد الرحمن ودعا جارية سوداء كانت قيمته وكانت تصلح له من حال الجواري وتتولى حملهن على ادبه واستحسانه فأتته بخنجر وقد همّ ابو الصباح بأن يبسط يده ويعتدي على عبد الرحمن فأمر بالفتيان به ثم طعنه في اوداجه بالخنجر حتى اوهنه ثم قتله الفتيان، وامر الأمير بلفه في مسح شعر وتنحيته وتغيير اثر دمه.

ثم ادخل وزراءه فاستشارهم في قتله ولم يعلمهم الا انه محبوس. فلم يشر عليه منهم احد بقتله وقالوا له: «على الباب اربعمائة فارس وجند الأمير غائب ولا نأمن ان يحدث من ذلك بلاء».

الا ان المرواني خالفهم فيما ذهبوا اليه واشار عليه بقتله وقال في ذلك ابياتاً من الشعر:

«يا ابن الخلائف اني ناصح لكمو   في قتـل ذي احن يرتـاد للنقم
لا يفلتنـك فيـأتينـا ببـائقـة   واشدد يديك به تبرأ من السقم
جلله غضباً من الهندي ذا شطب   ان الصرامة فيـه فعلة الكـرم».

فقال لهم: لقد قتلته».

ثم امر برأسه فأخرج وصاح صائح على اصحابه: «ان ابا الصباح قد قتل فمن اراد ان يلحق ببلده فليلحق آمنا».

فافترقوا وكأنه لم يحدث شيء.

وساءت هذه الفعلة ابا خالد فاعتزل خدمة عبد الرحمن ولزم منزله حتى مات.

وانسوس وتكفات

واستوحش عبد الرحمن من العرب قاطبة وعزم على الاستعانة بالبربر عليهم، وعادت الى ذهنه صورة تكفات وزوجها وانسوس الزعيم البربري، وتذكّر فضلهما عليه ولا سيما تكفات التي اخفته تحت ثوبها وانقذته من موت مؤكد. فلماذا لا يستعين بهما وبعشيرتهما؟ ولماذا لا يدعوهما الى قرطبة؟

وحسنت الفكرة فدعا مولاه بدرا وقال له:

ـ امامك يا بدر مهمة لا اريد ان اوكلها الى سواك لأنه لا يصلح لها احد غيرك. اتذكر وانسوس وزوجه تكفات؟

ـ اجل مولاي، لقد احسنا الينا وغمرانا بفضلهما وحسن ضيافتهما.

ـ رأيت ان ادعوهما مع قبيلتهما الى الاندلس فنستعين بهم في الشدائد، لأن العرب لا يمكن الركون لهم كما رأيت، الثورات تتوالى علينا عنهم.

ـ سمعاً وطاعة مولاي، انا مستعد للتوجه الى افريقية ساعة تأمرني بالتوجه اليها.

ـ تزوّد بما تحتاج اليه من مؤمن وخذ معك بعض الرجال ليكونوا لك عوناً عند الحاجة.

وخرج بدر من حضرة الأمير عبد الرحمن واستعرض في ذاكرته الأيام والسنوات الطويلة التي قضاها الى جانب الأمير في كفاح مستمرّ، لا يستقرّ قرار.

لقد سئم هذه الحياة المليئة بالعراك المتواصل، اليس من ايام هناء ينعم بها بعد طول الجهاد؟ ليس له ان يتذمر من المعاملة التي عامله بها عبد الرحمن حتى الآن، لقد قاد جيوشه وتولى السلطة في المقاطعات، ولكنه اصبح يميل الى الاستراحة الحلوة بعيداً عن البلاط، نفسه لا تطمح الى المزيد كفاه كفاه.

ونفذّ اوامر سيده فتوجه الى افريقية حيث تكفات ووانسوس. فسرّا

لرؤ يته من جديد كل السرور وسألاه عن احوال الأمير عبد الـرحمن، فالأخبار تصل اليهما عن الانتصارات التي يحرزها على الاعداء.

ولم يبخل عليهما بدر بالمعلومات، فهو قادم لاجلهما ليرافقاه الى قرطبة حيث ينزلان ضيفين كريمين على الأمير عبد الرحمن كما نزل هو ضيفاً كريماً عليهما، واحدة بواحدة.

ولم يتردد وانسوس في قبول الدعوة، وتكفات اشتاقت أيضاً الى رؤ ية الأمير الذي استحوذ على فؤادها ردحاً من الزمن، وما زال فؤادها يخالجه الحنين الى تلك الأيام التي قضاها الامير في الربع.

وبادرها بدر قائلا: «يستطيع ان يرافقنا من يشاء من اهل القبيلة، فقد اعددنا العدة لذلك.»

وشاع الخبر في القبيلة بسرعة البرق فلبّى الدعوة كثيرون من اقوياء السواعد ومن ذوي الهمم.

وعادت الى ذهن بدر رحلته الاولى الى الاندلس وقابل بينها وبين هذه الرحلة ووجد الفرق شاسعاً بينهما انه الآن يطاء ارضاً ترحّب به واميراً ينتظره، اما في المرة الاولى فقد سار على نية القدر دون ان يـدري ما سيكون مصيره في ارض لم يدخلها وشعب لا يعرفه.

وحملتهم السفينة مرة ثانية الى المنكّب انهم جماعة يزيد عددهم على مائة شخص فأكثروا الدواب لتنقلهم وتنقل اغراضهم وامتعتهم في رحلة طويلة تستغرق بضعة ايام في اتجاه قرطبة دار الامارة. لا خوف عليهم طرقهم آمنة ثم انهم اشداء لا يجبنون امام الصدمة الاولى.

وتوغلوا في كورة البيرة ووصلوا الى غرناطة دمشق بـلاد الاندلس ومسرح الابصار ومطمح الانفس وقد قيل فيها:

غـرنـاطـة مـا لهـا نـظير ما مصر ما الشام ما العراق
مـا هي الا العروس تجلى وتلك من جمـلة الصـداق

وتسمى كورة البيرة التي منها غرناطة دمشق لان جند دمشق كما قلنا سابقاً، نزلوا بها عند الفتح وقد سميت كذلك لشبهها بدمشق في غزارة الانهار وكثرة الاشجار.

ومن غرناطة توجّهوا الى «لوشة» وبها معدن للفضة جيد، وهذا القطر ضخم ينضاف اليه من الحصون والقرى كثير وقاعدته لوشة بينها وبين غرناطة مرحلة وهي ذات انهار واشجار وهي على نهر غرناطة الشهير «شنيل».

واخيراً بلغوا قرطبة ومروا فوق القنطرة المعروفة بالجسر، وقد ذكر ابن حيان ان هذا الجسر بني على امر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز وذلك ان هذا الخليفة لما تولى الخلافة ولى الاندلس السمح بن مالك، فكتب الى عمر يعلمه ان مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها. وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض فيه الشتاء عامة، فان امرني امير المؤمنين ببنيان سور المدينة لفعلت فان قبلي قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد، وان احب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم.

فيقال ان عمر امر ببناء القنطرة بصخر السور وان يبنى السور باللبن اذ لا يجد له صخراً فوضع يداً فبنى القنطرة سنة احدى ومائة.

وصلوا الى القصر فاستقبلهم عبد الرحمن احسن استقبال واحسن اليهما احساناً وحظي وانسوس عنده واكرم زوجته البربرية تكفات التي خبّأته تحت ثوبها عندما فتشت رسل ابن حبيب الفهري بيتها عنه.

وجاء ايضاً بنو رزين او بنو الأصلع وهم من اصل بربري استقروا في منطقة الثغور الاندلسية، وأحبّ عبد الرحمن ان يذكر تكفات بالماضي فقال لها مداعباً:

«اتذكرين يا تكفات لما خبأتني تحت ثوبك لقد عذبتني بريح ابطيك على ما بي من الخوف وسطعتني بأنتن من ريح الجيف».

وتكفات التي تنعم بذكاء فطري اجابته بسرعة:

«بل ذلك كان والله، يا سيدي، منك خرج ولم تشعر به من فرط فزعك.

فاستظرف عبد الرحمن جوابها واغضى عن مواجهتها بمثل ذلك.

شقيا بن عبد الواحد:

كأنه حكم على عبد الرحمن ان يظل طيلة حياته يكافح الثوار. فهذا ثائر آخر من نوع جديد شغل عبد الرحمن عدة اعوام بربري اسمه شقيا بن عبد الواحد، فقيه يعلم الصبيان مقيم في شرقي الاندلس، زعم انه سليل النبي ومن ولد فاطمة والحسين، وتسمي بعبد الله بن محمد فذاعت دعوته بين البربر في تلك المنطقة من شمالي شرقي الاندلس وهم الاكثرية فيها، والبربر ينقادون لأي انسان يظنون ان له مواهب خارقة العادة وقدرة فوق المألوف واتصالاً بما وراء الطبيعة، ويزيدهم اقبالهم عليه رغبتهم في السلب وميلهم الى الفوضى والحرب.

ولما آنس الدعي الفاطمي قوة جمعه سار الى «شانت بريه» فاستولى عليها ثم سار في جموعه غرباً فاستولى على ماردة وقورية وافسد يميناً فقويت دعوته وعظم امره واخذت العناصر المخالفة لعبد الرحمن من العرب في التحرك ايضاً. ولما ارسل اليه عبد الرحمن قوة يقودها عبيد الله استمال البربر من رجالها.

عهد عبد الرحمن الى والي طليطلة ان يقمع ثورة الدعي فوجّه الى شنتبريه جيشاً بقيادة سليمان بن عثمان فخرج اليه الفاطمي بقواته فهزمه وقتل قائده.

سار اليه عبد الرحمن سنة **١٥٢** هـ ونشبت بينه وبين البربر وقائع عديدة ثبت فيها البربر وامتنع الثائر بالجبال. فارتدّ عبد الرحمن الى قرطبة وارسل مولاه بدرا ليتابع القتال، فاستمرّ الفاطمي شقيا بن عبد الواحد ممتنعاً في الجبال محاذراً لقاء الجيش المهاجم.

وفشلت جميع الحملات المتوالية لاخماد الثورة في تلك المنطقة الوعرة، فعاد عبد الرحمن بجيش جديد الى شنتبرية، واستطاع في هذه المرة ان يوقع الخلاف في صفوف البربر ويستميل الى جانبه كبير البربر في شرقي الاندلس. اسمه هلال الميديوني واقره على ما بيده من الانحاء واصدر له عهداً بولاية الانحاء التي غلب عليها الفاطمي وفوض اليه امر استخلاصها منه.

وكان لهذه الحيلة اثرها في بث الخلاف في صفوف البربر، فانفض عن الفاطمي كثير من انصاره واضطرّ الى الانسحاب من شنتبرية الى الشمال ليعتصم بالجبال مرة اخرى.

حيوة بن ملامس

وبينما عبد الرحمن يدوخ البلاد الموالية للفاطمي الا بلغه كتاب من مولاه بدر في قرطبة بنشوب ثورة في اشبيلية ولبلة وباجة، محركها للمرة الثانية حيوة بن ملامس الحضرمي باشبيلية، فأجدّ السير حتى دخل قرطبة وبات بها ليلة ثم خرج بالجند وعلى ميمنته هشام ابنه ولم يكن قد بلغ بعد السابعة عشرة من عمره، وعلى ميسرته سليمان ابنه البكر، فالفى حيوة بن ملامس وعبد الغفار الحمصي وعبد الواحد بن سويد الكلاعي وعدي بن موسى الزناتي وشيعتهم قد نزلوا «ميسر» خلف المدور «بخمسة اميال بوادي الكلبيين وذلك يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال ١٥٧هـ.

وبعد مناوشات غير مجدية لجأ عبد الرحمن الى الحيلة فعهد الى جماعة من وجهاء البربر في جنده وفي طليعتهم وانسوس وقال لهم:

«خاطبوا بني عمكم وعظوهم واعلموهم انه ان تغلب العرب وقطعوا دولتنا فلا بقاء لهم معهم».

وارسل الرسل الى معسكر العدو في الظلام وخاطبوهم فأجابوهم الى ما احبوه ووعدوهم بالانحراف من الثائرين عند ابتداء المعركة وقالوا لهم:

«اننا سننهزم فليبق الامير علينا».

فلما كان من الغد استحرت الحرب وقالوا للعرب: «لا نحسن الحرب الا فرساناً فاحملوا من بقي منا على الخيل».

فارجلوا العرب وحملوا البربر على خيلهم، فدخل رجال البربر على خيلهم الى صفوف عبد الرحمن وجروا الهزيمة على سائر الجيش واعمل رجال عبد الرحمن سيوفهم في المنهزمين وقتلوهم قتلاً ذريعاً ولم يبقوا على احد لا بربري ولا عربي رغم الامر الذي اصدره عبد الرحمن بترك الفارين من البربر.

وقتل في هذه المعركة حيوة بن ملامس زعيم هذه الثورة وستة الآف رجل وفرّ عبد الغافر وركب البحر الى المشرق.

وقبض عبد الرحمن على ثلاثين من وجهاء اشبيلية ممن كانوا في جيشه وامر بهم فاعدموا ١٥٧هـ.

وفي العام التالي عاد عبد الرحمن الى مطاردة الفاطمي فالتجأ الى الجبال كعادته. ولم يجد عبد الرحمن سبيلاً الى اللحاق به فغزا قورية من اعمال ماردة وهي مدينة لها سور منيع، وهي في ذاتها ازلية البناء واسعة الفناء من احصن المعاقل واحسن المنازل ولها بواد شريفة خصيبة وضياع طيبة عجيبة واصناف من الفواكه كثيرة واكثرها الكرم وشجر التين.

ولكن ظلّ الفاطمي يهدّد سلام الاندلس.

وجرَّد عليه حملة قوية بقيادة تمام بن علقمة وعبيد الله بن عثمان فلقيها الفاطمي ووقعت بينهما معارك شديدة رجحت فيها كفته ولم يظفرا منه بطائل فعادا الى قرطبة، ونزل الفاطمي من الجبال الى شنتبرية ونزل بقرية اسمها قرية العيون وتآمر عليه اثنان من اصحابه هما ابو معن داود بن هلال وكنانة بن سعيد وانقضّا عليه ذات يوم وقتلاه واحتذّا رأسه وحملوها الى عبد الرحمن في قرطبة. وانطفأت تلك الثورة التي ظلت عشرة اعوام.

وكان انتهاء الفاطمى سنة ١٦٠هـ ٧٧٦م.

الثغر الاعلى سرقسطة

حتى الآن لم نتحدّث قليلاً ولا كثيراً عن شمال الانـدلس او ما يسمونه الثغر الأعلى حيث الأمور ايضاً لم تكن تجري على ما يرام بالنسبة للسلطة الأموية في قرطبة، فالثورة هناك وجدت مرتعاً خصباً ومجالاً واسعاً لتسرح وتمرح مطمئنة الى انشغال عبد الرحمن في قمع الثورات الأخرى التي تحدثنا عنها. لا اعتقد ان خليفة او اميراً من جميع الذين مرّوا على الاندلس قاسى ما قاسى عبد الرحمن الداخل من اعدائه. ظلّ ثلاثة وثلاثين عاماً يكافح الثوار بدون هـوادة ورغم الشدة ورغم القسـاوة والقمع والحيلة والخديعة التي استعملها جميعها الأمير الأموي لم يستطع ان يعيش بسلام ولو سنة واحدة دون ان تصل الى اسماعه أنبـاء نشوب ثـورة في تلك الأصقاع او في هذه الأصقاع من دولته. طموحه لا حدّ له ورغبته في التوسّع لجوج غير ان الثورات الداخلية حالت دون الجنوح الى مغامرات خارج الأندلس حدثته نفسه باسترجاع الشام العزيزة على قلبه من قبضة العباسيين، وحدثته نفسه باستئناف التوسّع نحو الشمال على حساب الافرنج ولم يحقق تلك الرغبة ومات وفي نفسه حسرة على دمشق وفي صدره غصة لأنه لم يحذ حذو أسلافه في الجهاد فاقتنع في تثبيت دعائم الدولة الأموية ومهّد السبل أمام خلفائه، والغريب في أمره ان عدداً كبيراً من هؤلاء نعموا برفده ونالوا ثقته وصداقته ثم تنكّروا له لسبب او لغير سبب مع علمهم بحرصه على السلطة وعلى النظام والأمن فلا يتسامح مع احد مهما بلغ من تقرّبه اليه، بالنشوز فالقصاص الرهيب ينتظر ذلك الناشز، ومع ذلك ومع تلك القساوة في قمع الثورات فقد ظلت تنشب بين حين وآخر بفترات قريبة وفي بعض الأحيان في عدة مناطق في الوقت ذاته. فكان رؤساء القبائل في الاندلس من عرب وبربر قوم يأبون الخضوع للنظام وللسلطة

الشرعية ويفضلون العيش في دويلات همّها محاربة بعضها البعض فيدسُّون ويتآمورن على السلطة المركزية لتقويضها وها نحن امام مؤامرة اشترك فيها زعيمان لذلك سلطة عبد الرحمن الداخل، بالاتفاق مع كارله سلطان الفرنجة هما: عبد الرحمن بن حبيب الفهري بن ابي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري. غير الفهري الذي طارده في افريقية فهذا يعرف بالصقلبي وكان قد تزّوج احدى بنات يوسف الفهري. وسمّي الصقلبي نظراً لطول قامته وزروقة عينيه وشعره الأصهب.

وثانيهم سليمان بن يقظان وتسميه الرواية اللاتينية «ابن الاعرابي».

سار سليمان الاعرابي مع عدد من الخوارج الى لقاء الامبراطور كارله او شارلمان في ربيع ٧٧٧ مسيحية ١٦٠ هجرية. وكان بلاطه في مدينة «بدربرن» من اعمال فستفالية (المانية)، وعرضوا عليه المحالفة ضد عبد الرحمن الداخل واقترحوا عليه غزو الثغر الاعلى، اي المناطق الشمالية، وتعهّدوا بتسليمه المناطق التي يحكمونها من قبل امير قرطبة ومن بينها سرقسطة قاعدة الثغر الاعلى.

تفسير سرقسطة باللسان اللاتيني هو «جيجار اوغست» اي قيصر اغسطس وهو الذي بناها وذكر انها بنيت على مثال الصليب وجعل لها اربعة ابواب: باب اذا طلعت الشمس اول المطالع في الصيف قابلت عند بزوغها ذلك الباب فاذا غربت قابلت الباب الذي يليه من الغرب واذا طلعت في آخر المطالع في الشتاء قابلت الباب الذي يليه وهو باب القبلة فاذا غربت قابلت الذي يليه.

والطريق من مدينة قرطبة الى مدينة سرقسطة طويلة تبتدىء في قرطبة الى «الصخرة» الى «ارميش» الى «جيان» الى «كركي» الى «قلعة رباح» الى «ارينش» الى «قصر بني عطيه» الى «ارتطش» الى «اقليش» الى «شنت بريه» الى «ولبة» الى «كونكة» الى «عقبة الهوارين» الى «وادي بني عبد الله» الى «بلاله» الى «تيرزل» الى «غرادش» الى «قلمشة» الى «دروقة» الى «فحص الحمام» الى «سرقسطة».

ومدينة سرقسطة أطيب البلدان بقعة واكثرها ثمراً، تفضل الثمرات

في الطيب. بنيانها على نهر «ابره» وهو النهر المنبعث من جبل البشكنس وينصب في البحر المتوسط بساحل مدينة طرطوشة. ولمدينة سرقسطة سقيا من نهر «جلق» ولأهل سرقسطة فضل الحكمة في صنعة السمور والبراعة فيه بلطيف التدبير في طرزها بكمالها منفردة بالنسج وهي الثياب المعروفة النسبة بالسرقسطية، لا تداني تلك الصنعة ولا تحكى في افق من الآفاق، وفيها معدن الملح الذراني وهو الملح الأبيض الصافي الأملس..

ومدينة سرقسطة ومدينة اشترقة في البنية والصناعة والاتقان والحصانة لا تعرف مدينة ثالثة تشبههما، غير ان مدينة سرقسطة واسعة الخطة بنيت على خمسة انهار منها النهر الاعظم نهر ابره، ومجراه من الجوف الى القبلة وهو لاصق بسور سرقسطة ومنها نهر جلق وهو شرق من مدينة سرقسطة وهو يسقي جناتهم المعروفة بالربض وجلق ومنها نهر شلون الذي عليه مدينة سالم ومدينة حريزة ومدينة قلعة ايوب ويسقي مدينة روطة، ويأخذ في سهل ووعر ويسقي من الارض ما لا يحصى كثرة ونهر بلطش وهو آخذ من الغرب والى الشرق، ومنها نهر فنتش وهو آخذ ايضاً من الغرب الى الشرق مع ميامين السور.

ويذكر انه لا يدخل مدينة سرقسطة حنش اصلاً ولا يعيش فيها فمن اهلها من يقول ان فيها طلسماً للحنش ومنهم من يقول ان اكثر مدينة سرقسطة مبني من الرخام الذي يجلب اليها وهو رخام رخو وهو صنف من الملح الذراني فهو الذي لا تقدر الحناش على دخول الموضع الذي يكون فيه ذلك الملح.

وبساتين سرقسطة غاية في البداعة فيها التين والزيتون واللوز والكرم واصناف الفواكه، واما نهر جلق فأصله بالاسبانية «جليقو» ولكن العرب سموه «جلق» لأنه اسم كدمشق «جلق».

وجاء في نفح الطيب ان موسى بن نصير لما وصل الى سرقسطة وشرب من مائها استعذبه جداً وقال انه لم يشرب بالاندلس اعذب منه وسأل عن اسم النهر الذي منه هذا الماء فذكروا له اسمه فقال: اذاً هذا نهر جلق وهذه غوطة دمشق لان البساتين التي تحدق بسرقسطة تشبه غوطة الشام.

وسرقسطة مدينة جيدة الهواء معتدلة لا يشتد الحر فيها ولا البرد وان القمح فيها لا يفسد ولو بقي مائة سنة وان العنب يؤكل فيها ولو تعلق ستة اعوام وانه لا يسوس فيها الخشب ولا يدخل العث على اثوابها صوفاً كانت او حريراً او كتاناً.

استولى العرب على سرقسطة سنة ٩٤هـ ٧١٢م. بعد اخذهم طليطلة بقليل. زحف اليها موسى بن نصير ففتحها وفتح القصاب والحصون التي حولها.

تلك هي سرقسطة التي شاء سليمان بن يقظان الكلبي «الاعرابي» ان يسلمها الى شارلمان ليساعده على خلع الأمير الاموي الحاكم في قرطبة.

وقد وضعوا خطة مدبرة هي هذه:

يعبر شارلمان جبال «البرتات» بجيش ضخم ثم يوافيه ابن الاعرابي وحلفاؤه في شال نهر الابرة والصقلبي بدوره يجمع جيشاً من البربر الافريقيين ويقودهم الى ولاية تدمير ويتعاون مع الغزاة في الشمال ويرفع علم الخليفة العباسي حليف كارله. وتكون الضربة موجهة من ثلاث جهات في الوقت ذاته اي اجتياح بلاد البشكنس من قبل شارلمان، انضمام ابن الاعرابي اليه ودخول تدمير من افريقية.

لو نفذت هذه الخطة لكانت قضت على عبد الرحمن وعلى العرب جميعاً في الاندلس ولمكنت شارلمان من الاندلس وضمه الى امبراطوريته التي تشمل قسماً من الجزيرة الابرية وهو برشلونة وضواحيها وفرنسة بكاملها والمانية.

انه حلم لذيذ راود كارله بضم شبه الجزيرة الابرية الى سلطانه. وتحالفه مع العباسيين نتيجة حتمية لادراك غرضه من الاندلس لكي يأمن تدخلهم فيما اذا عمد الى تنفيذ خطته،والبرهان على ذلك قدومه الى اسبانية بجيش ضخم تعززه معدات حربية ضخمة ايضاً. فما الحاجة لهذا الجيش الجرّار اذا كان قد جاء الى الاندلس لاستلام سرقسطة وتركه بلاده بدون حماية. اذاً نوايا شارلمان بعيدة المدى شاء ان يضم الى امبراطوريته الرومانية المقدسة كل ممتلكات رومة في اوروبة وحتى في شمالي افريقية اذا سايرته الظروف بحيث تعود الامبراطورية الرومانية الى ما كانت عليه سابقاً

منقسمة الى قسمين الغربية والشرقية: الغربية بما فيها شمالي افريقية واوروبة الغربية بكاملها، وتكون خاضعة لشارلمان والشرقية البيزنطية بما فيها اوروبا الشرقية. ولم يعد من سبيل للكلام عن بلاد الشام وفلسطين ومصر لان هذه المناطق خرجت نهائياً من سلطة بيزنطية بعد ان استولى عليها الاسلام.

ومن الطبيعي ان يخفي شارلمان خطته هذه عن حلفائه العرب والا تقاعسوا عن نصرته، ولا يستبعد ان يكونوا دروا بنواياه فردوه خائباً.

المهم في الامر انهم شرعوا في تنفيذ الخطة فثار ابن الاعرابي والي برشلونة او برشنونة والحسين بن يحيى الانصاري والي سرقسطة، فأرسل عبد الرحمن جيشاً الى الشمال بقيادة ثعلبة بن عبيد، لأنه لم يتمكن من قيادة هذا الجيش بنفسه فقد شغلته ثورة الفاطمي كما رأينا، غير ان سليمان هزم جيش عبد الرحمن وأسر قائده ثعلبة بن عبيد ٧٧٥م.

وجاز البحر عبد الرحمن الفهري الصقلبي سنة احدى وستين ومائة واحتلّ بكورة تدمير، فخرج اليه الامام عبد الرحمن بن معاوية، ولما بلغه قربه منه خرج من تدمير وتحصّن بجبال بلنسية واجتمع اليه البربر.
غير ان وصوله الى الاندلس كان مبكّراً اذ لم يكن شارلمان قد عبر بعد جبال البرتات.

وكتب الصقلبي الى سليمان بن يقظان (الاعرابي) يدعوه الى امره ويطلب نصرته. فأجابه ابن الاعرابي ان الخطة المتفق عليها تقضي ببقائه في الشمال حتى مجيء شارلمان. وكانت العداوة الأصيلة بين الفهريين واليمانيين من القوة بحيث تسمح بتكاثر الظنون وتراكم الشبهات.

اعتقد الصقلبي ان سليمان قد نكث بالعهد فغزاه بجموعه فهزمه سليمان فتحصّن الفهري في جبال بلنسية ونزع اليه رجل من البرانس يعرف بمسكار وصار من اصحابه وظهرت له منه نصيحة حتى صار من ثقاته واطمأنّ اليه، فاغتاله واخذ خيله وقدم على الامام عبد الرحمن بن معاوية برأسه فأعظم جائزته.

شارلمان في الثغر الأعلى

ولبّى ملك الفرنج دعوة الثوّار المسلمين ووافق على عروضهم. وبعث اليه سليمان بن الاعرابي بأسيره ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن عنواناً للثقة والتحالف، فسجن في احدى القلاع الفرنسية وانتظر كارله مضي الشتاء. ثم سار الى الجنوب وقضى اعياد الفصح في مدينة «اكيتين» وقرّر البدء بالغزو قبل حلول فصل الشتاء.

قسم جيشه الضخم الى قسمين عبر احدهما جبال البرتات من الناحية الشرقية وعبرها القسم الثاني بقيادة كارله نفسه من الناحية الغربية على الطريق الروماني القديم فوق آكام «جان ديلابور» التي تشرف على مفاوز رونسفال الوعرة، على ان يجتمع الجيشان على ضفاف نهر الابرة امام سرقسطة حيث يلتقي شارلمان بحلفائه المسلمين.

واخترق كارله بلاد البشكنس وحاصر عاصمتها بنبلونة واستولى عليها بعد قليل. والبشكنس يحاولون الاحتفاظ باستقلالهم منذ ايام القوط وكثيراً ما لجأوا الى الخروج والعصيان والامتناع بهضابهم وجبالهم الشاهقة. وكان هذا شأنهم حينما وفد شارلمان بقواته الضخمة فقد كانوا يحرصون على هذا الاستقلال ولا يودّون الخضوع لأي جهة، لا للافرنج ولا لمملكية ليون ولا لامارة قرطبة الاسلامية، فاضطرّ كارله لمحاصرة بنبلونة والاستيلاء عليها بالقوة. اما الجيش الفرنجي الذي اخترق شرقي المدينة فقد كان يسير في منطقة يسيطر عليها الفرنج مذ غاب عنها سلطان المسلمين ومن ثم فقد كان يخترق بلداً يرحب اهله بمقدمه املا في عونه وحمايته.

وشرع يتردّد اليه سليمان ابن الاعرابي الى بنبلونة.

ثم سار شارلمان الى سرقسطة ومعه سليمان. والقسم الآخر من الجيش اخترق منطقة جروندة وبرشنونة واتجه غرباً الى سرقسطة حيث انضم الى القوات التي يقودها شارلمان.

واعتقد شارلمان انه سيلقى هناك حلفاءه المسلمين يسلمونه المدينة، ولكن لم يحدث شيء من ذلك. فالحسين بن يحيي الانصاري والي سرقسطة وحليف سليمان ومؤيده في مشروعه لاستدعاء الافرنج نقم على سليمان،

على ما يظهر، لاتخاذه موقف الزعامة ازاء الافرنج فنشبت بينهما خصومة فعدّل موقفه في آخر ساعة حينما شعر بمسير شارلمان الى مدينته. وتقول الرواية العربية انه لم يكن في المدينة فسبق سليمان اليها وتحصّن بها.

فلما أشرف شارلمان مع حليفه سليمان على سرقسطة رفض الحسين استقباله والفى المدينة محصّنة متأهّبة للدفاع والمقاومة، فعبر نهر الابرة الى الضفة الاخرى وقدّم اليه سليمان رهائن عديدة ولكنه لم يستطع ان يفعل شيئاً لاقناع الحسين بن يحيى الانصاري لفتح المدينة، ولم يستطع شارلمان فتحها وردت المدينة المحصورة كل هجماته بشدة.

وعجز سليمان عن تحقيق وعوده في تسليم المدن والحصون الواقعة في تلك المنطقة، ولم يشأ ملك الافرنج ان يخوض في تلك الوهاد والهضاب الصعبة معارك لم يتأهب لخوضها، وارتاب من جهة اخرى في نية سليمان وموقفه فقبض عليه وارتدّ بجيشه نحو الشمال الشرقي في طريق العودة وكان ذلك في شهر تموز سنة ٧٧٨ (شوال سنة ١٦١).

ارتدّ شارلمان على رأس قواته المتجمعة وفي ركبه سليمان أسيره وعدد من الرهائن وسار شمالاً نحو بلاد البشكنس، وكان النباريون قد جمعوا فلولهم واعتزموا الدفاع عن حاضرتهم بنبلونة وعن حرياتهم خصوصاً وقد شجعتهم وقفة سرقسطة وصاحبها الحسين بن يحيى الانصاري ضد الملك الفرنجي. وانضمّ اليهم كثير من المسلمين من ابناء الأنحاء المجاورة للتعاون في دفع العدوّ المشترك. ولكن شارلمان هاجم بنبلونة بعنف ولم تجد بسالة النباريين وحلفائهم المسلمين نفعاً، فتركوا المدينة وتفرقوا في مختلف الانحاء واستولى شارلمان على بنبلونة للمرة الثانية وهدم حصونها واسوارها حتى لا تعود الى المقاومة اذا عاد الى تلك الانحاء، ولكي يمهّد لجيشه طريق العودة المأمون الى فرنسة.

وغادر شارلمان بنبلونة متجهاً الى جبال البرتات من طريق هضاب رونسفال المؤدية الى باب الشزري. فما الذي حدث عندئذ؟ الرواية العربية (ابن الأثير) ان شارلمان لما ابعد من بلاد المسلمين واطمأنّ هجم مطروح وعيشون ابنا سليمان في اصحابهما فاستنقذا اباهما ورجعا به الى سرقسطة.

وفي هذه الكلمات القليلة تشير الرواية العربية الى النكبة الهائلة التي اصابت الجيش الفرنجي امام باب الشزري وقد اسهبت الروايات اللاتينية في وصفها.

ويقول عبد الله عنان[1] ان شارلمان غزا اسبانية ولبث يحارب فيها سبعة اعوام حتى افتتح ثغورها ومدنها ما عدا سرقسطة وهو معقل الملك العربي «مارسيل» وكان يعسكر بجيشه بجوار قرطبة (يقصد عبد الرحمن) حين جاءته رسل «مرسيل» يعرض عليه الطاعة بشرط ان يجلو الفرنج عن اسبانية.

عقد شارلمان مجلساً من البارونات ومنهم رولان ابن اخيه. وكان رولان يرى ان تستمرّ الحرب ولكن فريقاً آخر من السادة برئاسة «غانلون» قند «ماينس» كان يرى ان الصلح والهدنة اولى. فغلب رأي هذا الفريق لأن الفرنج سئموا الحرب والقتال.

وارسل «غانلون» الى الملك «مرسيل» ليعقد معه شروط الهدنة فأغراه مرسيل واستماله بالتحف والهدايا واتفق معه على الغدر برولان وفريقه.

ثم عاد الى شارلمان وزعم ان مارسيل قبل شروط الفرنج وبذا قرّر شارلمان الانسحاب. وتولّى رولان قيادة المؤخرة. وكان معه الامراء الاثنا عشر وزهرة الفروسية الفرنجية.

ولما وصل الجيش الى قمة الممرات الجبلية رأى «اوليفير» احد الأمراء جيشاً من العرب يبلغ اربعمائة الف مقاتل، فتضرّع الى رولان ان ينفخ بوقه ليدعو كارله الى نجدته. فأبى رولان وانقضّ الجيش الهاجم على مؤخرة الفرنج ونشبت بينهما عدة معارك طاحنة واستمرّ رولان يأبى طلب النجدة حتى تمزّق جيشه ولم يبق منه سوى ستين رجلاً وعندئذ نفخ في بوقه يدعو شارلمان ثم قتلت بقية اصحابه ولم يبق منهم سوى رولان واوليفير واثنين آخرين.

---

١ ـ عبد الله عنان، دولة الاسلام بالاندلس صفحة ١٧٩ وما يليها العصر الأول ـ القسم الأول. يذكر الاستاذ عنان هنا الرواية الفرنجية عن تلك المعركة.

ولما شعر العرب ان شارلمان سيرتدّ بجيشه لقتالهم قرّروا الانسحاب. وكان زملاء رولان الثلاثة قد قتلوا واثخن رولان نفسه جراحاً حتى اشرف على الموت، ولكنه استطاع ان ينفخ في بوقه مرة اخرى قبل ان يموت ويسمع صوت شارلمان.

وسمع شارلمان صوت البوق على بعد مراحل عديدة فعاد مسرعاً وطارد جيش العدوّ وسحقه.

ودفن الفرنج قتلاهم وعوقب «غانلون» اروع عقاب، وتوفيت «الده» خطيبة رولان حينما علمت بموته.

هذه هي الرواية الفرنجية كما ذكرها عبد الله عنان. نقدّم رواية اخرى وهذه المرة تأتي من البشكنس الذين اشتركوا في المعركة وابادوا مؤخرة شارلمان. وهي رواية اقرب الى التاريخ من الرواية الفرنسية ويسميها البشكنس قصة «إبنيته» IBANETA

الرواية البشكنسية

جمع كارله قواده واعيان مملكته وقال لهم: دعوتكم للاستشارة لأن مساعدتكم ضرورية للسيطرة على شعوب اخرى. انا ملككم منذ عشرة اعوام. اريد الاحتفال بهذه الذكرى، تغلبنا على جيراننا ملوك الفرنج وبقي امامنا اخضاع البشكنس

منذ عامين أخضعتم اللومبرديين في ايطاليا واذا كنتم قهرتم الايطاليين البعيدين لا يصعب قهر البشكنس القريبين، وسيعرف كارله كيف يكافئكم.

في عام سبعمائة وسبعة وسبعين مسيحية
عاد كارله ظافراً من حربه مع السكسون
والآن جاء دور البلاد الواقعة وراء جبال البرتات.
شيء عجيب يجري في فرنسة
لم يشهد من ذي قبل
جاء سليمان الاعرابي يخاطب كارله في «بدبرن» «Pudeburn»
ـ برشلونة لك ومعها جيروندة ومعها سرقسطة
واصغى اليه كارله بانتباه ودون اجابة
فالمسألة خطيرة وبحاجة لتفكير رصين.

انه منذ زمان يحلم بالسيطرة على هذه المدن الزاهرة
يحلم فيها ليل نهار الى ان ذات يوم قرر امرا.
جنّد جيشين الواحد يقوده بذاته ويتوجه نحو بنبلونة
والآخر يقوده عظماء فرنسة ويتوجه نحو رونسفال.
ويلتقي الجيشان في سرقسطة لاستلامها.
نحن في عيد الفصح
زار كارله إمرأته «هيلدغارد» تنتظر طفلاً يضطرب في احشائها.
ودّعها وتوجّه الى بلاد «اكيتين»
ايها الجنود الأبطال، الى الأمام، الى بلاد البشكنس.
أكيتين استسلمت بدون قتال
ولكن البشكنس سيقاتلون.
انهم شعب عنيد فج، صلب العود.
نستريح في «برديل» قبل اجتياح بلاد البشكنس.
واقبل صاحب «وشقة» وانصاره على خيولهم العربية
يقدمون له مدينتهم وينضم اليهم الاعرابي.
وصل من ناحية برشلونة جيش آخر
رجال شقر الوجوه ممشوقو القامة
كلهم قاصدون سرقسطة المدينة الحصينة على ضفاف نهر الابرة.
واقبل سليمان صاحب برشلونة
وعد كارله بتسليمه المدن والقتال معه جنباً الى جنب.
شاء بهذا التصرف الخلاص من سيطرة قرطبة.
وعد سليمان بتسليم سرقسطة
وقد ترك فيها الحسين صديقه القديم
يحرس المدينة بانتظار قدوم الامبراطور،
فيضعان ذاتها تحت تصرفه.
ويصبح نهر الابره الحد الفاصل مع الاندلس
ويلتقي الجيشان الافرنجيان حول سرقسطة التي اوصدت ابوابها
لا رغبة لها في الاستسلام والتسليم.
فالحسين اتخذها معقله ولا يريد التخلي عنها.

خان سليمان صديقه منذ الطفولة
غضب كارله لا حد له.
اين سليمان الخائن؟ لا بد من القبض عليه.
لم يفهم كارله ان الزعيمين يطلبان الحماية من بعيد وبدون تعهدات.
سرقسطة على قيد انملة منه فكيف يتخلى عنها؟
لقمة سائغة ولا بد من التهامها.
وبدأ الحصار، حصار طويل
فاذا لم يستسلم الخائن كان الموت بانتظاره
لا احد يهزأ من الامبراطور
الى الأمام ايها الجنود الأبطال، تسلقوا الأسوار.
وعندما تدخلون المدينة تصبح مباحة لكم.
وطال الحصار ومرّت الأيام وتلتها الأيام
والمدينة صامدة لا تستسلم، لا جوعاً ولا عطشاً،
واشتدّ غضب الامبراطور كارله
وازداد حنقه على سليمان ابن الاعرابي.
رسول قادم يتصبب العرق من جبينه.
يسلم رقعة الى الامبراطور
ما بال كارله يكفهرّ وجهه ويبين الغضب في عينيه؟
قرأ الرسالة ودعا اخصاءه لاطلاعهم على فحواها
شق السكسوس عصا الطاعة
ماذا نصنع؟ سرقسطة تقاوم والجرمن يتمردون عند نهر الرين
فما رأيكم؟
وتكلم رولان: ايها الملك مضى شهران على هذا الحصار دون جدوى
فلنضرب الضربة القاضية لكي تستسلم المدينة
ثم نتوجه الى ضرب الجرمن، فرنسة لا تقهر.
وتكلم الآخرون وبينهم الأسقف «تربين» فقال:
لا بد من فك الحصار عن هذه المدينة
ثم التوجّه لمحاربة الجرمن وتأديبهم حتى لا يعودوا لمثلها
فالمسلمون والجرمن كفرة على السواء

بالصواب نطقت ايها الأسقف.
نفك الحصار ونأخذ معنا رهينة سليمان الاعرابي.

ايها الكافر، لا افهمك.
اين برشلونة؟ واين جيروندة واين سرقسطة؟
ما قصدك وما خطتك وما نواياك؟
هل تخشى عبد الرحمن في قرطبة؟
ان تريد من كارله ان يحميك من سطوته
هذا هو غرضك الوحيد اليس كذلك؟
سلم روحك الى ربك.
وانتم ايها المسلمون، ستلاقون جزاءكم.
الموت اقل ما ينتظركم عندما نعود ظافرين.
وسنعود ونصفدكم بالقيود اسرى.
وصمت سليمان المكبل اليدين.
ـ سنقوده الى بلادنا اسيراً طريداً شريداً.

ـ استودعك الله، يا نهر الابره،
سنعود وان كنت لا تصدق ذلك
ايها النهر نهر البشكنس والمسلمين
الرين يحسدك.
الى الأمام ايها الأبطال، الى تطيلة.
جيشان تحولا الى جيش واحد
الدواب تسير في المؤخرة تحمل المؤن والذخيرة.
سليمان مطروح في خباء واسع جميل
يصلي الصلوات الخمس في وقتها
يسهر عليه ثلاثة جنود
يحلون وثاق يديه وقت الطعام
والباقون يتجوّلون في المدينة في طلب الزاد والمؤن
يحملون البغال الشعير والحنطة من تلك المناطق الغنية
الثيران تسرح في مروجها الخضراء والخيول تصهل مرحة.

والنعاج والحملان ترعى مطمئنة
والجيش مد خيامه في تلك السهول.

الشمس شارفت على المغيب
عيشون ومطروح أبنا سليمان يتحادثان
اختبأا مع رجالهما قريبين من خباء والدهما
ينتظرون قدوم الليل لأنقاذ الأسير.
ويتحدث عيشون: اتذكر لما كنا صغاراً نقلد صوت الحمامة والحسون؟
عندما يجن الظلام تنسل دون ان يراك احد
وتربض على بيدر الحنطة
ثم تغني على طريقتك في تقليد الحسون
ويسمعك والدنا في الحال
ويدرك ان ابنه مطروح موجود في العسكر
يرشدنا دليلنا «الاكيتاني» الى مكان والدنا.
يريد الانتقام من الافرنج الذين اجتاحوا بلاده «اكتين».
نقضّ على الحراس ونقتلهم
وفي تلك الاثناء تكون قد انقذت والدنا
هكذا شاء الله ولا مرد لقضائه.
ودبرا الخطة لانقاذ الوالد.
الواحد يقترب من الخباء
والآخر يثير الغوغاء بعيداً عن المكان مع رجاله.
يجب ان يجري كل هذا في الليل
فالظلام يخفي الاحداث عن الانظار.

واقبل الليل، شبح يروح ويجيء ويقترب من المعسكر.
ويقلد عيشون تغريد الحسون.
ويصل النغم الى اذن الوالد
الله، ماذا اسمع؟ هذا عيشون بدون شك.
سيجدني مستعداً للفرار معه، بارك الله فيه.

وغلبه سرور ملأ جوانحه سيعانق ابنه العطوف قريباً.
انه يتشوق الى الحرية.
وصمت الحسون وهب النسيم ناعماً، سكون الليل مخيف.
ويقتربون من الحراس الذين غلبهم الضجر وبدأ النعاس يدبّ الى اجفانهم.
كبلوهم ثلاثتهم وكمّوا افواههم فلا يستطيعون النطق.
وتنشق الخيمة من احد الجوانب
ويدخل رجل خشن المظهر مستلاً سيفه ويفكّ وثاق سليمان
ويختفون صامتين في ظلام الليل
وعلت الضجة من مكان آخر من المعسكر وارتفع الصراخ ودبّت البلبلة
وشبّ حريق في القش المكوّم على البيادر
وانتشر الحريق بسرعة ولا احد يلم بما جرى.
فرّ سليمان مع ولديه قاصدين سرقسطة حيث ينتظرهم حسين بن يحيى الانصاري.

نهب بنبلونة

عشرة الآف بوق نفخت عند اسوار بنبلونة.
وهبّ الناس الى نوافذهم مذعورين
ووجّه كارله رسلاً الى صاحب المدينة طالباً اليه الاستسلام دون شرط.
وخرج الاسقف من المدينة قاصداً الامبراطور:
- الرأفة ايها الملك، الرأفة، انها شريعة الله.
وقال الملك غاضباً: كنوز مطرانيتك لنا.
ايها المطران البشكنسي اللعين لا اصغي لكلامك.
بلادك بلاد الشقاق والنفاق.
ايها الجنود تقدّموا
يهدم الجنود الأسوار والأبراج وينهبون ما وصلت اليه ايديهم.
تلك شريعة الملك كارله حامي النصرانية

ويخاطب الفرنسيون بعضهم البعض بهذه اللهجة:
ماذا غنمت يا اخي؟ لقد توفقنا في المدينة وغادرناها قاعاً صفصفاً.
وهبطوا الى النبع ليسقوا بغالهم ودوابهم
افواج وراء افواج تشربُ من نهر «ارغه»

ثم تترك المجال لافواج اخرى في صفوف طويلة.
ـ أرأيت كيف ان تلك العجوز لم تشأ التخلي عن فتاتها الجميلة؟
ـ أرأيت كيف دخل الرمح في بطنها؟ اسمعت القرقعة عند اخراجه؟
وذلك الرجل الفاني الطريح الفراش

وتلك الصبية البلهاء ومقاومتها عند افتضاضها ولكن نلت اربي منها اخيراً
والمطران الكليل يبصر قصره ينهب وليس في اليد حيلة يقول للملك ان ليس له من الكثلكة الا الاسم والاطفال كيف يركضون ويولولون.

بهذا البيان تبادل جنود كارله الاحاديث بالسرور الفلتان
انهم عائدون الى بلادهم
كارله يرغب الوصول في اقصى ما يكون من السرعة
امامهم مسيرة يومين قبل الوصول الى قمم «زيزا»
سيمرون بقرى كثيرة ناهبين سالبين
كل خروف وكل نعجة يصادفونها تصلح لغذائهم فيلتهمونها كالوحوش الضواري.

ويقول كارله: بعد ان نلنا اربنا من بنبلونة فلنتجه نحو الشمال
لقد ازدادت ثروتنا بما غنمناه من بنبلونة
اسير في الطليعة، وانت يا رولان تسير في مؤخرة الجيش
لا شك يا رولان انك قادر على اخراجنا من هذه المنطقة الجبلية الوعرة بسلام.
ويقول احد القوّاد واسمه ايفارت: من جهتي، لقد حصلت على مؤن كثيرة من الحبوب والحنطة واللحم

قائد اخر اسمه «انسلمه»: وانا حافظت على الذهب والجواهر في صناديق مقفلة
سأزيّن ايها الامبراطور قصرك احسن زينة لكي تنحني امامه رؤوس الكبار
لك اموال طائلة تستطيع بها شراء الرجال.
كارله: سنعود الى هذه الأصقاع بعد اخضاع السكسون وكسر شوكتهم، اجل سنعود.

في معسكر البشكنس

صراخ مديد رجعت صداه الوديان
والكلب النائم عند مدخل الباب استيقظ
ونفض اذنيه واصغى سمعه
وجاوبه صراخ آخر يختلف عن الأول.
انها حالة الطوارىء لتنبّه رجال «التبسكار»
واستيقظ ايضاً رب البيت واستجوب السماء:
ما هذا الاضطراب الذي يعكر صفاء الجو؟
وأسكت كلبه النابح ولكن النباح ظلّ يصل من بعيد
وما لبث ان صمتت الكلاب ولكن استمرّ الضجيج الأخرس
ترجع صداه اعماق الوديان.
الضجيج آتٍ من قمة «ابنيته» IBANETA
انه جيش زاحف
هل ظنّ قواد هذا الجيش ان البشكنس شعب رعديد يتجرأون عليه متى شاؤوا؟
الضجيج يتعالى ويقترب صليل الدروع والسيوف والرماح. ووقع حوافر الخيل على الحصباء
كل شيء يشير الى ان جيشاً يتقدم
واعطى حراس البشكنس العلامات المتفق عليها ايذاناً بالقتال.
فعمد رب البيت الى كنانته يعجم عيدانها والى قوسه يشده
وحذا حذوه الباقون من الرجال

وتسلقوا الجبال قاصدين الحراس الذين يراقبون تحركات العدّو
الآذان مرهفة لسماع الحركة المتصاعدة من الأعماق.
الرماة على اهبة ينتظرون قدوم العدو.
مهلاً انهم ما زالوا قليلي العدد
مهلاً حتى ينضم اليهم آخرون
وصلوا بصفوفهم المتراصة بين فارس وراجل يملأون جوف الوادي الضيّق
رماحهم تلمع يخالهم الرائي من الاعالي انهم نهر يقترب ببطء
اعلامهم المتلونة تشبه الأزهار التي اجتاحتها فصائل من النمل لا عدّ لها.
عدّوهم، عدّوهم جيداً، كم هو عددهم؟
واحد اثنان ثلاثة اربعة او خمسة ستة سبعة ثمانية تسعة او عشرة خمسة عشر ستة عشر سبعة عشر ثمانية عشر تسعة عشر او عشرون عشرون الفاً مع بعض مئات او اكثر.
نضيع الوقت في عدّهم جميعهم.

ماذا جاء يصنع كل هؤلاء الناس من الشمال
افرنج وجرمن، ما شأنهم ليعكروا علينا صفو سلامنا؟
يتقدمون باستمرار دون التطلع الى فوق حيث نستعد لضربهم الضربة القاضية.
فالله تعالى تبارك اسمه، صنع هذه الجبال والوديان وشاء الا يطأها المقاتلون
وهو العلي القدير خلق الصخور ايضاً في قمم هذه الجبال.
حجارة ضخمة متأهبة للانحدار عندما تدفعها اذرع الرجال.
لنوحّد جهودنا ونكشف عن سواعدنا
ولنقتلع هذه الصخور لتتدحرج الى اسفل فتسحق الفارس والراجل والقائد والجندي.
وتحطم يميناً وشمالاً وتلقي الذعر في الصفوف.
والصخور في انحدارها تجرّ معها صخوراً اخرى

تحدث جلبة وضجيجاً في انحدارها ينطفىء معه اي ضجيج آخر.
ولا شك ان المقاتلين نادوا بالويل والثبور والصراخ والشتائم والخوف والوجل والغضب والأنين
لم يسمع شيء من هذا فالرعد اسكت كل صوت آخر.
كم من العظام طحنت ومن الاترس انطوت ومن النفوس زهقت ومن الاسنّة تكسرت.
اهربوا اذا تيسر لكم الهرب انتم الذين كتب لكم النجاة من هذا الجحيم
اذا بقي لكم حصان يركض او اما زلتم تملكون اليسير من القوة.
اهربوا سريعاً قبل فوات الآوان.
لأن نبالنا جاهزة لتنصب عليكم كالمطر.
لا حيلة لكم في انقاذ اسلابكم واستخلاص قتلاكم
وانت يا كارله ذو اللحية الذهبية، عرفناك من بنودك الحمر الكبيرة
هوذا قريبك «رولان» البطل اضحى قتيلاً مجندلاً مهشماً في أعماق الوادي
لم تجده بطولته هذه المرة نفعاً لأنه قتل فابكِ عليه.
والآن ايها الأخوان دعوا الصخور وشأنها ولنهبط قليلاً لكي نتمكن من اصابة اهدافنا.
لقد ولوا الأدبار مخلفين قتلاهم
اين صفوفهم المتراصة كأنها صفوف النمل في قعر الوادي؟
اين صليل السيوف وبريق الرماح وخفق البنود؟
اسلحتهم ملطخة بالدماء غاب عنها البريق.
جيوش مندحرة تحولت الى قطيع
عدهم يا اخي، كم يبلغ عددهم؟ عدهم جيداً.
لا يصلون الى الف ولا الى مائة ولا الى اقل من ذلك
عشرون تسعة عشر ثمانية عشر سبعة عشر او ستة عشر؟
خمسة عشر اربعة عشر ثلاثة عشر احد عشر عشرة او تسعة؟
ثمانية سبعة خمسة ثلاثة اثنان واحد
ولا واحد ظل حيّاً جميعهم دخلوا في عالم الأموات.

انتهى كل شيء بقي الرقباء في اعالي الجبال
هلموا بنا الى منازلنا
عانقوا اولادكم وضمُّوا نساءكم إلى صدوركم دعوا كلابكم تسهر على مداخل بيوتكم نظِّفوا سهامكم وردوها الى كنائنكم
فالطيور تحلق فوق الوادي لها لحومهم والوحوش لها عظامهم
وتمتلىء حواصل الطيور وتشبع اجواف الوحوش.

رسول: مولاي الامبراطور الكبير، جئت بالخبر المشؤوم
ابيدت مؤخرة جيوشنا عن بكرة ابيها
الوف مؤلفة من فرساننا سقطت قتلى
ورولان ذاته سقط في ساحة الشرف.
كارله وحده: جيشي ورولان لم يبق لهم من وجود؟
سقطوا في بلاد البشكنس؟
ما جاء بي الى هذه الأراضي؟
البشكنس يحيطون بنا احاطة الاسوار بالمعصم
عليّ ان انجو بنفسي سريعاً
فلنغادر هذه الاماكن على عجل
فسكان «اكتين» يتربصون بنا الدواهي
ويا ويلنا اذا دروا بالداهية الكبرى التي لمّت بنا
شيمانه البشكنسي:
انجزنا مهمتنا وابدنا العدو وانقذنا البلاد
غنائم لا تحصى
وتستطيع منذ الآن ان تعيش بلادنا بسلام وتتنفس بحرية
لقد تخلصت من ألدّ اعدائها
حالفنا النصر
اصبح البشكنس اسياداً في اراضيهم.

تلك قصة معركة «ايبنيته» كما يصفها البشكنس ولا مبالغة فيها الا على ما اعتقد في عدد رجال كارله اذ تجعلهم الرواية فوق عشرين الف، فالمرجع انهم كانوا ستة الآف رجل ما بين فارس وراجل على هذا النحو

انتهت تلك المؤامرة الخطيرة التي كانت تنذر عبد الرحمن بن معاوية بأوخم العواقب. لم يحرّك الأموي ساكنا، يشاهد عن بعيد ما يجري في تلك المناطق الشمالية.

فلما تمّت فصولها شاء عبد الرحمن ان يجني ثمارها اليانعة فبعد ان اخمد عدة ثورات محلية توجه الى سرقسطة.

اخمد ثورة دحيه الغساني في بعض حصون البيرة ودحية هذا من اصدقاء عبد الرحمن ومن قادته ولكنه نكث بعهده ولحق بالفاطمي. فلما هلك الفاطمي فرّ الى البيرة واعلن بها الثورة، فأرسل اليه عبد الرحمن جيشاً ضيّق عليه الحصار حتى اخذ وقتل.

وثار ابراهيم بن شجرة بحصن مورور فبعث اليه عبد الرحمن مولاه بدرا فهاجمه وقتله.

وثار في الجزيرة الخضراء واليها الرماحس بن عبد العزيز بن الانباري بن السكران بن واقد.

وكان على شرطة مروان فلحق بالاندلس بعده فولاه عبد الرحمن بن معاوية الجزيرة الخضراء فخلع يوم الاثنين والقي اليه خبره يوم الجمعة في اليوم الخامس وبرز عبد الرحمن بن معاوية يوم السبت في الثاني من موافاة خبره ودخل الجزيرة غداة الاربعاء.

وكان الرماحس في داخل الحمام فجاست الخيل خلال ديار الجزيرة فلم يتدارك الرماحس لبس ثيابه والتحف في ملحفة مصبغة والناس في لجب ودخل في قارب لجأ فيه الى العدوة فسكن عبد الرحمن. ١٦٣هـ - ١٦٤هـ.

وفي اليوم التالي تأهّب عبد الرحمن لقمع الثورة في الشمال. ولما وصل الى سرقسطة كان سليمان قد مات لأنه اختلف مع الحسين بن يحيى الانصاري فدسّ الحسين عليه ذات يوم من قتله في المسجد الجامع وتفرّد بالحكم في سرقسطة وما حولها.

قد يكون انقلابه على سليمان بدافع من قرطبة لان عبد الرحمن وعد الانصاري بها، ولما وصل ابن معاوية الى سرقسطة كان الانصاري قد تفرد بها فسجّل له عليها وأخذ ولده سعيد رهينة وذلك سنة ١٦٥هـ

وكان عيسون بن سليمان الاعرابي قد هرب الى اربونة. فلما بلغه نزول الامير بسرقسطة اقبل فنزل خلف النهر وانضم اليه بمن معه لمقاتلة الحسين الانصاري.

فلما اشتدّ الحصار بالحسين طلب الصلح وقدّم ابنه سعيد رهينة، فأجابه عبد الرحمن الى ملتمسه وأقرّه والياً على سرقسطة

ثم عاد الى قرطبة ظافراً بعد ان وطد هيبة الحكومة المركزية في الشمال.

وكان سعيد بن الحسين قد فرّ من معسكر الامير اثناء الطريق.

ولما حل عبد الرحمن بقرطبة ورأى الحسين ان ولده قد عاد اليه سالماً نكث بعهده وعاد الى الثورة فاعتزم عبد الرحمن ان يعود لقتاله وان ينكل به وبأنصاره في تلك المرة فبعث الى الشمال جيشاً بقيادة غالب بن تمام بن علقمة فخرج حسين للقائه ووقعت بينهما معارك شديدة هزم فيها الحسين واسر ولده يحيى وعدة من اصحابه فأرسلوا الى قرطبة حيث امر عبد الرحمن باعدامهم.

وامتنع الحسين بالمدينة واستمرّ غالب في حصاره.

وفي العام التالي ٧٨٣ سار عبد الرحمن بنفسه الى سرقسطة وحاصرها بشدة وضربها بالمنجنيق ويقال انه حفها بستة وثلاثين منجنيقاً وضيّق على اهلها اشدّ الضيق فترامى القوم اليه واسلموا اليه حسينا فلم يقتل احداً من اهلها غيره وغير رجل من اهلها يقال له رزق وفرّ سعيد بن الحسين وعين عبد الرحمن قائده ثعلبة بن عبيد والياً لسرقسطة بعد ان افتداه من اسر الافرنج بمال كثير.

واقبل خواص الامير عبد الرحمن يهنئونه فجرى بينهم احد من لا يؤبه به من الجند فهنّأه بصوت عال. فغضب عبد الرحمن وقال في حدة: «والله لولا ان هذا اليوم يوم اسبغ عليّ من هو فوقي فأوجب عليّ ذلك ان انعم فيه على من هو دوني لاصليتك ما تعرضت له من سوء النكال. من تكون حتى تقبل مهنئاً رافعاً صوتك غير متلجلج ولا متهيب لمكان الامارة ولا عارف هيبتها حتى أنك تخاطب اباك او اخاك وان جهلك ليحملك على العود لمثلها فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة».

اجاب الرجل: «لعلّ فتوحات الامير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي فتشفع لي متى اتيت بمثل هذه الازالة لا اعدمنيه الله تعالى».
فتهلل وجه عبد الرحمن وقال: «ليس هذا باعتذار رجل جاهل».
واسترسل يقول: «نبهونا عن انفسكم اذا لم تجدوا من ينبهنا عليها».
ورفع رتبته وزاد في عطائه.

مؤامرة المغيرة الوليد بن معاوية.

ولما رجع عبد الرحمن من سرقسطة الى قرطبة فوجىء بمؤامرة رهيبة دبرت للاطاحة به. ابن اخيه المغيرة الوليد بن معاوية وهذيل بن الصميل بن حاتم. ولم تكن المؤامرة الأولى من نوعها فقد دبّرت عام ١٦٣ مؤامرة قام بها عبد السلام بن يزيد بن هشام المعروف باليزيدي. واشترك معه في المؤامرة عبيد الله بن ابان بن معاوية بن هشام وهو ابن اخي الداخل فوشي بهما مولى لعبيد الله بن ابان.

وكان قد اتهم بمساعدتها ابو عثمان كبير الدولة. فلم يحجم عبد الرحمن عن قتل ابن عمه عبد السلام اليزيدي وعبيد الله بن اخيه ابان، وعفا عن ابي عثمان لعدم ثبوت التهمة من جهة ولمكانته وسابق صنيعه.

ولم يحجم حينما وقف على المؤامرة الثانية عن قتل المغيرة بن اخيه الوليد وزميله هذيل بن الصميل ومن معهما.

وذكر الحجاري ان الداخل كان يقول:
«اعظم ما انعم الله تعالى به عليّ بعد تمكني من هذا الأمر القدرة على ايواء من يصل إليّ من اقاربي والتوسع في الاحسان اليهم وكبري في اعينهم واسماعهم ونفوسهم بما منحني الله تعالى من هذا السلطان الذي لا منة علي فيه لاحد غيره.»

وذلك لأنه نمى الى عبد الرحمن ان احدهم قال: «لولا انا ما توصل لهذا الملك»، ولكان منه ابعد من العيوق، ولا يذكر لنا التاريخ من قال هذه العبارة.
وقال آخر: سعده اعانه لا عقله ولا تدبيره».

فحركه هذا الكلام فقال:

«لا يلفي ممتن علينا قائل | لولاي ما ملك الأنام الداخل
سعدي وحزمي والمهند والقنا | ومقادر بلغت وحال حائل
ان الملوك مع الزمان كواكب | نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم ان لا يغفلوا | ايروم تدبير البرية غافل؟
ويقول قوم سعده لا عقله | خير السعادة ما حماها العاقل
ابني امية قد جبرنا صدعكم | بالغرب رغما والسعود قبائل
ما دام من نسلي امام قائم | فالملك فيكم ثابت متواصل».

وحدّث بعض موالي عبد الرحمن الخاصين به انه دخل على عبد الرحمن بن معاوية اثر قتله ابن اخيه المغيرة المذكور وهو مطرق شديد الغم فرفع رأسه اليّ وقال:

«ما عجبي الا من هؤلاء القوم سعينا فيما يضجعهم في مهاد الأمن والنعمة وخاطرنا فيه بحياتنا حتى اذا بلغنا منه مطلوبنا ويسّر الله تعالى اسبابه، اقبلوا علينا بالسيوف. ولما آويناهم وشاركناهم فيما افردنا الله تعالى به حتى امنوا وردت عليهم اخلاف النعم وهزوا اعطافهم وشمخوا بآنافهم وسموا الى العظمى فنازعونا فيما منحنا الله تعالى فخذلهم الله بكفرهم النعم اذ اطلعنا على عوراتهم ففاجأناهم قبل ان يعاجلونا وأدّى ذلك الى ان ساء ظننا بالبريء منهم وساء ايضاً ظنه فينا وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه. وان اشد ما علي في ذلك اخي والد هذا المخذول فكيف تطيب لي نفس بمجاورته بعد قتل ولده وقطع رحمه؟ ام كيف يجتمع بصري مع بصره؟

اخرج اليه الساعة فاعتذر اليه وهذه خمسة الآف دينار ادفعها اليه واعزم عليه في الخروج عني من هذه الجزيرة الى حيث شاء من بر العدوة.

قال: «فلما وصلت الى اخيه فوجدته اشبه بالأموات منه بالأحياء فآنسته وعرفته ودفعت له المال وابلغته الكلام. فتأوّه وقال:

«ان المشؤوم لا يكون بليغاً في الشؤم حتى يكون على نفسه وعلى سواه وهذا الولد العاق الذي سعى الى حتفه قد سرى ما سعى فيه الى

رجل طلب العافية وقنع بكسر بيت في كنف من يحمل عنه معرة الزمان وكله، ولا حول ولا قوة الا بالله، لا مردّ لما حكم به وقضاه».

ثم ذكر انه اخذ في الحركة الى برّ العدوة.

قال: ورجعت الى الأمير عبد الرحمن فأعلمته بقوله فقال:

«انه نطق بالحق ولكن لا يخدعني بهذا القول عما في نفسه، والله لو قدر ان يشرب من دمي ما عفّ عنه فالحمد لله الذي اظهرنا عليهم بما نويناه فيهم واذلهم بما نووه فينا»[1]

ابو الأسود محمد بن يوسف الفهري

وفي تلك الأثناء فرّ أبو الأسود محمد بن يوسف الفهري من سجنه ورفع لواء الثورة في طليطلة.

وكان أبو الأسود هذا سجيناً في قرطبة منذ مقتل ابيه يوسف الفهري. وأسر هذا للمرة الأولى ثم فرّ من سجنه وأسر ثانية في حوادث طليطلة ١٤٢ كما اشرنا. وتظاهر عندئذٍ بالعمى وأتقن حيلته حتى جازت على جميع الموكلين بسجنه. فأشفق عبد الرحمن عليه فأبقاه ولم يقتله مثلما فعل بأخيه.

وأنفق محمد في أسره أعواماً طويلة حتى اهمل شأنه ولم يعد احد يكترث به، عرف بالأعمى.

ثم سنحت له فرصة الفرار على يد بعض مواليه المتصلين به ففرّ من سجنه الواقع على النهر الكبير وجاز النهر سباحة ولحق بطليطلة سنة ١٦٨ وأعلن الثورة والتفّت حوله جموع كثيرة من الفهرية والقيسية ومن اليهم من عناصر الخروج والثورة.

سار في قوّاته صوب جيان، فأمر عبد الرحمن مولاه بدرا بالخروج اليه فقال بدر: «انما تعبنا اولا نستريح آخراً» وما أرانا الا في اشد مما كنا به».

فاضطرّ عبد الرحمن الى الخروج لقتاله بذاته، ووقعت بين الفريقين

---

١ - نفح الطيب ج٢ صفحة ٧٢ - ٧٣

معارك شديدة كان النصر فيها لعبد الرحمن غير ان أبا الأسود ظلّ محتفظا بمراكزه وقوّاته.

ونشبت اخيراً بينهما في مكان يعرف بمخاضة الفتح معركة قوية. ولجأ عبد الرحمن الى الخديعة فاتفق مع بعض قادة أبي الأسود على التقاعد والغدر فهزم أبو الأسود هزيمة شديدة وقتل من جنده عدّة الآف وغرق عدد كبير في النهر.

وطارده عبد الرحمن حتى قلعة رباح ومزّق جيشه كل ممزّق عام ٧٨٤ ولكن أبا الأسود لم يخضع ولم يهن عزمه فارتدّ الى جهة الغرب ونزل بقورية وعاد يحشد قوّاته لاستئناف القتال. وقوي أمره وبسط سلطانه على تلك الأنحاء. فسار عبد الرحمن لقتاله ثانية وهاجم قورية ففرّ في نفر من اصحابه الى منطقة طليطلة وهناك توفي لأشهر قلائل.

قام مقامه أخوه ابو القاسم بن يوسف الفهري واقترن بزوجته وعاد ينظم الثورة في طليطلة فسار عبد الرحمن لقتاله قبل استفحال أمره.

ولم يرَ ابو القاسم بدّا من طلب الصلح والتماس العفو فأجابه عبد الرحمن الى ملتمسه وصحبه معه الى قرطبة وردّ اليه بعض أموال أسرته فقد تذكر عبد الرحمن انه كان مدعواً لمصاهرة هذا الرجل وان اخته بعثت له جاريتها حلل التي رزق منها عبد الرحمن بولي عهده هشام، وظلت حلل مقربة اليه حسنة في عينيه حتى مماته.

تلك آخر ثورة قمعها عبد الرحمن ولم يعش بعدها سوى بضعة اشهر.

مسكين عبد الرحمن الداخل، لم يعرف الراحة والهدوء طيلة ثلاث وثلاثين سنة من حكمه قضاها حرباً وقمع ثورات فما ينتهي من ثورة حتى يعلق بأخرى وفي الوقت ذاته احياناً يكافح ثورات متعدّدة في آن واحد امرّ ما فيها تلك الثورات والمؤامرات التي حاكها ضده اقرب المقربين اليه مثل عبد السلام بن يزيد بن هشام اليزيدي وهو ابن عم عبد الرحمن، وعبيد الله بن ابان بن معاوية وهو ابن اخيه وغيرهما كثيرون.. قرّبهم وأحسن وفادتهم فكان جزاؤهم منه التنكر له والعمل على الاطاحة به. دخلوا

الاندلس لاجئين مثل غيرهم من بني مروان وبني امية: جزي بن عبد العزيز اخو عمر بن عبد العزيز وابو الأشعث الكلبي، دخل الاندلس وكان شيخاً مسناً، وكان مختصاً بعبد الرحمن بن معاوية وله منه مكانة لطيفة يدل بها عليه ولما توفي حبيب بن عبد الملك بن الوليد بن عبد الملك بن مروان وكانت له من عبد الرحمن خاصة لم تكن لأحد من اهل بيته، جعل عبد الرحمن يبكي ويجتهد في الدعاء والاستغفار لحبيب. وكان الى جنبه ابو الأشعث هذا قائماً وكانت له دالة على عبد الرحمن يتحمّلها منه. فأقبل عند استقبار حبيب كالمخاطب له علانية يقول: «يا أبا سلمان لقد نزلت في حفرة قلما يغني عنك فيها بكاء الخليفة عبد الرحمن بعده،». فأعرض عبد الرحمن وقد كاد التبسم يغلبه.

وجزي بن عبد العزيز اخو عمر بن عبد العزيز دخل الاندلس ومات في مدة عبد الرحمن الداخل. بشر بن عبد الملك بن بشر بن مروان، وهذا ايضاً دخل الاندلس على عهد عبد الرحمن، وكان أباه قد قتل مع يزيد بن معاوية بن عمر بن هبيرة والي العراق لمروان بن محمد آخر خلفاء بني امية في المشرق، وقد حاربته الجيوش الخراسانية بقيادة قحطبة. ولما قتل مروان الحمار سلم وامنه ابو جعفر المنصور ثم قتل بعد امانه.

دخل بشر ابنه الى الاندلس وكان من فتيان قريش وادبائهم وشعرائهم ومحاسنه كثيرة، وكان عبد الرحمن الداخل يحبه ويشاوره وهو الذي اشار عليه باصطناع البربر وادخال العبيد ليستعين بهم على العرب ومن قوله:

حنانيك ما اقسى فؤادك تذهب الى ليالي ولا عطف لديك ولا وصل
واني من قوم هم شرعوا الندى فكيف على ابنائهم يحسن البخل؟

ومحمد بن امية مولى معاوية بن يزيد بن عبد الملك، وكان والده كاتباً لعبد الرحمن. وعاصم الثقفي المعروف بالعريان، صاحب عبد الرحمن الداخل، لقب بذلك لأنه عبر نهر قرطبة يوم القتال وهو عريان، لما دارت معركة المصارة.

اجل لم يسعد عبد الرحمن بأقربائه وكان يتألم من ذلك كثيراً وصحّ فيه قول الشاعر:

«وظلم ذوي القربى أشدّ مرارة على القلب من وقع الحسام المهند»

ولا سيما اذا كان هذا القلب كلفاً بأقربائه مثلما هو عبد الرحمن.

ظنّ هؤلاء الأقارب ان التسامح من شيمة عبد الرحمن فيشفق عليهم اذا فشلت مؤامراتهم في القضاء عليه، خاب ظنهم ولاقوا حتفهم فعبد الرحمن متسامح الا في تلك الامور المتعلقة بالسلطة والدولة. لقد جاهد في توطيد دعائمها ثلاث وثلاثين سنة وأهرق من اجلها ريق شبابه ليتركها لمن بعده دولة قوية راسخة البنيان. لا استطيع ان ادرك بلاهة وحماقة الثوار الذين سوغت لهم نفسهم التمرد والعصيان والثورة اولاً وثانياً على عبد الرحمن صاحب السلطة الشرعية ولم يتعلموا الامثولة ممن سبقهم من الثائرين الذين كان نصيبهم الموت. الى هذا الحد تبلغ محبة السلطة عند بعض البشر فيخاطر بحياته ويسير الى فناء محتوم ويتورط في مغامرات نصيبها من النجاح ضئيل جداً؟

لا احد يلوم عبد الرحمن لأنه تصرّف على هذا النحو من الشدة بل يلام لانه لم يستعمل اقصى الشدة في استئصال دابر الثوار حتى لا يعودوا لمثلها ولكنهم عادوا لمثلها اولاً وثانياً.

ترك عبد الرحمن الداخل بعد ثلاثة وثلاثين عاماً من الجهاد والكفاح دولة متماسكة الاطراف قوية مزدهرة آمنة سالمة مرهوبة الجانب بعد ان عجز الاعداء من الداخل والخارج عن زعزعتها.

تنكر لعبد الرحمن جميع المقربين اليه بما فيه مولاه بدر، اجل بدر الذي رافق عبد الرحمن طوال حياته في السراء والضراء من ابتداء الدولة الى استقرارها، فأول ما بدأ به ان قال:

«بعنا انفسنا وخاطرنا بها في شأن من هانت عليه لما بلغ اقصى امله».

وقال أيضاً: «انما تعبنا اولاً لنستريح آخراً وما ارانا الا في أشدّ ما كنا به».

واطال امثال هذه الأقوال واكثر الاستراحة في جانبه فهجره واعرض عنه فزاد كلامه ،وكتب له رقعة منها:

«اما كان جزائي في قطع البحر وجوب القفر ،والاقدام على تشتيت

نظام مملكة واقامة اخرى غير الهجر الذي اهانني في عيون اكفائي واشمت بي اعدائي واضعف امري ونهى عند من يلوذ بي وبتر مطامع من كان يكرمني ويحفذني على الطمع والرجاء. واظن اعداءنا بنى العباس لو حصلت بايديهم ما بلغوا بي اكثر من هذا فأنا لله وأنّا اليه راجعون».

وأرسل الرقعة الى عبد الرحمن، فلما وقف عبد الرحمن على رقعته اشتد غيظه عليه فوقع عليها:

«وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك وسوء خطابك ودناءة ادبك ولئيم معتقدك، والعجب انك حتى ما اردت ان تبني لنفسك عندنا متاتاً[1]، اتيت بما يهدم كل متات مشيد مما تمنى به مما قد اضجر الاسماع تكراره وقدحت في النفوس اعادته مما استخرنا[2] الله تعالى من اجله على امرنا باستئصال مالك وزدنا في هجرك وابعادك وهضنا جناح ادلالك فلعلّ ذلك يقمع منك ويردعك حتى نبلغ منك ما نريد ان شاء الله تعالى فنحن اولى بتأديبك من كل احد، اذ شرّك مكتوب في امثالنا وخيرك معدود في مناقبنا».

فلما ورد هذا الجواب على بدر سقط في يده وسلم للقضاء وعلم انه لا ينفع فيه قول.

ووجّه عبد الرحمن الداخل من استأصل ماله وألزمه داره وهتك حرمته وقصّ جناح جاهه وصيّره أهون من قعيس على عمته، ومع هذا فلم ينته بدر عن الاكثار من مخاطبة مولاه تارة يستلينه وتارة يذكره وتاراً ينفث مصدوراً بخط قلمه ما يلقيه عليه بلسانه غير مفكر فيما يؤول اليه. الى ان كتب له:

«لقد طال هجري وتضاعف همي وفكري وأشدّ عليّ كوني سليباً من مالي فعسى ان تأمر لي باطلاق مالي واتحد به في معزل لا اشتغل بسلطان ولا ادخل في شيء من اموره ما عشت».

فوقع له:

---

١ - المتات هو الحرمة والقرابة

٢ - استخار بمعنى استعطف

«ان لك من الذنوب المترادفة ما لو سلب معها روحك لكان بعض ما استوجبته ولا سبيل الى ردّ مالك فان تركك بمعزلة في بلهنية الرفاهية[1] وسعة ذات اليد والتخلي من شغل السلطان اشبه بالنعمة منه بالنقمة فايأس من ذلك فان اليأس مريح».

فسكت لما وقف على هذه الاجابة مدة الى ان اتى عيد فاشتدّ به حزنه لما رأى من حاجة من يلوذ به وهمهم بما يفرح به الناس فكتب اليه في ذلك رقعة منها:

«لقد اتى هذا العيد الذي حالفت فيه اكثر من أساء اليك وسعى في خراب دولتك ممن عفوت عنه فتبنك النعمة في دارك واقتعد ذروة العز وانا على ضد من هذا، سليباً من النعمة مطرحاً في حضيض الهوان أيأس مما يكون وأقرع السن على ما كان».

فلما وقع على هذه الرقعة امر بنفيه عن قرطبة الى اقصى الثغر وكتب له على ظهر رقعته:

«لتعلم انك لم تزل بمقتك حتى ثقلت على العين طلعتك ثم زدت الى ان ثقل على السمع كلامك ثم زدت الى ان ثقل على النفس جوارك، وقد امرنا باقصائك الى اقصى الثغر فبالله الا ما اقصرت ولا يبلغ بك زائد المقت الى ان تضيق معي الدنيا. ورأيتك تشكو لفلان ولفلان وتتألم من فلان وما تقوله عليك وما لك عدوّ أكبر من لسانك فأطاح بك غيره فاقطعه قبل ان يقطعك»

وحكى المؤرخ الكبير ابن حيان: ان جماعة من القادمين عليه من الشام حدّثوه يوماً في بعض مجالسهم عنده، ما كان من الغمر بن يزيد بن عبد الملك ايام محنتهم وكلامه لعبد الله بن علي ابن عبد الله بن العباس الساطي بهم، وقد حضروا رواقه وفيه وجوه المسودة من دعاة القوم وشيعتهم رادا على عبد الله فيما اراقه من دماء بني امية وسلبهم البراءة منهم فلم تردعه هيبته وعصف ريحه واحتفال جمعه عن معارضته والرد عليه بتفضيله لأهل بيته والذب عنهم، وانه جاء في ذلك بكلام غاظ عبد الله

---

(١) البلهنية بضم الباء وتسكين الهاء: سعة العيش.

واغصه بريقه وعاجل الغمر بالحتف فمضى وخلف في الناس ما خلف من تلك المعارضة في ذلك المقام وكثر القوم في تعظيم ذلك. فكان الأمير عبد الرحمن احتقر ذلك الذي كان من الغمر في جنب ما كان منه في الذهاب بنفسه عن الاذعان لعدوهم والانف من طاعتهم والسعي في اقتطاع قطعة من مملكة الاسلام عنه وقام عن مجلسه فصاغ هذه الابيات بديهة:

شتان من قام ذا امتعاض ... فـرّ مـا قـال واضمحـلا
ومن غـدا مصلتـاً لعـزم ... مجـرداً لـلعـداة نـصـلا
فجاب قفراً وشقّ بحـراً ... ولم يكن في الأنـام كسـلا
فـبـزّ ملكـاً وشـاد عـزاً ... ومنبـراً للخـطاب فصـلا
وجنـد الجنـد حـين اودى ... ومصـر المصر حـين أجـلـى
ثـم دعـا اهـله جمـيعـاً ... حيث انتاءوا ان هلم اهلا
فجاء هـذا طـريـد جـوع ... شـديـد روع يخـاف قتـلا

ومن الذين تنكر لهم عبد الرحمن ابو عثمان الذي توجّه اليه بدر في القيام بسلطانه. ولما توطدت دولة الداخل استغنى عنه وعن امثاله وقد رأينا انه قلده في اول عهده مناصب هامة اذ اقامه والياً على قرطبة فشاء ابو عثمان ان يبرهن للداخل انه ما زال بحاجة اليه فأوغر صدر ابن اخته عليه وحمله على الثورة في حصن من حصون البيرة فوّجه عبد الرحمن من قبض عليه وضرب عنقه.

ثم اخذ ابو عثمان مع ابن اخي الداخل وزين له القيام عليه فسعى لعبد الرحمن بابن اخيه قبل ان يتمّ أمره فضرب عنقه وأعناق الذين دبّروا معه. وقيل لعبد الرحمن ان أبا عثمان كان معه وهو الذي ضمن له تمام الأمر فقال: هو «ابو سلمة» هذه الدولة فلا يتحدث الناس عنه بما تحدثوا عن بني العباس في شأن ابي سلمه لكن سأعتبه عتباً أشدّ من القتل، وجعل يوعده، ورجع الى ما كان عليه في الظاهر.

عبد الله بن خالد كان الثاني في المؤازرة والقيام بالدولة وهو صهر ابي عثمان.

فلما ثار ابو الصباح رئيس اليمانية كما اشرنا في محله وجّه اليه عبد الرحمن عبدالله بن خالد ووعده بأنه سيعفي عنه اذا اقبل الى قرطبة،

فجاء الى قرطبة كما رأينا بصحبة اربعمائة رجل من اعوانه ولما دخل على عبد الرحمن اخلف عبد الرحمن بوعده وقتله، فانعزل عبد الله واقسم لا يشتغل بشغل سلطان طيلة حياته. فمات منفرداً عن السلطان.

وكان ثالثهما في النصرة والاختصام تمام بن علقمة وقد ورد ذكره مراراً في هذا الكتاب فقد قاد الجيوش مراراً عديدة وهو الذي عبر البحر الى عبد الرحمن وبشّره باستحكام امره. فقتل هشام بن عبد الرحمن الداخل ولد تمام بن علقمة المذكور وكذلك فعل بولد ابي عثمان المتقدم الذكر، فذاقا من ثكل ولديهما على يد أعزّ الناس عليهم ما اراهما ان احداً لا يقدر ان ينظر في تحسين عاقبته. واذا تتبع الأمر في الذين يقومون في قيام دولة كان مآلهم مع من ينظرونه هذا المآل واصعب.

اول حجاب الداخل تمام بن علقمة ذو العمر الطويل، ثم يوسف بن بخت الفارسي مولى عبد الملك بن مروان، عبد الكريم بن مهران ومن ولد الحرث بن ابي شعر الغساني ثم عبد الرحمن بن مغيث بن الحارث بن حويذر بن جبلة بن الايهم الغساني وابوه مغيث فاتح قرطبة[1]. ثم المنصور الخصي وهو اول خصي استحجبه بنو مروان بالاندلس ولم يزل حاجبه الى ان توفي الداخل.

اول من كتب له عند خلوص الأمر له واحتلاله بقرطبة كبير نقبائه:

ابو عثمان وصاحبه عبد الله بن خالد المتقدما الذكر ثم لزم كتابته:

امية بن يزيد مولى معاوية بن مروان، وكان في عديد من يشاوره ايضاً ويفضل آراءه وكان يكتب قبله ليوسف الفهري وقيل انه ممن اتهم في ممالاة اليزيدي في افساد دولة عبد الرحمن فاتفق ان مات قبل قتل اليزيدي واطلاع عبد الرحمن على الأمر.

وذكر ابن زيدون ان الداخل وكّل على قضاء الجماعة بقرطبة:

---

١ ـ راجع كتابي «بلاي الرومي» ص: ٨٩ ـ ٩٠

- يحيى بن يزيد اليحصبي فاقره حينا ثم ولى بعده:

- ابا عمر ومعاوية بن صالح الحمصي

- عمر بن شراحيل،

ثم عبد الرحمن بن طريف.

وقال ابن حيان: «كان الامام عبد الرحمن الداخل راجح العقل راسخ الحلم واسع العلم كثير الحزم نافذ العزم، لم ترتفع له قط راية على عدو الا هزمه ولا بلد الا فتحه، شجاعاً مقداماً شديد الحذر لا يخلد الى راحة ولا يسكن الى دعة ولا يكل الامر الى غيره. كثير الكرم عظيم السياسة يلبس البياض ويعتم به ويعود المرضى ويشهد الجنائز ويصلي بالناس في الجمع والاعياد ويخطب بنفسه. جند الجند وعقد الرايات واتخذ الحجاب والكتاب وبلغت جنوده مائة الف.»

وحدث له ذات يوم حادث اقعده عن الاكثار من مباشرة الناس والسير بينهم، وذلك انه حضر في يوم جنازة فتصدّى له في منصرفه عنها رجل متظلم عامي وقاح ذو عارضة فقال له:

«اصلح الله الأمير ان قاضيك ظلمني وانا استجيرك من الظلم.

فقال له عبد الرحمن: تنصف ان صدقت

فمدّ الرجل يده الى عنانه وقال: «ايها الأمير أسألك بالله الا برحت من مكانك حتى تأمر قاضيك بانصافي فانه معك.

فوجم الأمير والتفت الى من حوله من حشمه فرآهم قليلاً، ودعا بالقاضي وأمر بانصافه.

فلما عاد الى قصره كلمه بعض رجاله ممن كان يكره خروجه وابتذاله فيما جرى فقال له:

«ان هذا الخروج الكثير، ابقى الله تعالى الأمير، لا يجمل بالسلطان العزيز وان عيون العامة تخلق تجلته ولا تؤمن بوادرهم عليه، فليس الناس كما عهدوا.

وترك من يومئذ شهود الجنائز وحضور المحافل ووكل بـذلك ولـده هشاما.

قصر الرصافة:

اتخذ الرصافة منتزهاً وبنى فيها قصراً حسناً وجناناً واسعة نقل اليها غرائب الغرس وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الأقطار وكانت اخته ام الاصبغ ترسل اليه من الشام بالغرائب مثل الرمان العجيب الذي ارسلته اليه من دمشق الشام، كما اشرنا في حينه.

ورأى عبد الرحمن نخلة منفردة في هذا المنتزه بالرصافة فأثار منظرها في نفسه شجناً وذكريات فجاء بالشعر:

«تبدت لنا وسط الرصافة نخلة   تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى   وطول اكتئابي عن بني وعن اهلي
نشأتِ بأرض انت فيها غريبة   فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غودى المزن في المنتأى الذي   يصحّ ويستمري السماكين بالوبل

ويقـول ابن الابار: «ان هـذه النخلة هي اول نخلة غرست في الاندلس ومنها تولد جميع النخل بالاندلس فيها بعد. واذاً فيكـون عبد الرحمن الداخل اول من نقل غرس النخل الى الاندلس في ما نقله من غرائب الشام الى الرصافة. ولكن يحق لنا ان نلاحظ ان العرب فتحوا الاندلس قبل ذلك بسبعين سنة ومن قبلها فتحوا افريقية، ومن المعقول ان يكون النخل قد نقل اليها مع ما نقلوا من اغراس بلادهم، وقد نقلوه قبل ذلك الى مصر منذ الفتح.

ومن المعروف ان الأمير الأموي عبد الرحن الداخل هو اول من ادخل اسم الرصافة في الاندلس عندما اطلقه على قصره الريفي في شمال شرقي قرطبة بنحو ثلاثة كيلومترات، وكان بهذا العمل يحاكي رصافة الشام التي بناها جده هشام بن عبد الملك في شمال شرقي تدمر بالشام. اما رصافة بلنسية فقد بناها ابن عبد الرحمن الأصغر الأمير عبد الله البلنسي.

وقال ابن حيان:

«ولما القى عبد الرحمن الاندلس ثغراً قاصياً غفلاً من حلية الملك عاطلاً، ارهف اهلها بالطاعة السلطانية وحنكهم بالسيرة الملوكية واخذهم بالآداب فأكسبهم المروءة واقامهم على الطريقة وبدا فدون الدواوين ورفع الاواوين وفرض الاعطية وعقد الالوية وجند الاجناد ورفع العماد واوثق الاوتاد فاقام للملك آلته واخذ للسلطان عدته فاعترف له بذلك اكابر الملوك وحذروا جانبه وتحاموا حوزته ولم يلبث ان دانت له البلاد فلذلك ماطل عدوه أبا جعفر المنصور بصدق حقه وبعد غوره وسعة احاطته ليسترجع عبد الرحمن كثيراً او يعدله بنفسه ويكثر ذلك ويقول: «لا تعجبوا لامتداد امرنا مع طول مراسه وقوة اسبابه فالشأن في امر فتى قريش الأحوذي الفذ في جميع شؤونه وعدمه لأهله ونسبه وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرمى ومرتقى همته ومضاء عزمه حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته ووقع بعضهم ببعض بقوة حيلته واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته حين انقاد له عصيهم وذل له ابيهم فاستولى فيها على اريكته ملكاً على قطيعته قاهراً لأعدائه حامياً لذماره مانعاً لحوزته خالصاً الرغبة اليه بالرهبة منه، ان ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه».

ومن النوادر العجيبة موافقة عبد الرحمن هذا لأبي جعفر المنصور في الرجولة والاستيلاء والصرامة والاجتراء على الكبائر والقساوة فان ام كل واحد منهما بربرية وان كلا منهما قتل ابن اخيه، اذ قتل ابو جعفر المنصور ابن ابي العباس السفاح، وقتل عبد الرحمن ابن اخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية.

وكان عبد الرحمن الداخل يقعد للعامة ويسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم ويتوصل اليه من اراده من الناس فيصل الضغيف منهم الى رفع ظلامته اليه دون مشقة. وكان من عادته ان يأكل معه من اصحابه من ادرك وقت طعامه ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج اكل معه.

وقد وصفه ابن زيدون فقال فيه: «كان اصهب[1] خفيف العارضين،

(١) الاصهب من كان في شعره حمرة او شقرة.

بوجهه خال، طويل القامة نحيف الجسم له ضفيرتان، اعور اخشم[1].

«لكن عـويـر وفي بـــذمتـه   لا عـور شـأنـــه ولا قصـر

وكان نقش خاتمه: «بالله يثق عبد الرحمن وبه يعتصم».

وأشاع سنة ١٦٣ هـ الرحيل الى الشام لانتزاعها من بني العباس، وكتب الى جماعة من اهل بيته ومواليه وشيعته وعمل على ان يستخلف ابنه سليمان بالاندلس في طائفة ويذهب بعامة من اطاعه. ثم اعرض عن ذلك بسبب امر الحسين الانصاري الذي انتزى عليه بسرقسطة في الثغر الاعلى، كما رأينا، فبطل ذلك المعزم.

بناء الجامع:

واعتاد عبد الرحمن ان يصلي في الجامع الأكبر يوم الجمعة ويخطب بالناس والناس يقبلون على سماع كلامه. وضاق الجامع على الناس فقد تكاثر عددهم.

ووصل عبد الرحمن الى سن ملّ فيها من الحروب وقمع الثورات والفتن والقلاقل، فقد توغّل في الخمسين ولم يترك اثراً يتحدث عنه اذا استثنينا الرصافة، فرأى ان يعمل عملاً صالحاً يكون له كنز يوم القيامة عند ربه.

وفي ذات يوم خرج من المسجد ودار حوله ومعه اخصاؤه ومنهم ابنه عبد الملك البلنسي الذي كان والياً على بلنسية، وصودف حضوره في ذلك اليوم لأنه جاء لتهنئة ابيه بعيد الأضحى فقال مخاطباً ابنه:

«يا ولدي لقد بلغت من الكبر عتباً وارهقتني السنون بل المصائب الكثيرة والخطوب والويلات والحروب والاهوال كلها اثرت فيّ واخذت من عمري ومن صحتي، وصرت اشعر ان ايامي اصبحت قصيرة على الارض.

ـ سلمت حياتك يا مولاي وطال عمرك، ما لهذه الافكار السود تتسرّب الى دماغك؟

---

(١) اخشم، لا يشم.

ـ لا تحاول ان تهونها عليّ، يا عبد الملك، عليّ ان اترك بعدي ما يرضى عنه الناس ويرضي خالقي. رايت في توسيع الجامع.

ـ التكاليف باهظة يا مولاي، ثم ان أصحاب الأملاك والبيوت المحيطة بالمسجد تخص النصارى واستملاكها بالقوة يثير سخطهم وما احوجنا الى ارضائهم، فكفانا تأليب الاداء علينا.

ـ صدقت يا بني، معاذ الله ان نستملك الاراضي بالعنف فنكون من السارقين الناهبين، والله لا يرضى ان يكون مسجده من سرقة اموال الضعفاء. نحن مستعدون للتعويض على الملاكين اضعاف الاضعاف. قدّم لي لائحة بأسماء الذين نحتاج الى اراضيهم، افترض ان التوسع يتناول ستة الآف ذراع. اريد الاسماء منك غداً.

ـ سمعاً وطاعة، سيدي.

وفي الغد كان يدخل على ابيه وقد أعّد لائحة بأسماء الذين يشملهم الاستملاك.

فقال عبد الرحمن: علينا ان نزورهم واحداً واحداً.

ويتوجّه عبد الملك بصحبة والده ومعهم حاشية قليلة العدد، فيدخل الأمير وابنه وتبقى الحاشية خارج البيت، ابيض مثل كل البيوت الاندلسية ذات الاحواش الداخلية المزينة بالازهار والورود ونافورات المياه.

يهرع رب البيت لاستقبال الزائر الكريم، انه لشرف كبير ان يزوره سيد قرطبة، لا يستحق هذا الاكرام، فما الداعي لهذه الزيارة غير المرتقبة.

فيخاطبه عبد الرحمن قائلاً: «ان هذه الدار التي هي لك اريد ان ابتاعها لجماعة المسلمين من مالهم وفيئهم لازيدها في جامعهم وموضع صلاتهم فشطط واطلب ما شئت. . .»

ـ ادام الله، سيدي الأمير، لو شئت شراء ارض لابني عليها بيتاً مثل بيتي لاحتجت الى الف دينار.

ـ لك ما طلبت ويضاعف الثمن.

فلم يصدق النصراني ما يسمع فيقترب ويجثو على ركبتيه ويقبّل يد الأمير.

وينتقل عبد الرحمن وحاشيته الى بيت آخر وآخر والقصة ذاتها. وصادف ذلك اليوم يوم احد فقد وجدهم جميعاً في بيوتهم لأنهم يستريحون في يوم الرب، او صتهم الكنيسة: احفظ يوم الرب.

وبلغوا اخيراً بيت عجوز مرتدية السواد حتى اخمص قدميها، تراكمت السنون على ظهرها فاحنته واثقلت سمعها الأيام وضعفت حواسها، تمتلك كوخاً وامامه نخلة فخاطبها عبد الرحمن:

- اسعد الله ايامك، يا خالة.

- بارك الله فيك يا بني،

فينتهرها عبد الملك قائلاً: انت في حضرة امير المسلمين سيد هذا البلد.

- وما حاجة الأمير ليزورني في بيتي؟

- جئت للسؤال عنك يا خالة ثم لأكلمك في شراء بيتك بالثمن الذي تطلبين.

- ومن أخبر الأمير ان بيتي في رسم البيع؟

وكاد عبد الرحمن يفقد رباطة جأشه ولكنه خاطبها بكل اناة وصبة:

- نحن بحاجة يا خالة الى شراء بيتك لكي نوسع المسجد.

- اذا كان الامر كذلك فأنا اريد بيتاً مثل بيتي هذا امامه نخلة.

- سيكون لك ما شئت يا خالة.

- تبتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال.

واشتريت لها دار بنخلة وبولغ في الثمن.

وكان شروع عبد الرحمن الداخل في بناء الجامع سنة ١٦٩ هـ

وكملت بلاطاته وأسواره في سنة ١٧٠ هـ وبلغت النفقة فيه ثمانين الف دينار. وقال أحد الشعراء فيه:

«وأبرز في ذات الاله ووجه ثمانين الفاً من لجين ومسجد
وانفقها في مسجد زانه التقى وقـرّ بـه دين النبي محمـد
ترى الذهب الوّهاج بين سموكه يلوح كلمح البارق المتـوقد

اورد بن عذارى في البيان المغرب ج ٢ ص: ٣٤١ - ٣٤٢ نصاً تاريخياً عاماً يتضمن تاريخ الشروع في بناء جـامع قـرطبة والفتـرة التي استغرقها، نقله عن الرازي الذي اقتبسه بدوره عن الفقيه محمد بن عيسى جاء فيه:

«انه لما افتتح المسلمون الاندلس امتثلوا ما فعله ابو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد على رأي عمر رضي الله تعالى عنه بالشام من مشاطرة الروم في كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما اخذوه صلحاً، فشاطر المسلمون اعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التي كانت داخل مدينتها تحت السور وكانوا يسمونها «بشنت بجنت»، وابتنوا في ذلك الشـطر مسجداً جامعاً، وبقي الشطر الثاني بأيدي النصارى وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة واقتنع المسلمون بما في ايديهم الى ان كثروا وتزيدت العمارة في قرطبة ونزلها امراء العرب فضاق عنهم ذلك المسجد وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكنون بها حتى كان الناس ينالون في الوصول الى داخل المسجد الاعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف وقصر ابوابها حتى ما يمكن اكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الارض.

ولم يزل المسجد على هذه الصفة الى ان دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية المرواني الى الاندلس واستولى على امارتها وسكن دار سلطانها قرطبة وتمدّنت به، فنظر في أمر الجامع وذهب الى توسعته واتقان بنيانه فأحضر أعاظم النصارى وسامهم بيع ما بقي بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله واوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذي صولحوا عليه فأبوا بيع ما في ايديهم وسألوه بعد الجد بهم ان يباحوا بناء كنيستهم التي هدمت خارج اسوار قرطبة من جهة الغرب وكانت تعرف «بشنت اجلح (سان اسيلا) على ان تخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذي طولبوا به.

فتمّ الأمر على ذلك وكان ذلك سنة ثمان وستين ومائة فابتنى عند ذلك عبد الرحمن المسجد الجامع وفي بنائه لهذه الزيادة يقول دحية بن محمد البلوي: وكمل سنة سبعين ومائة.

ويقول السيد عبد العزيز سالم[1]

ان عبد الرحمن الداخل اقام في موضع الكنيسة والمسجد الاول جامعاً استغرق بناؤه عاماً واحداً. كانت تقوم في ارض الجامع كنيسة تعرف بشنت فيجنت اقتسمها المسلمون مع النصارى في قرطبة واتخذوا فيها مسجداً كانوا يضيفون اليه سقيفة بعد سقيفة كلما ازداد عدد المصلين.

وتتصل بهاتين الحقيقتين ثلاث مسائل اساسية تتعلق بتاريخ بناء الجامع الأموي الأول كانت مثار الجدال بين رجال الآثار والباحثين نلخصها فيما يلي:

اولاً: المدة التي استفرقها بناء الجامع.

ثانياً: موضع الكنيسة بالنسبة للجامع

ثالثاً: عدد بلاطات المسجد الذي بناه الأمير عبد الرحمن الداخل.

ذكر ابن عذاري في النص الذي نقله عن الرازي عن محمد بن عيسى ان سنة ١٦٩ هـ تسجل تاريخ شروع الامير عبد الرحمن الداخل في هدم الكنيسة وبناء الجامع وان سنة ١٧٠ هـ تسجل الفراغ من اعمال البناء.

ويؤكد ابن عذاري في نفس النص ان بناء الجامع استغرق عاماً واحداً.

اما النص الذي أورده المقري في نفح الطيب فيحدد سنة ١٦٨ هـ لاجراء شراء الكنيسة من اصحابها والشروع في بناء الجامع راياً كان اختلاف النصين في تحديد مدة بناء الجامع فان قصر هذه المدة سواء كان

(١) صحيفة المعهد المصري عام ١٩٧٠ ص ٥٧٠ وما يليها.

ذلك عاماً او عامين اثار تحفظاً شديداً عند مؤرخي الفن الاندلسي والباحثين من المستشرقين فالمؤرخ «غومس مرينه» اول من عبّر عن شكوكه في هذه المدة القصيرة لبناء جامع عبد الرحمن بقوله: «ليس من المحتمل ان نقبل قيام جامع قرطبة على يدي عبد الرحمن الداخل في عام واحد، فالواقع انه بناء مساحة مسقفة تصل الى ٣٢٠٠ متراً، وانه مقام في وقت كان يعاني فيه الاندلسيون عصراً من الركود الفني دون الاستعانة بنصارى الشمال ولا الافادة من التقاليد الفنية الوافدة من الخارج، زد على ذلك تعقد بنيته وشراء عناصر بنيانه بالزخارف والتنميقات والدقة المتناهية في مظهر بنائه، كل ذلك يجعل من المستحيل ان يكون هذا البناء قد تمّ في هذا الأمد القصير.

وكذلك «لامبير» أبدى الملاحظة ذاتها فقال: «نخرج من هذا التاريخ بحقيقة اولية غريبة الى حد ما، فان عاماً واحداً في عصر عبد الرحمن الداخل وهو عصر كان البناء فيه ما يزال بدائياً في الاسلام المغربي يكاد لا يكفي لتحقيق المشروع الذي رسمه الأمير الأموي لبناء مسجد يضارع الجامع الذي كان اجداده قد بنوه في دمشق.

وتجاه هذه المشكلة الزمنية خرج لنا غومس مرينه «بنظرية جديدة قوامها ان بناء المسجد استغرق ست سنوات واستند في ذلك الرأي على نص من كتاب فتح الاندلس ولكن النص الذي ذكره لا يمت الى الجامع بصلة بل انه يعني جامع الجزيرة الخضراء الذي بناه عبد الرحمن بن خالد وليس للامير عبد الرحمن الداخل في بناء المسجد الجامع بالجزيرة صلة فالمسألة اذاً لا تعدو ان تكون مجرد خلط بين تاريخ بناء جامع قرطبة وتاريخ بناء جامع الجزيرة الخضراء.

والواقع ان مدة عامين او عام واحد لبناء مسجد عبد الرحمن الداخل ليست فترة قصيرة بحيث تثير مثل هذه المشكلة، والامثلة كثيرة في انشاء ابنية اضخم من جامع عبد الرحمن الداخل وافخم من الناحية الزخرفية في فترات قصيرة الأمر الذي يجعلنا نعتقد ان فترة بناء هذا الجامع الاول معقولة. اذا وضعنا في اعتبارنا ان استخدام بعض مواد البناء القديمة في الاعمدة الرخامية والاحجار التي استغلها المهندس من الكنائس القوطية

والرومانية المهدمة قد عجل بانهاء اعمال البناء بالاضافة الى ان الامير عبد الرحمن كان يسعى لاتمام البناء في اسرع وقت ممكن حتى يتيسر للمسلمين اداء صلواتهم الجامعة في المسجد الجديد. هذا مع اعتبار ان مهندس الجامع قد راعى البساطة في البناء وعدم التعقيد الذي من شأنه اطالة امد البناء. وظاهرة البساطة في الواقع تسود بناء هذا المسجد وزخرفته باستثناء النظام المعماري الرائع للعقود المتراكبة على صفين، فالمظهر الزخرفي العام يسيطر ويقتصر على تناوب الالوان الناشىء من استخدام قطع حجرية مع قوالب من ألأجر الأحمر، وكذلك تتجلى البساطة في تخطيط الجامع فهو لا يعدو ان يكون بيتاً للصلاة من تسعة بلاطات تنحصر بين ثمانية صفوف من العقود المتعامدة على جدار القبلة والاسقف كلها افقية لا تعترضها قباب مرتفعة تزيد من تعقيد البناء. كل ذلك يدل دلالة واضحة على ان بناء المسجد لا يقتضي استغراق اكثر من عامين من عمل متواصل. ولا شك ايضاً ان عبد الرحمن الداخل استخدم في بناء هذا الجامع عدداً كبيراً من البنائين والعمال والفعلة حتى ينتهي البناء سريعاً، وانفق عليه مبلغاً كبيراً من المال يصل الى ثمانين الف دينار وهو مبلغ طائل تغنى به الشعراء.

وبالاضافة الى كل ما سبق ان ذكرناه نذكر ايضاً ان الأمير عبد الرحمن لم يبنِ محراباً جديداً وانما احتفظ بالمحراب القديم الذي ركزّ حنش الصنعاني قبلته فنقله من موضعه القديم الى موضعه من البنية الجديدة وقد ثبت من الحفريات التي اجريت في موضعه من ارض الجامع انه لم يكن بارزاً عن جدار القبلة.

ولم يتهيأ للامير عبد الرحمن الداخل كما يقول السيد عبد العزيز سالم(١) ان يتمم بناء عناصر المسجد كلها كالصومعة وسقائف النساء والميضاة فاتمها ابنه وخليفته هشام الرضا.

وهكذا امكننا استناداً على ما ذكرناه ان نثبت امكانات اتمام بناء المسجد الذي اقامه عبد الرحمن الداخل بصورة تسمح باقامة الصلاة فيه في

---

(١) نفس المصدر ص ٦٢.

اقل من سنتين، وان كانت المصادر العربية لمحت بأن المسجد لم يكمل في عهد عبد الرحمن مما يقطع بأن اعمال البناء استمرّت حتى بعد اقامة الصلاة فيه سنة ١٧٠ هـ الى عام وفاة الأمير ١٧٢ هـ.

مشكلة تحديد موضع الجامع بالنسبة للكنيسة

يجمع مؤرخو العرب الذين ضمنوا كتاباتهم اخباراً عن مشروع الامير عبد الرحمن الداخل في بناء جامع قرطبة على ان موضع الجامع كانت تشغله كنيسة ولكنهم لم يضيفوا الى هذه الاشارة شيئاً من شأنه ان يوضح هذا الموضوع. وقد نقل الينا المقري اسم هذه الكنيسة فسماها كنيسة «سنت فنجنت» وهي الكنيسة التي اقتسمها المسلمون بعد فتح قرطبة مباشرة مع نصارى المدينة على نحو ما عمله ابو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد في دمشق بالنسبة لكنيسة يوحنا المعمدان، وان كان بعض المؤرخين يشك في صحة خبر هذه الكنيسة الدمشقية. ومن هنا تولد الشك فيما ذكره الرازي بشأن تقسيم كنيسة «سنت فنجنت» بقرطبة بين المسلمين والنصارى، وقد تأكّد ذلك الشك في صحة التقسيم منذ ظهور نتائج الحفريات الأثرية التي اجريت في ارضية بيت الصلاة الاقدم في عامي **١٩٣٢ - ١٩٣٣** فهي لم تؤدّ الى الكشف عن آثار الكنيسة باستثناء آثار رومانية ظهرت على عمق كبير وتقتصر على بعض بقايا فسيفساء رومانية واسس منازل تعلوها آثار لأسس بناء خرب، ارضيته من الملاط وجدرانه من البناء غير المنتظم يتألف من ثلاثة اروقة تتجه من الشرق الى الغرب.

ولكن هذا الكشف لم يقنع علماء الفن الاسلامي الاندلسي اذ لا يمكن لهذه الآثار الفقيرة من الناحية الفنية ان تكون لكنيسة قرطبة العظمى وعندئذ نشأت فكرة احتمال استغلال عبد الرحمن الداخل لبعض جدران الكنيسة العظمى بقرطبة في مسجده الذي بناه فيما بين عامي ١٦٨ - ١٧٠ هـ ففي هذا تفسير لقصر امد فترة بناء هذا الجامع[1].

---

(١) نفس المصدر ص ٦٢

وتبقى حقيقة ثابتة هي قيام عبد الرحمن الداخل ببناء جامع قرطبة في الموضع الذي كانت تقوم عليه كنيسة ولكن المشكلة التي نواجهها تتركز في هذه الحالة في معرفة الاجابة عن هذه الاسئلة:

في أي مكان من الكنيسة او بمعنى اصح في أي شطر من الكنيسة القديمة اقيم المسجد الذي ركز حنش الصنعاني قبلته؟ والى أي حد استغلّ المسلمون بنيان هذه الكنيسة؟ واين كان موقع النص الثاني من الكنيسة الذي اشتراه عبد الرحمن الداخل من اصحابه النصارى؟

وتصمت المصادر العربية صمتاً مطبقاً عن الاجابة على هذه الاسئلة.

يعتبر دوزي أول من أبدى رأياً في تقسيم كنيسة قرطبة ان نصارى قرطبة كانوا يتمتعون بكاتدرائيتهم حتى سنة ٧٤٧ م / ١٣٠ هـ ويستند في هذا الرأي على النص التالي الذي اقتبسه من اخبار مجموعة:

«ثم اتى بالأسرى وقعد لهم الصميل في كنيسة كانت في داخل مدينة قرطبة وهي اليوم موضع مسجدها الجامع فضرب اوساط سبعين منهم».

ويعلق دوزي على ذلك بقوله: «لم يكن نصارى قرطبة يحتفظون الا بالكاتدرائية المعروفة بسنت فنجنت، اذ كانت كنائسهم الاخرى قد هدمت وكانت معاهدة الصلح التي عقدها العرب الفاتحون معهم قد منحتهم حق ملكية هذه الكاتدرائية.»

ثم يذكر دوزي ايضاً ان هذه المعاهدة احترمت طوال سنين عديدة ولكن لما كانت قرطبة قد تلقت سيلاً دافقاً من السكان بوفود الاجناد الشامية واصبحت مساجدها لا تتسع لمثل هذه الكثرة العددية فكر الشاميون في ان يفعلوا ما فعلوه في دمشق وحمص وفي مدن اخرى من وطنهم حيث شاطر المسلمون النصارى في كنائسهم لاقامة مساجد، ووافقت حكومة قرطبة على هذا النظر وبذلك ارغم نصارى قرطبة عن التنازل عن نصف كاتدرائيتهم.

نستطيع التأكيد ان المسلمين شاطروا نصارى قرطبة كنيستهم المعروفة بسنت فنجنت وانهم اقاموا في القسم الذي آل اليهم مسجداً اسس حنش

الصنعاني وعبد الرحمن الحبلي محرابه بايديهما وركزا قبلته. ويبدو ان اتجاه القبلة كان منحرفاً نحو الجنوب ولكن امراء بني امية لم يفكروا قط في تعديلها بل ان الاميرين عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الاوسط حرصاً على الاحتفاظ بالمحراب الاقدم وظلت القبلة على هذا الانحراف حتى بعد قيام الخليفة الحكم المستنصر باجراء الزيادة في جامع قرطبة.

كان جامع قرطبة في عصر الولاة يشغل جزءاً من الكنيسة، لعله فناؤها او احد منافعها، اما الكنيسة الفعلية بمذبحها واروقتها فكانت في الشطر الذي آل الى نصارى قرطبة.

ولما عزم عبد الرحمن على بناء جامعه الجديد هدم هذا المسجد القديم وجعله صحناً فسيحاً لمسجده الجديد بينما اصبح الوضع الذي كانت تقوم فيه الكنيسة بيت الصلاة للمسجد الجديد، ويستند هذا الرأي الذي نبديه على نص هام اورده المقري وجاء فيه: وقال بعض المؤرخين في ترجمة عبد الرحمن الداخل ما صورته: انه لما تمهد ملكه شرع في تعظيم قرطبة فجدد مغانيها وشيد مبانيها وحصنها بالسور وابتنى قصر الامارة والمسجد الجامع ووسع فناءه.

وكان من الطبيعي ان يكون توسيع الفناء على حساب المسجد القديم الذي ابتناه الفاتحون من اللبن وسقفوه بالسقائف المتلاصقة المقامة سريعاً دون تخطيط سابق بحيث كانت كلما اضيفت الى السقائف سقائف اخرى كلما قلّ ارتفاع السقف لان زيادة هذه السقف كانت تتم من الجهة الشمالية لا الجنوبية التي كانت تتركز فيها القبلة، وهذا دليل واضح على ان هذه السقائف كانت تقع الى شمالي المسجد الذي اقامه عبد الرحمن لأن الأرض كانت تتدرج في الارتفاع في شمال المسجد فكلما التصقت سقيفة جديدة مع السقائف الاخرى كلما تطامنت الاسقف وصعب على المسلمين الصلاة وقوفاً. وكان من الطبيعي ايضاً ان يجعل عبد الرحمن الداخل صحن مسجده في الجهة الشمالية التي كان يقدم فيها المسجد القديم بسقائفه لان بناء هذا المسجد القديم كان بسيطاً من السهل ازالته دون مشقة، بينما كان من الصعب هدم الكنيسة المبنية من الحجارة. وعلى هذا الاساس فان كنيسة «سنت فنجنت» كانت تشغل الجانب الاعظم من بيت

الصلاة في جامع عبد الرحمن الداخل الذي اقيم على الجانب الغربي من مجموع المسجد الجامع بقرطبة بعد الانتهاء من الزيادة فيه. ونستند في ذلك ايضاً على نص اورده الحميري يؤكد ان الكنيسة كانت تقوم في القسم الغربي من المسجد الجامع بقرطبة بعد ان استكمل صورته النهائية، جاء فيه انه لما تأخر المعتمد بن عباد عن دفع الاتاوة التي كان يفرضها عليه الفونسه السادس ملك قشتالة امعن هذا في التجني فسأل في دخول امراءته القمطيجة الى جامع قرطبة لتلد فيه من حمل كان بها، حيث اشار اليه بذلك القسيسون والاساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي من معظمة عندهم عمل المسلمون عليها الجامع الاعظم.

بلاطات الجامع

رأينا ان الأمير عبد الرحمن الداخل شرع في بناء الجامع سنة ١٦٨ هـ ولكن الجامع لم يكمل في زمانه وكمل في زمان ابنه هشام ذلك لأن الأمير توفي في سنة ١٧٢ دون ان يستكمل الجامع جميع عناصره المعمارية كالمئذنة وسقائف النساء والميضاءة. والظاهر انه لم تتح له اقامة هذه المئذنة لانشغاله باتمام عمل البناء التكميلي في المسجد وبناء مساجد أخرى بنواحي قرطبة. فاذا كان المسجد قد اصبح سنة ١٧٠ هـ صالحاً لاقامة الصلاة الا انه كانت تنقصه كثيراً اعمال بنائية اخرى تستلزم وقتاً كافياً لبنائها بسبب قيام الجامع بممارسة وظيفته منذ عام ١٧٠ هـ، الأمر الذي كان يعطل القيام بهذه الاعمال. ويبدو ان عبد الرحمن الداخل كان قد قنع بأحد ابراج قصر قرطبة المجاور، ولعله كان يقع في سور القصر الشرقي قرب الركن الشمالي الشرقي ليقوم مقام المئذنة، وكان المسلمون في عصر الولاة يتخذونه كمئذنة لمسجد حنش الصنعاني.

بقي ان نعرف عدد بلاطات مسجد الأمير عبد الرحمن الداخل، وهذا يؤلف في حد ذاته احدى المشكلات الرئيسية في تاريخ جامع قرطبة، وقد انقسم المؤرخون ايضاً بالنسبة لهذه المشكلة الى فريقين: فريق يقول ان مسجد عبد الرحمن الداخل كان يشتمل على ١١ بلاطاً وهذا الفريق يعتمد اساساً على نتائج الحفريات التي اجريت في ارضية بيت الصلاة دون اعتبار

للنصوص التاريخية، والفريق الثاني ينادي بأن هذا المسجد كان يشتمل على تسعة بلاطات ويستدلون في ذلك على ما ورد في النصوص التاريخية وبعض الظواهر الفنية في المسجد.

ثم ظهر رأي ثالث يحارل التوفيق بين الرايين.

منهم من يقول ان عبد الرحمن الداخل بنى ١١ بلاطاً

وعيرهم يقول ٩ بلاطات.

والرأي الثالث يحاول التوفيق بين الاثنين كما اشرنا لأن النصوص التاريخية التي اكتشفها ليفي بروفنسال خاصة بجامع قرطبة في عصر الامير عبد الرحمن الاوسط حددت تحديداً دقيقاً عدد بلاطات الأمير عبد الرحمن الداخل ووضحت اعمال الامير عبد الرحمن الاوسط في الجامع.

وتؤكد هذه النصوص ان جامع عبد الرحمن الداخل كان يشتمل على ٩ بلاطات فاضاف اليها الأمير عبد الرحمن الأوسط بلاطين جانبيين في سنة ٢١٨ بحيث اصبح عدد بلاطات المسجد احد عشر بلاطاً.

ولكن هذا الوضوح والدقة اللذين تمثلهما هذه النصوص يتعارضان مع نتائج الحفائر الاثرية التي اجراها المهندس الأثري «فيلكس ارناندس Felix Hernandez» في ارضية المسجد واثبتت بصورة حاسمة اشتمال جامع عبد الرحمن الداخل على احد عشر بلاطاً. وهكذا اصبح هناك فريقان من الباحثين: فريق يستند الى التحليل الأثري في البناء وهو تحليل لا تتفق نتائجه مع النصوص التاريخية،

وفريق آخر يستند الى الوثائق التاريخية التي تنص صراحة وبصفة واضحة على ان المسجد الأول الذي بناه عبد الرحمن الداخل يتكون من تسعة بلاطات.

وهكذا يقول التاريخ ان الجامع الذي بناه عبد الرحمن الداخل (٧٨٦ ـ ٧٨٤) قاعة مستطيلة عرضها ٣٦,٩٠ متراً وطولها ٧٣,٩٥ متراً مساحتها ٢٧٢٨,٧٥ متراً مشكلة من ١١ رواقاً، وهي بعد جامع القيروان بمائة سنة، والمدينة والمسجد الاموي والأقصى في بيت المقدس وجامعاً سمّراء.

والتوسيعات الثلاثة التي ادخلت على جامع قرطبة جعلت مساحته تصل الى ١٢٤٣١ متراً مربعاً وهو اكبر جامع معروف في ذلك العهد.

وما دمنا نتحدث عن المساجد فلا بأس في ذكر اكبر المساجد في العالم.

الرباط	مساحته ٢١٦٤٤	متراً مربعاً	تاريخ بنائه ١١٨٤ - ١١٩٩ لم ينجز البناء
قرطبة	" ١٢٤٣١	"	٧٨٤ - ٧٨٦
			٨٣٣ - ٨٤٨
			٩٦١ - ٩٦٦
			٩٨٧ - ٩٨٨
القدس (المسجد الاقصى)	مساحته ٧١٤٢		٧٨٠ مسيحية
المسجد الاكبر دمشق	٥١٦٢	متراً مربعاً	٧٠٧ - ٧١٥
سامراء مسجد ابي دلف	٥١٣٠	"	٨٦٠ - ٨٦١
القاهرة الحاكم	مساحته ٤٠٥٨		٩٩٠ - ١٠٢٣ م
مسجد ابن طولون	مساحته ٣٧٩٠		٨٧٦ - ٨٧٩ م
مسجد القرويين (فاس)	مساحته ٣٨٨٧	متراً مربعاً	١١٣٥ م
مسجد الازهر	مساحته ٣٠٤٠	متراً مربعاً	٩٧٢ م
مسجد الزيتونة	١٦١٩	متراً مربعاً	٨٦٤ - ٩٩٥ م
المسجد الاكبر (القيروان)	٢٦٢٨	متراً مربعاً	٨٣٦ - ٨٧٥ م

عبد الرحمن وسارة القوطية وارطباس

كنا تحدثنا عن سارة القوطية وقدومها الى دمشق على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، لتشتكي ظلامتها من عمها ارطباس الذي استولى على جميع املاك ابيها بعد وفاته وقلنا ايضاً ان هشام اكرم وفادتها وزوجها من عيسى بن مزاحم وقدما معاً الى الاندلس، واعيدت لها ضياعها من عمها ارطباس ورزقت ولدين من عيسى بن مزاحم هما اسحق وابراهيم.

ولكن ما طال الامر ان توفي زوجها عيس بن مزاحم، وكانت ما زالت في ريق شبابها.

وقلنا ايضاً ان عبد الرحمن الداخل تعرّف عليها لما كانت في دمشق.

لما اقبل عبد الرحمن على الاندلس واستقامت له الأمور فيها، احبّت سارة ان تزوره فاستأذنت بالدخول عليه وكان حاجبه آنذاك ابن بخت.

وسرّ عبد الرحمن بمرآها من جديد وسألها وسألته عن احواله واحوالها، فأسهب لها عبد الرحمن في ذكر الاحداث التي مرّ بها والمخاطر

والاهوال التي قاساها حتى مكّنه الله اخيراً من الاندلس. وانت ماذا جرى لك في تلك الاثناء؟

ـ عدت الى الاندلس وردّت لي ضياع ابي ووجدت في زوجي عيسى بن مزاحم الذي زوّجني به جدك هشام رحمات الله عليه، خير مساعد على تدبير املاكي، ولكنه ما لبث ان توفي وخلّف لي ولدين هما طفلان صغيران.

ـ اما فكّرت في الزواج مرة اخرى وانت ما زلت في ريق الشباب؟

فاحمرت وجنتاها خجلاً، فقد مسّ كلامه منها الصميم، اجل لقد فكّرت في الزواج ولكن انى لها ان تجد ذلك الزوج الكفوء؟ لقد تقدّم لطلب يدها الكثيرون، فهي جميلة وغنية ولكنها لم ترض واحداً منهم، فقد يكون طامعين بمالها اكثر من طمعهم بها.

وتردّدت في الاجابة.

فأجاب عنها عبد الرحمن: سأبحث لك عن زوج يليق بك، لقد زوّجك جدي هشام رحمات الله عليه، وانا الكفيل هذه المرة بتزويجك هل وقعت عينك على رجل ارتضته نفسك؟

ـ كل يا مولاي، كلهم طامع وانا مترددة.

ـ يجب ان تتزوجي، المرأة الارملة الغنية معرضة دائماً لأطماع الناس عندما يجدونها كليلة مفلولة السلاح ليس لها من يدافع عنها. لقد وقع الاختيار على زوج قد يرضيك.

ونادى حاجبه ابن بخت قائلاً: اذهب وادع عمير بن سعيد.

ـ وبعد ساعة كان عمير بن سعيد يطلب الاستئذان بالدخول فسمح له به في الحال.

ـ السلام على مولاي الامير ورحمة الله وبركاته.

ـ وردّ عليه عبد الرحمن السلام وقال له: اتدري لم دعوتك؟

ـ لا يدري الغيب الا الله يا مولاي.

ـ دعوتك للاستشارة في مستقبلك، فانت لم تتزوج بعد مع انك ادركت سناً اصبح فيه الزواج ضرورياً.

ـ صدقت ايها الأمير، ولكني لم اعثر على امرأة تتوافر فيها الشروط المطلوبة، فاني ما ازال اذكر قصة الشاعر الضحاك في النساء.

فأحبّ عبد الرحمن ان يطلع على تلك القصة فقال: وما هي؟

ـ قال الحجاج بن يوسف يوماً وعنده اصحابه: «اما انه لا يجتمع لرجل لذة حتى تجتمع اربع حرائر في منزله يتزوجهن».

فسمع ذلك شاعر من اصحابه يقال له الضحاك، فعمد الى كل ما يملك فباعه وتزوج اربع نسوة، فلم توافقه واحدة منهن.

فأقبل الى الحجاج وقال له: سمعتك، اصلحك الله، تقول: لا تجتمع لرجل لذة حتى يتزوج اربع حرائر، فعمدت الى قليلي وكثيري فبعته وتزوجت اربعاً فلم توافقني واحدة منهن: اما واحدة منهن فلا تعرف الله ولا تصلي ولا تصوم، والثانية حمقاء لا تتمالك، والثالثة مذكرة متبرجة والرابعة ورهاء[1] لا تعرف ضرها من نفعها وقد قلت فيهن شعراً.
قال: هات ما قلت لله ابوك.
فقال:

«تزوجت ابغي قرة العين اربعا فيا ليتني والله لم اتزوج
ويا ليتني أعمى أصم ولم أن تزوّجت بل يا ليتني كنت[1] مخدع
فواحدة لا تعرف الله ربها ولم تدر ما التقوى ولا ما التحرج
وثانية حمقاء تزني مخانة تواثب من مرت به لا تعرج
وثالثة ما ان توارى بثوبها مذكرة مشهورة بالتبرج
ورابعة ورهاء[2] في كل امرها مفركة هوجاء من نسل اهج[3]
فهنّ طلاق كلهن بوائن ثلاثاً بتاتاً فاشهدوا لا الجلج.

---

(١) كذا في الاصل وهو اختلاف حركة الروي في الاعراب، والمخدج: ناقص الخلق.
(٢) ورهاء: خرقاء
(٣) مفركة: المرأة التي يبغضها الرجال.

فضحك الحجاج وقال: ويلك كم مهرتهن؟ قال: اربعة الآف، ايها الأمير، فأمر له باثني عشر الف درهم.

وضحك عبد الرحمن ايضاً من هذه القصة التي لا يعرفها مع انه كان يعرف القصص الكثيرة عن الحجاج فقال:

ـ لا يكون لك ذلك، ونادي سارة وقد كانت في مقصورة النساء لأنه لم يكن يحجبها عن حرمه ووقعت عين عمير بن سعيد عليها فراقت له، وسارة ايضاً اعجبها عمير وخفضت نظرها حياء.

وتمّ الزواج، وسعد الزوجان ويقول لنا التاريخ: ان سارة انجبت من عمير بن سعيد ولداً سمته حبيباً خرج من صلبه اربع عيال ارستقراطية اشبيلية منها بنو حجاج.

اما قصة عبد الرحمن الداخل مع ارطباس فنأخذها عن المؤرخ ابن القوطية حفيد سارة هذه التي تكلمنا عنها.

يقول ابن القوطية: «ان عبد الرحمن الداخل أمر بقبض ضياع ارطباس احد ابناء غيطشة الثلاثة، واوجب ذلك ان عبد الرحمن هذا نظر الى قبة ارطباس يوماً في بعض غزواته معه وحولها من الهدايا غير قليل اذ كانت الهدايا تتلقاه من كل محلة من ضياعه، فنفس ذلك عليه فقبضت منه وصار عند بني اخيه حتى ساءت حاله، فقصد قرطبة واتى الى الحاجب ابن بخت فقال له:

ـ استأذن لي على الأمير فاني اتيته لأتودّع منه.

فدخل الحاجب فاستأذن فأدخله عبد الرحمن على نفسه فنظر اليه في هيئة رثة فقال له:

ـ يا ارطباس، ما بلغ بك ها هنا؟

ـ انت بلغت بي ها هنا، حلت بيني وبين ضياعي وخالفت عهود اجدادك فيّ بلا ذنب يوجب ذلك عليّ.

ـ وما هذا التوديع الذي تريد ان تتودع مني: اظنك تريد التوجّه الى رومة

- لا، ولكني بلغني انك تريد التوجّه الى الشام.

- ومن يتركني ارجع اليها؟ وبالسيف اخرجت عنها؟

فقال له ارطباس: فهذا الموضع الذي انت فيه تريد ان توطده لولدك بعدك ام تأخذ منه ما اتخذ لك؟

قال عبد الرحمن: لا والله، ما اريد الا ان اوطده لنفسي ولولدي.

فقال ارطباس: فغير هذا العمل اعمل فيه.

ثم عرّفه بأشياء كان الناس ينكرونها عليه وبيّنها له.

فسرّ بذلك عبد الرحمن الداخل وشكره عليه وأمر له بعشرين ضيعة من ضياعه صرفت اليه وكساه ووصله وولاه القماسة، وكان اول قومس بالاندلس[1]

عبد الرحمن والشعراء ومجالس الانس

كان عبد الرحمن شاعراً ويحب الشعراء ويأنس بمجالستهم، وكان خارجاً الى الثغر الأعلى في بعض غزواته، فوقعت غرانيق في جانب من عسكره واتاه بعض من كان يعرف كلفه بالصيد، يعلمه بوقوعها ويشهيه بها ويحضه على اصطيادها فاطرق عنه ثم جاوبه:

«دعني وصيد وقع الغرانق فان همي في اصطياد المارق
في نفق ان كان او في حالق اذا التظت هواجر الطرائف
كان لفاعي ظل بند خافق غنيت عن روض وقصر شاهق
بالقفر والايطان في السرادق فقل لمن نام على النمارق
ان العلى شدت بهم طارق فاركب اليها ثبج المضائق
او لا فانت ارذل الخلائق

ومن شعره ايضاً في حيوة بن ملامس الحضرمي من جند حمص

(١) القومس او القمص في الاندلس هو القاضي الذي يتدبر شؤون النصارى

النازلين اشبيلية، وقد جئنا على ذكره في هذا الكتاب، فلما قتل في الثورة التي قام بها ضد عبد الرحمن في اشبيلية وفي باجة وفي لبلة فرثاه عبد الرحمن:

فلا خير في الدنيا ولا في نعيمها   اذا غاب عنها حيوة بن ملامس
اخو السيف قاري الضيف حقاً يراهما   عليه ونافي الضيم عن كل بائس

وقد جئنا على ذكر اشعار له في مكان آخر .

اما شعراؤه فنذكر منهم: كامن بن سعيد بن ابراهيم بن قيس. انه، كما يسمونه، فحل شعراء قرطبة كان يهاجي ثمانية عشر شاعراً فيعلوهم. وكانت آفته التهكم بالناس وتتبع زلاتهم وتمزيق اعراضهم فرموه عن قوس واحدة، ورحل الى المشرق فلقى ابا تمام الطائي وروى عنه شعره وكان يقرأ عليه بالاندلس وقرأ عليه يوماً احد المتعلمين قول حبيب ابي تمام.

«ارض خلعت اللهو خلعي خاتمي   فيها وطلقت السرور ثـلاثاً

فقال له: من سرور هذه اصلحك الله؟
فقال هي امرأة حبيب وقد رأيتها ببغداد.

وحمله طبعه الذميم الى ان افسد حاله عند مستخلصه هشام بن عبد العزيز وزير الامير محمد.

ابو المخشى عاصم بن زيد:

شاعر آخر دخل ابوه الاندلس من المشرق مع جند دمشق فنزل بقربة شوش، ونشأ ابنه على قول الشعر واشتهر به الا انه كان جسوراً على الاعراض فقطع لسانه هشام بن عبد الرحمن كما سنرى وانجبر قليلاً واقتدر على الكلام. وكان الشعراء يطعنون في نسبه بالنصرانية.

ولما قال فيه ابن هبيرة:

«اقلفتك التي قطعت بشوش   دعتك الى هجائي وانتضالي؟

اجابه بقوله:

سالت وعند امك من ختاني   بيان كان يشفي من سوالي

فغلب عليه.

وكان الذي غاظ عليه هشام بن عبد الرحمن انه قال في مدح اخيه سليمان المباين له:

«وليس كمثل من ان سيم عرفا   يقلب مقلة فيها اعورار

وكان هشام بن عبد الرحمن احول فاعتاظ وركب منه ما ركب من المثلة. وكبر ذلك على ابيه عبد الرحمن وعنّفه عليه واحسن الى ابن المخشى.

الجارية العجفاء:

والامير عبد الرحمن شغف بالغناء ويقال ان هذه الجارية تناولت عوداً وغنت:

«بيد الذي شغف الفؤاد بكم   تفريج ما القى من الهم
فاستبقني ان قد كلفت بكم   ثم افعل ما شئت عن علم
قد كان صرم في الممات لنا   فعجلت قبل الموت بالصرم

وغنت ايضاً:

برح الخفاء فيما بك تكتم   ولسوف يظهر ما تسر فيعلم
مما تضمن من عزيز قلبه   يا قلب انك بالحسان مغرم
يا ليت انك يا حسام بارضنا   تلقي المراسي طائعاً وتخيم
فتذوق لذة عيشنا ونعيمه   ونكون اخواناً فماذا تنقم

وقالت:

يا طول ليلي اعالج السقما   ادخل كل الاحبة الحرما
ما كنت اخشى فراقكم ابداً   فاليوم امس فراقكم عزما

فدرى عبد الرحمن بأمرها فابتيعت له العجفاء وحملت اليه.

وكان عبد الرحمن جيد النثر ايضاً وبارعاً في المراسلة فمن كتابه وجهه الى الاعرابي لما ثار في سرقسطة جاء فيه:

«اما بعد فدعني من معاريض المعاذير والتعسف عن جادة الطريق لتمدّ يداً الى الطاعة والاعتصام بحبل الجماعة او لازوين بنانها عن رصف المعصية نكالاً بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد.

المصلى

جرت العادة في مدن الاسلام في الشرق والغرب ان تقام الصلوات الجامعة الكبرى صلوات العيدين وصلوات المناسبات الخاصة مثل الاستسقاء في اوقات الجدب واحتباس المطر لا في المساجد الجامعة بل في الهواء الطلق في مصليات خاصة يتفق عليها خارج اسوار المدن حيث يكون هناك فضاء يتسع للجماهير الغفيرة التي تضيق بها المساجد. اما قرطبة فقد كان فيها مصليان كبيران هما مصلى المصارة ومصلى الربض.

مصلى المصارة = فقد كان يقع على الضفة اليمني للوادي الكبير نهر قرطبة في الفضاء الذي يحمل نفس هذا الاسم متصلاً بباب القنطرة عن طريق الرصيف الموازي لضفة النهر. ولفظ «المصارة» من الالفاظ التي اختصّت بها الاندلس ومنها انتقل الى الغرب وهو بمعنى الفضاء الفسيح الواقع خارج المدينة والذي يعدّ من منتزاهاتها. ولم تكن مدينة اندلسية تخلو من «مصارة» يخرج اليها الناس في ايام الاعياد للتروح والنزهة. وما زالت في اسبانيا مواضع كثيرة تحمل اسم «المصارة» الموروثة عن المصارة العربية.

وفي مدن المغرب مصارات كثيرة ما زالت تحمل هذا الاسم حتى اليوم. ومصارة قرطبة هي التي دارت فيها المعركة المشهورة بين عبد الرحمن الداخل ويوسف بن عبد الرحمن الفهري في سنة ١٣٨/٧٥٦ كما رأينا.

وكثيراً ما كانت تقام فيها المواكب الملكية واستعراضات الجيوش طوال ايام دولة بني مروان. هذا فضلاً عن صلوات الاستسقاء التي اشرنا اليها. ولم يكن في مصلى المصارة على طول عهد امراء بني امية بناء مشيد ولا محراب ثابت، وانما كان الامام يتخذ مقامه حيث يرى مناسباً، واول من بنى محراباً هناك هو عبد الرحمن الناصر اول خلفاء بني امية في الاندلس اذ أقام فيها محراباً مبنياً في سنة ٣٠٦ هـ ٩١٨ مسيحية

اما المصلى الاخر فهو مصلى الربض، وكان يقع على الضفة اليسرى للوادي الكبير في جنوبي المدينة وعلى مقربة من مقبرة الربض وتفصله عن قرطبة القنطرة ولهذا فقد كان الوصول اليه يقتضي عبور القنطرة بعكس مصلى المصارة الذي كان اقرب الى المدينة واكثر اتصالاً بها وهذا ما جعل الفقيه عبد الملك بن حبيب يؤثره على سابقه ويعده ارفق بالناس واقرب الى فضاء حوائجهم، على ما في عبور القنطرة من خطر الازدحام وما في جواز النهر على المراكب من خطر الغرق. وكانت «منية نصر» قريبة من مصلى الربض المذكور اذ كانت تقع على نفس الضفة اليسرى للوادي الكبير.

وكان الأمير عبد الرحمن الاوسط قد صوّب رأي عبد الملك بن حبيب في البروز الى مصلى المصارة وايثاره على مصلى الربض فليس هذا يعني ان صلوات الاستسقاء والعيدين قد انقطعت اقامتها في هذا المصلى الاخير، فنحن نعرف من اخبار سنة ٣٠٢/ ٩١٥ ان عبد الرحمن الناصر كان يقيم صلوات الاستسقاء هناك خمس مرات في ايام مختلفة بعد ان توالى القحط وانقطع المطر،

وفي سنة ٩٢٩ تكرر المحل واستمر احتباس الغيث فعهد الخليفة عبد الرحمن بالاستسقاء في المسجد الجامع وفي مصلى الربض ومصلى المصارة معاً.

وعبد الرحمن الداخل كان يقيم صلوات الاستسقاء في هذين المصليين عندما يطول انحباس المطر.

اولاد عبد الرحمن الداخل:

ترك الأمير عبد الرحمن الداخل ابناء كثيرين يهمنا منهم ثلاثة: ابنه الاكبر سليمان، ثم هشام ثم عبد الله البلنسي لانه كان والياً في بلنسية ١

ولد سليمان في الشام، وسمعنا قصة والده عبد الرحمن لما داهمته المسودة وفي يده خرقة يرفع الأذى بها عن عينيه ودخل عليه ابنه سليمان وليس له من العمر اكثر من اربع سنوات.

تربى سليمان في الشام وقضى فيها شبابه بعيداً عن ابيه، ثم قصد

الاندلس في امارة والده فأقامه حاكماً على طليطلة. فسليمان بحكم ولادته ونشأته كان شامياً ولهذا التفتّ حوله قبائل الشام وصار يمثّل الحزب الشامي في الاندلس.

اما هشام فقد ولد في الاندلس من جارية سميناها سابقاً وهي حلل اهدتها بنة يوسف الفهري عبد الرحمن، فنشأ في بيئة اسبانية اندلسية فهو يمثل الحزب الاندلسي من المولدين. والمولدون هم الذين ولدوا من آباء مسلمين وامهات اسبانيات ونشأوا على الاسلام ووصلوا الى ان كوّنوا على عهد امراء بني امية الاكثرية الساحقة من السكان. اقامه ابوه حاكماً على ولاية ماردة.

واشتدّت المنافسة بين الاخوين ويروى على سبيل المثال الشامي المعروف بأبي المخشى اختص بمدح سليمان مما اثار عليه حقد هشام. ثم نما لهشام ان هذا الشاعر قال بيتاً من الشعر يعرض به فيه ويمدح اخاه سليمان وقد ذكرنا هذا البيت في مكان آخر ولا بأس في اعادة ذكره هنا ايفاء للمعنى:

«وليس كمثل من ان سيم عرفا يقلب مقلة فيها اعورار.

وكان هشام احول فاغتاظ وركب منه ما ركب من المثلة واستدعاه الى مدينة ماردة التي كان والياً عليها فرحل اعصم اليه طامعاً في جائزته فأمر هشام بقطع لسانه، ولكن عاصم (ابن المخشى) استطاع بعد مدة ان يتكلم بعد ان نبت لسانه من جديد.

ويقال ان الامام مالك بن انس حينما بلغه الخبر بالمدينة المنورة عدّل في بعض احكامه وافتى بالتالي في دية اللسان لمدة سنة بدلاً من تأديتها على الفور مستشهداً في ذلك بحادثة الشاعر ابي المخشى.

وابن المخشى هذا نال عقاباً اكبر من هذا فانه امتدح سليمان بقصيدة فتعصب متعصب لهشام فسمل عينيه فقال في العما شعراً حسناً.

ثم قصد عبد الرحمن فأنشده اياه فرّق له واستعبر ودعا بالفي دينار فأعطاه وضاعف له دية العينين وهو الشعر الذي في اوله:

«خضعت ام بناتي للعدى ان قضى الله قضاء فمضى
ورأت أعمى ضريراً انما مشيه في الارض لمس بالعصا
فاستكانت ثم قالت قولة وهي حرّى بلغت مني المدى
ففؤادي قرح من قولها ما من الادواء داء كالعمى

وذكر ابن حيان انه مات في دولة الحكم بن هشام وانشد له الحميدي:

«وهم خافني من جوف يم كلا موجيهما عندي كبير
فبتنا والقلوب معلقات واجنحة الرياح بنا تطير

وكما قلنا فان هشام ولد من جارية اهدته اياها ابنة الفهري وبالتالي فهي ام ولد وهذا التعبير يطلق على الجارية التي اذا رزقت من سيدها ولداً لا يجوز له بيعها او هبتها، ولم يكن عبد الرحمن بحاجة الى هذا التحريم فقد شغف بحب حلل الجارية لما اظهرت من ميل وتفاني وحسن خدمة فظلّ مخلصاً لها طيلة حياته.

وحصلت المنافسة بين الاخوين وكلاهما مرشح للامارة. سليمان البكر يزيد أخاه هشاماً عشرة اعوام غير ان هشاماً كان مثقفاً عفيفاً ديّناً وله شافع آخر يشفع به وهو ان حلل امه. اما سليمان لسؤ حظه لم يكن من المعرفة على مستوى هشام، فلم تساعده الظروف على ادراك العلم فقد شبّ في وسط مضطرب عصفت به الثورات والقلاقل والفتن. ثم انه عاش شبابه بعيداً عن ابيه فلم يهتم بتعليمه اهتمامه بتعليم بقية اولاده الذين ولدوا في الاندلس اذ ان عبد الرحمن سهر على تثقيفهم وتهذيبهم، وقد يكون سليمان لا يهوى العلم والثقافة فلم يسع للحصول عليهما.

وقد عرف عن عبد الرحمن شغفة بالأدب وتضلعه من الشعر فأحبّ ذات يوم اختبار ولديه سليمان وهشام فسأل سليمان:

- لمن هذين البيتين من الشعر؟

«وتعرف فيه من ابيه شمائلاً ومن خاله او من يزيد ومن حجر
سماحة ذا مع برذا ووفاء ذا ونائل ذا اذا صحا واذا سكر

فجمد سليمان لا يحير جواباً ثم قال: لعلهما لأحد اجلاف العرب. اما لي شغل غير حفظ اقوال بعض الاعراب؟

فهزّ عبد الرحمن رأسه واطرق قليلاً ثم رفع رأسه والتفت الى هشام وقال له:

- لمن هذين البيتين؟

فأجاب هشام في الحال، هما يا سيدي لامرىء القيس وكأنه قالهما في الامير (يعني اباه عبد الرحمن) اعزه الله

ودهش الحاضرون من سعة معرفة هشام وتأدبه. وسرّ والده في سرّه لأنه بالحقيقة كان يفضّل هشاماً على سليمان، ولم يك يومئذ ثمة نظام خاص لولاية العهد بل كانت ولاية العهد كما هو مأثور حقاً مفوّضاً للامير او للامام يجريه وفقاً للمصلحة العامة ومع ذلك فان عبد الرحمن لم يبت بالأمر كما سنرى وقد رأينا ان نذكر شيئاً عن الخلافة والامامة كما يراها ابن خلدون في مقدمته وقد اقتطفنا منها هذه المقاطع:

«لما كانت حقيقة الملك انه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية كانت احكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق مجحفة بمن تحت يده من الخلق في احوال دنياهم لحملهم اياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من اغراضه وشهواته، ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم فتعسر طاعته لذلك وتجيء العصبية المفضية الى الهرج والقتل فوجب ان يرجع في ذلك الى قوانين سياسية ينقادون الى احكامها، فان كانت مفروضة من الله بشارع يقررها كانت سياسية دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وكان الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام في مقامهم وهم الخلفاء

فالخلافة اذاً، هي نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وامامة، والقائم به خليفة واماماً، فاما تسمية اماماً فتشبيها بامام الصلاة في اتباعه والاقتداء به واما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في امته.

والبيعة في العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على ان يسلم له النظر في امر نفسه وامور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الامر على المنشط والمكره. وكانوا اذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا ايديهم في يده تأكيداً للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمي بيعة مصدر باع وصارة البيعة مصافحة بالأيدي.

حقيقة الامامة هي النظر في مصالح الامة لدينهم ودنياهم فالامام هو وليهم والامين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته ويتبع ذلك ان ينظر لهم بعد مماته ويقيم لهم من يتولى امرهم كما هو يتولاها ويثقون بنظره لهم في ذلك ما وثقوا به من قبل. وقد عرف ذلك من الشرع باجماع الامة على جوازه وانعقاده اذ وقع بعهد ابي بكر رضي الله عنه لعمر بمحضر من الصحابة واجازوه واوجبوه على انفسهم به طاعة عمر. وتجب مراعاة المصلح كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد العهد دون سواه، انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق اهوائهم باتفاق اهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني امية اذ بنو امية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش واهل الملة اجمع فآثروه بذلك دون غيره ممن يظن انه اولى بها وعدل عن الفاضل الى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الاهواء الذي شأنه اهم عند الشارع وان كان لا يظن بمعاوية غير هذا، فعدالته مانعة من سوى ذلك وحضور اكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا مما يأخذهم في الحق هوادة.

بما تبين ان حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف في الامرين، اما في الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية الذي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها، واما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري، امامة الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الامامة الكبرى التي هي الخلافة فكأنها الامام الكبير والاصل الجامع وهذه كلها متفرعة عنها وداخلة فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها في سائر احوال الملة الدينية والدنيوية.

فاما امامة الصلاة فهي ارفع هذه الخطط كلها وارفع من الملك

بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة. وعلى ما يظهر ان عبد الرحمن الداخل ظل يتردّد حتى آخر لحظة في حياته بين سليمان وهشام هشام له فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه. وسليمان له فضل سنه ونجدته وحب الناس له.

وفاة عبد الرحمن

عبد الرحمن على فراش المرض، وحلل لا تفارقه وتكفات ووانسوس وابنه عبد الملك، وقد غلب عليه الضعف والهزال.

ـ اقترب يا بني، هل ارسلت في طلب اخويك سليمان وهشام؟

ـ اجل، سيدي، وجهت الرسل منذ خمسة ايام الى طليطلة وماردة.

ـ دع عنك البكاء واسمعني جيداً، هذا خاتمي. من سبق اليك من اخويك فابرأ اليه بالخاتم والأمر، فان سبق اليك هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه، وان سبق اليك سليمان فله فضل سنة ونجدته وحب الناس له.

ـ سمعاً وطاعة، سيدي.

ـ ان ساعتي دنت واني سائر الى لقاء ربي عن قريب، خارت قواي ودبّ الشلل في مفاصلي.

وراح يتلو هذه الصلاة:

«اللهم اسمع دعاء عبدك اليك وتضرّعه بين يديك واعرف له حق ايمانه بك وتصديقه برسلك الذين صليت عليهم وسلمت. اللهم اني جان مفترق وهائب معترف لا ادعي براءة ولا ارجو نجاة الا برحمتك اياي وتجاوزك عني. اللهم انك كتبت علي في الدنيا التعب والنصب وكان في قضائك وسابق علمك قبض روحي في غير اهلي وولدي. اللهمّ فبدل لي التعب روحاً وريحاناً وجنة نعيم انك المفضل الكريم.»

ويحني رأسه الى جانب حلل ويغمض عينيه فتدنو حلل مرتمية عليه تحاول ان تيعيد الحياة اليه وهي باكية العين كئيبة الفؤاد لا تريد ان تتعزى.

وفي هذه الأثناء يدخل هشام في ثياب السفر والعرق يتصبب منه واللهفة في وجهه ويرتمي على والده: سيدي ابي.

يجهش بالبكاء.

وبعد ساعات قليلة دخل سليمان ايضا في ثياب السفر فأكبّ على جثمان والده نائحاً باكياً

وفي هذه الأثناء يدفع عبد الملك البلنسي الخاتم الى هشام:

ـ هذا لك حسب وصية والدنا فقد وصلت الأول.

وامتعض سليمان ولكنه استطاع اخفاء امتعاضه الى حين فاحترام الميت واجب.

ويقترب عبد الملك البلنسي من جثمان والده ويقول له باكياً:

ـ نفذت اوامرك يا ابتاه فنم قرير العين.

كان ذلك اليوم الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ ـ ٢ تشرين الأول اكتوبر سنة ٧٨٧ مسيحية. وهو في الثامنة والخمسين من عمره.

اتهم عبد الرحمن الداخل بصرامته وقساوته فقد قال عنه المستشرق دوزي: «لقد دفع عبد الرحمن ثمن ظفره على اعدائه الكثيرين غالياً. . . ذلك الطاغية الصارم المنتقم الذي لا تأخذه رأفة ولم يبق زعيم بربري او عربي يجروء على مواجهته صراحة ولكن الجيمع كانوا يلعنونه خفية ولم يك ثمة رجل يرغب في خدمته.»

انه حكم جائر لا نقاسم دوزي هذا الحكم والرأي.

كان هم عبد الرحمن الدائم ان يعود العرب والبربر على الطاعة وان يعودهم ايضاً على ممارسة النظام والسلام. وقد لجأ في تحقيق هذه الغاية الى جميع الوسائل التي لجأ اليها ملوك القرن الخامس عشر لسحق الاقطاع. بيد انه كان مصيراً محزناً ذلك الذي دفع القدر اليه الاندلس، وكانت مهمة محزنة تلك التي كان على خلفاء عبد الرحمن ان يضطلعوا بها ذلك ان الطريق الذي رسمه لهم مؤسس الاسرة كان طريق الطغيان يؤيده السيف.,

من الحق ان نقول ان ملكا ما لا يستطيع ان يحكم العرب والبربر بغير هذه الوسيلة واذا كان العنف والطغيان من ناحية، ففي الناحية الأخرى يوجد الاضطراب والفوضى.

لقد جرب عبد الرحمن الداخل جميع الوسائل لحمل الثوار في الاندلس على الاخلاد الى الدعة فعفا عن بعضهم اولاً وثانياً وعادوا الى التمرد. فكان عليه ان يضع السيف موضع الندى.

ولقد حار في امره فاذا استعمل العنف قالوا عنه انه سريع الى سفك الدماء واذا استعمل الحلم قالوا عنه انه ضعيف، واذا عدل عن هذا وذاك قيل عنه انه متقاعد عن احوال مملكته. وما اشبه حاله بحال الاب والابن والحمار:

«ذكروا ان رجلاً خرج هو وابنه ولهما حمار يركبانه فسمعا الناس يقولون: ما اعظم جفاء هذا الرجل واقل حياؤه ركب هو ابنه حماراً ضعيفاً فهلا نزل وخفف عنه.

فنزل عن الحمار وترك الولد فسمع الناس يقولون: «اركب ابنه القادر على المشي وترك نفسه مع الضعف، والشيخ يطارح الولد سوء الادب وسوء المعاملة.

فانزل الولد وركب فسمع الناس يقولون: ولد صغي آثر نفسه عليه وتركه يتعب دونه ولم يرحمه

فنزل وترك الحمار خالياً ظهره فسمعهم يقولون: حمار يسير بطالا وشيخ وصغير خلفه قد حرم هذا الشيخ نفسه وابنه حرصاً وصوناً للحمار فعل الله به وصنع.

فقال: يا ولدي حرنا مع هؤلاء لم يخلصنا معهم شيء والحق ان نعمل ما يظهر لنا ولا نلتفت اليهم.

وفي مثل هذا الحال يقول لسان الدين الخطيب من قصيدة طويلة شرح فيها حاله فيما بلي به بالاندلس من مكابد الصم والبكم الذين يعقلون جاء فيها:

«ان تورعت اصبحت حوز الملـ	ـك ضياعاً لجراءة الفجار
او طردت العفاة خفت من اللـ	ـه اذا ما سئلت عن اوزاري
او تقاعدت: اصبح الأمر فوضى	تلعب الشاة فيه بالجزار
او تعرضت وانتدبت سمعت النـ	ـقد حال الايراد والاصدار
لا يزال الملام عني بحال	حالة الشيخ وابنه والحمار

قد تهم للجهاد فاستكوا الضعـ ـف وضجوا لكثرة الاسفار
ملت للصلح سموا الصلح شرا عكس قول المهيمن الجبار
سستهم لست ابغي غير حق الله او قومتي بحق الجار
فجزوني جزاء من يخدم السلـ طان فيما مضى من الاعصار
من مماليك كالسباع ووصفا ن وغز وديلم وتتار
لم نجد مسلما يقوم بحقي ناظراً بمقلة استعبار
او ولياً يعطي لطوري حقاً ويرى فضله على الاوطار
غير اعمى يظل يعلق في رحا لي علوق الكروم في الاشجار
طالباً كل ما اقتضاه هواه هبه بالربح عاد او بالخسار.

ويواصل لسان الدين بن الخطيب قائلاً: «قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين

ماذ تريدون من عبد الرحمن الداخل ان يصنع عندما يرى اعداءه الشيعة يطاردونه حتى الى الاندلس فهذا عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر وجده عمار كان من اشد اصحاب عليّ اخلاصاً له وتفانياً في الدفاع عنه وقد قتل عمار في صفين بأيدي الامويين. ويجب الا ننسى مدى الصلة الوثيقة بين المنازع الحزبية والعصبية القبلية المتوارثة في هذه الفترة من حياة المسلمين، فقد ظل عبد الله بن سعيد هذا معادياً للحزب الأموي في الاندلس. وقد استغلّ هذه العداوة يوسف الفهري امير الاندلس عند قدوم عبد الرحمن الداخل فعهد الى الياسري بقتاله بما كان يعرفه من الخصومة والثأر بين عائلتيهما ولكن لم يكتب النجاح لهذه الثورة.

والثورة الشيعية الثانية هي التي قام بها الحسين بن يحيي بن سعد بن عبادة الخزرجي فقد ثار في سنة ١٦٥ (٧٨٢) بسرقسطة وخلع طاعة عبد الرحمن وشايعه سليمان بن يقظان الاعرابي.

والمركز الثاني للتشييع وهو الأهم: القبائل البربرية وذلك ان التشييع منذ نشأته اتخذ صبغة مضادة للعرب وللعصبية العربية، وكما ان التشييع في المشرق قام عليه الموالي من الفرس فكذلك في المغرب قام عليه الموالي من البربر، ولهذا فقد كانت بلاد شمال افريقية تربة خصبة للدعوات الشيعية

وقد تردد صدى التشيع في الاندلس لاول مرة بين صفوف البربر الذين اشتركوا مع العرب في الفتح واستأثر دونهم العرب بمغانم الانتصار وثمراته، فالبربر استوطنوا على الاغلب المناطق الجبلية والهضاب المرتفعة لا سيما الممتدة في وسط شبه الجزيرة وهي المنطقة التي كانت تعرف بالجوف وكذلك المناطق الجبلية في جنوب شرقي الاندلس في كورة البيرة وهذا هو ما ترك لهم السادة العرب بعد ان احتلوا اهم الوديان الخصبة والسهول وقد كانت المناطق البربرية ميداناً لجميع الثورات الشيعية التي عرفتها الاندلس.

وقد شهدنا ثورة شقيا بن عبد الواحد في منطقة شنتبرية وكانت اخطر الثورات التي هددت عبد الرحمن الداخل واطولها اذ استمرت من ٧٦٨ - ٧٧٧ كما رأينا وقد امتدّت ما بين ماردة وقورية غرباً الى الثغور الى وادي الحجارة وقونكة شرقاً اي في جميع الهضبة التي تتوسط شبه الجزيرة وكان هذا الثائر معلم صبيان اصله من لجدانية ووادي الحجارة وكانت امه تسمى فاطمة فادعى انه فاطمي وتسمى بعبد الله بن محمد. وماذا تريدون من عبد الرحمن الداخل ان يصنع؟ هل يقف مكتوف الأيدي امام هذه الثورة التي شملت اكثر من نصف مملكته؟ كلا من الطبيعي ان يرد عليها بكل ما اوتي من قوة فسير، كما رأينا ضده جيوشاً كثيرة ولم تنل منه مأرباً،فالفاطمي كان يستخدم اسلوباً مألوفاً لدى البربر وهو تجنب المعارك الحاسمة في السهول والفرار الى قمم الجبال اذا احس بالخطر. ولم يتمكن عبد الرحمن من هذا الثائر إلّا بمؤامرة دبرها له بعض اصحابه فاغتالوه.

ويسميه ابن عذاري: «الداعي الفاطمي «وربما دلّ هذا على انه كان يدعو لغيره بالخلافة وعلى كل حال فقد كان لثورته طابع روحي مذهبي.

ويذكر صاحب «اخبار مجموعة» ان القائد الأموي وجيهاً الغساني «وهو الذي وجهه عبد الرحمن لمحاربته اقتنع بدعوته وآمن بها وصار من اكبر اعوانه وظل مخلصاً له حتى بعد قتله اذ هرب الى جبال البيرة وما زال يقاتل جيوش عبد الرحمن بشجاعة واستبسال حتى قتل.

واذا رجعنا الى جميع الحروب التي خاضها عبد الرحمن الداخل طيلة ثلاث وثلاثين سنة، باستثناء المعركة الأولى مع الفهري فقد كان في موقف

المدافع عن النفس، كلها كانت ثورات ضده وكان عليه ان يقمعها مهما كلف الأمر.

وهكذا تصرف وحسنا فعل.

ولعل اصدق شهادة لعبد الرحمن الداخل جاءت من ألدّ اعدائه ابي جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني

فقد روى عن ابي جعفر المنصور انه سأل اصحابه يوماً:

- من صقر قريش؟

قالوا: امير المؤمنين الذي راض الملك وسكن الزلزال وحسم الادواء

قال: ما صنعتم شيئاً.

قالوا: فمعاوية

قال: ولا هذا

قالوا: فعبد الملك بن مروان.

قال: لا

قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟

قال: عبد الرحمن بن معاوية الذي تخلص بكيده عن سنن الاسنة وظبأة السيوف، يعبر القفر ويركب البحر حتى دخل بلداً اعجمياً فمصر الأمصار وجنّد الأجناد وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة عزمه.

ان معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلّلا صعابه

وعبد الملك ببيعة تقدمت له

وامير المؤمنين (المنصور) بطلب عترته واجتماع شيعته

وعبد الرحمن منفرداً بنفسه مؤيداً برأيه مستصحباً لعزمه، فلا تعجبوا لامتداد امرنا مع طول مراسه وقوة اسبابه فالشأن في امر فتى قريش الاحوذي الفذ في جميع شؤونه وعدمه لاهله ونسبه وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرتقى همته ومضاء عزيمته حتى قذف بنفسه في لجج المهالك لابتناء مجده.

ربيع ١٩٨٢

سيمون الحايك

المراجع العربية:

دولة الاسلام في الاندلس العصر الاول ـ القسم الاول
عبدالله عنان

- نصوص عن الاندلس تأليف احمد بن عمر بن انس العذري، تحقيق الدكتور عبد العزيز الاهواني ـ مطبعة معهد الدراسات الاسلامية مدريد ١٩٦٥
- في تاريخ المغرب والاندلس، تأليف الدكتور احمد مختار العبادي، مؤسسة الثقافة الجامعية ـ. الاسكندرية
- نفح الطيب ج١ و ج٢
- مقدمة ابن خلدون، المطبعة الكاثوليكية بيروت.
- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي ج٢ تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر
- تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، تحقيق الدكتور احمد مختار العبادي، معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٧١
- الحلل السندسية بقلم الامير شكيب ارسلان ج١ و ج٢ ١٩٣٦
- تاريخ اسبانية الاسلامية او كتاب اعمال الاعلام تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف ـ بيروت.
- الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية تأليف ابن الطقطقي ١٣٤٥ ـ ١٩٢٧ المطبعة الرحمانية بمصر
- صقر قريش، كرم ملحم كرم، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت
- رحلة الاندلس، حديث الفردوس المفقود، حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة سنة ١٩٦٣

المراجع الاجنبية

— A. Dozy: Historia de los Musulmanes de España, tomo I Madrid. 1920.
— Antony Fon Eisen: Le prince d'Omeya plein vent Laffont Paris
— Guy Breton: Historia de amor de la Historia de Francia (I), Bruguera
— Bernardo Estornes Lasa: El Cantar de Roncesvalles San Sebastian
— Historia de la dominacion de los arabes en España: Conde, Madrid 1874
— Mahoma y Carlomagno, Henri Pirenne. Alianza Editorial. Madrid 1978

سلسلة «ابطال من الاندلس»

ظهر منها حتى الآن:

- بلاي الرومي، او العرب في اسبانية وجنوبي فرنسة
- عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)
- الناصر لدين الله (عبد الرحمن الثالث اول خليفة في الاندلس)
- صبح البشكنسية او الدولة العامرية)
- السيّد عنترة الاسبان ، او الاندلس على عهد ملوك الطوائف وقدوم المرابطين اليها

- الفهرس -

صفحة

